رفع
المسـهم
غفر الله له ولوالديه

الأمالي
في الأدب الإسلامي

أ. د. ابتسام مرهون الصفار

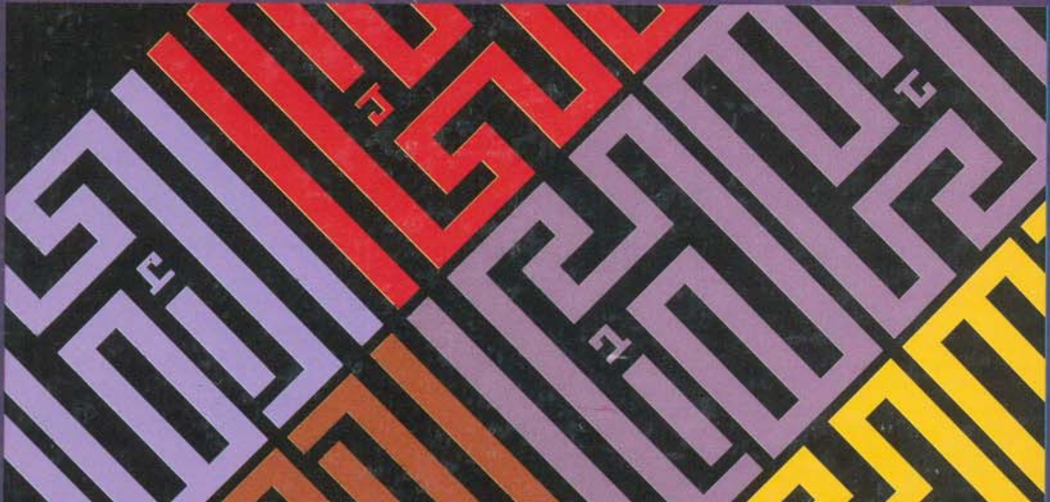

٨١٠,٩٢
إب.أم

رفع
المسـهم
غفر الله له ولوالديه

رفع
المسَاهِم
غفر الله له ولوالديه
2010-09-13
www.alukah.net
www.almosahm.blogspot.com

الأمالي في الأدب الإسلامي

تأليف
أ.د. ابتسام مرهون الصفار
كلية الآداب/ جامعة مؤتة

دار المناهج للنشر والتوزيع

رفع
المسَاهِم
غفر الله له ولوالديه

بسم الله الرحمن الرحيم

دار المناهج للنشر والتوزيع

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦م

جميع الحقوق محفوظة

استناداً إلى قرار مجلس الإفتاء رقم ٣/ ٢٠٠١ بتحريم نسخ الكتب وبيعها دون إذن المؤلف والناشر وعملاً بالأحكام العامة لحماية حقوق الملكية الفكرية فإنه لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية	٢٠٠٥/٢/٦٤٦
٨١٠,٢	الصفار ، ابتسام مرهون الأمالي في الأدب الإسلامي/ابتسام مرهون الصفار عمان–دار المناهج، ٢٠٠٥ ر.إ: ٢٠٠٥/٢/٦٤٦ المواصفات: الأدب الإسلامي /الأدب العربقي/العصر الإسلامي
تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية	
رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر	٢٠٠٥/٣/٦٢١

ISBN 9957-18-069-X(ردمك)

عمان - الأردن - شارع الملك حسين - بناية الشركة المتحدة للتأمين

هاتف ٤٦٥٠٦٢٤ فاكس (٠٠٩٦٢٦) ٤٦٥٠٦٢٤

ص.ب - ٢١٥٣٠٨ عمان ١١١٢٢ الأردن

رفع
المسلم

الإهداء

إلى زوجي الأستاذ الدكتور بدري محمد فهد

وإلى أحبتي هالة وأســـامة ولبنى وأنس

وإلى طلبتي في البلاد العربيــــــة

المؤلفة

المحتويات

المقدمة ٩

التمهيد

١- مصادر الأدب الإسلامي ١٣
٢- ظواهر عامة في الأدب الإسلامي ٢٩
أ- شموله الشعر والنثر ٢٩
ب- ضياع كثير من الأشعار ٣٠
ج- الانتحال ٣١
د- شعر غير منسوب ٣٣
هـ- اختلاف نسبة الأبيات ٣٤
و- ضياع شعر المشركين ٣٤
هوامش التمهيد ٣٥

الفصل الأول

الشعر في صدر الإسلام

١- الإسلام والشعر ٤١
أ- القرآن الكريم والشعر ٤١
ب- الرسول ﷺ والشعر ٤٥
٢- حالة الشعر في صدر الإسلام ٥٠
أ- شعر المشركين ٥٠
ب- شعر المسلمين وواقع الحركة الشعرية ٦٣
هوامش الفصل الأول ٧٤

رفع
المسيهما

الفصل الثاني

دراسة تفصيلية لبعض شعراء العصر

١- دراسة تفصيلية لشاعرين من شعراء الدعوة الإسلامية ٨٣
أ- حسان بن ثابت ٨٣
ب- عبد الله بن رواحة ١٠٦
٢- دراسة تفصيلية لشاعرين قلّ تأثرهما بالإسلام ١١٩
أ- الحطيئة ١٢٠
ب- متمم بن نويرة اليربوعي ١٣٧
هوامش الفصل الثاني ١٥٥

الفصل الثالث

أغراض الشعر الجديدة في صدر الإسلام

١- شعر العقيدة والدعوة ١٦٩
أ- التبرئة من عبادة الأصنام، وإعلان الإسلام ١٦٩
ب- محاجة المشركين ١٧٧
ج- مناقشة المرتدين ١٧٣
د- البراءة من المشركين ١٧٤
هـ- العودة إلى الإسلام مرة أخرى ١٧٥
٢- شعر الجهاد والفتوح الإسلامية ١٧٦
أ- الثبات على العقيدة في مكة ١٧٦
ب- الهجرة في سبيل الله ١٧٧

٧

ج- الجهاد في سبيل الله ١٨٢

رفع المسامر

د- صور إنسانية في شعر الفتوح ١٨٤
١. شعر المقعدين والشيوخ ١٨٥
٢. شعر الشباب والأبناء المجاهدين ١٨٩
هـ- وصف المعارك ١٩٠
و- وصف طبيعة البلاد المفتوحة ١٩٢
ز- الرسائل الشعرية ١٩٦
ح- الحنين إلى الوطن ورثاء النفس ١٩٩
هوامش الفصل الثالث ٢١٣

الفصل الرابع

أغراض شعرية قديمة

١- المديح ٢١٩
٢- الهجاء ٢٣٦
٣- الرثاء ٢٤٢
٤- الغزل ٢٤٧
٥- الحكمة ٢٤٩
هوامش الفصل الرابع ٢٥٥

الفصل الخامس

النثر في صدر الإسلام

١- تطور الخطابة في عصر الرسول ﷺ ٢٦٤
خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع ٢٦٩
٢- الخطابة زمن الخلفاء الراشدين ٢٧٦
أ- خطب البيعة والخلافة والولاية ٢٧٦

ب- خطب الوعظ والخطب الرسمية ٢٧٩
جـ- خطب الوفود والرسل والمفاوضات ٢٨٠
د- خطب الفتن والأحداث ٢٨٢
٣- الرسائل ٢٨٣
نصوص وتحليل ٢٩٢
هوامش الفصل الخامس ٢٩٩
المصادر والمراجع ٣٠٥
المؤلفات والكتب المنشورة ٣١٢

رفع
المسلم

مقدّمة

كنّا قد درسنا الأدب الإسلامي في كتابنا الأمالي في الأدب الإسلامي[١] مع الأدب في العصر الأموي، فكان كتابنا شاملاً للأدب الذي قيل في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، سواء في ذلك الشعر الملتزم بمبادئ الإسلام أو الشعر الذي قيل على لسان المشركين في عصر صدر الإسلام، أو الشعراء غير الملتزمين في العصر الأموي.

هو منهج تاريخي إذن. وقد وجدنا كثيراً من الباحثين يدرسون الأدب الأموي ضمن الأدب الإسلامي[٢]، ولعلهم يعدونه امتداداً له مع ما وجد فيه من تيارات أدبية وفكرية جديدة ومتطورة نتيجة تغيرات العصر ومستجداته. ودرس باحثون آخرون ظواهر أدبية وفنية فكان عصر صدر الإسلام ضمن الدراسة، حيث تنتهي بنهاية العصر الأموي كدراسة النقائض[٣]، والشعر السياسي[٤]، والشعر الغنائي والغزل[٥]،ويسمون أدب هذا العصر بامتداده الأدب الإسلامي[٦] أو أدب صدر الإسلام[٧]، وأفرد آخرون أدب صدر الإسلام بدراسات منفصلة[٨] [٩].

ورأينا هنا أن نعود إلى فصل الأدب الإسلامي عن الأدب الذي قيل في العصر

---

(١)طبعته وزارة التعليم العالي ، في دار الحكمة عام ١٩٩١ .

(٢) مثل ما قام به مؤرخو الأدب حين درسوا العصرين في كتاب واحد. انظر تاريخ الأدب العربي، نالينو. القاهرة، دار المعارف ١٩٧٠، وتاريخ الأدب العربي بلا شير، ترجمة إبراهيم الكيلاني، وتاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث، البهبتي القاهرة، دار الكتب ١٩٥٠.

(٣) تاريخ النقائض في الشعر العربي، أحمد الشايب القاهرة ١٩٦٦، وتاريخ النقائض لمحمود غناوي.

(٤) تاريخ الشعر السياسي: أحمد الشايب مطبعة الاعتماد، مصر ١٩٤٥.

(٥) الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية، دار العلى العربي، القاهرة ١٩٤٩، ١٩٥٣.

(٦) تابع بلاشير في تاريخ الأدب العربي الظواهر الأدبية والبيئية مدرجاً الإسلاميين والأمويين في حيز واحد، ص ٢٨١، فما بعدها.

(٧) تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي شوقي ضيف .

(٨)تطور الاساليب النثرية / المقدسي/ ٦٨٧ صدر الإسلام جورج غريب .

(٩)سمي محمد مهدي البصير كتابه عصر القرآن، وسماه صلاح الدين الهادي: الأدب في عصر النبوة والراشدين، وحمل عنوان دراسات في الأدب الإسلامي أكثر من كتاب لكل من محمد أحمد خلف، وعبد القادر القط، ويحيى الجبوري وسامي مكي العاني.

رفع المساهم

الأمـوي لغرض تيسير الدراسة، وإضافة ما يمكن إضافته من تحليل للنصوص الأدبية، ودراسـة الشـعراء الذين تركوا أثراً في الحياة العامة والأدبية خاصة، ولأن لهذا الأدب خصوصـية منحتـه سمـات خاصة، ولنفسح المجال لتفصيلات أكثر تخص أدب العصر الأمـوي في كـتاب مفرد أيضاً. وهو أمر تجاوزناه في كتابنا الامالي هذا، فسددنا الخلل الذي شعرنا به عند تدريس الكتاب في الجامعات العراقية منذ عام ١٩٩١ ولغاية عام ٢٠٠٠، وذلـك مـن خـلال تدريسنا مادة الأدب الإسلامي اولاً وسماعنا ملاحظات الزملاء الذين درسوا الكتاب في كليات وأقسام أخرى.

والجديـر بالذكـر أن إطلاق مصطلح الأدب الإسلامي قد يقصـد به كـل مـا قـيل عـن الإسلام، أو كـل أدب ملتزم بمبادئ الإسلام منذ ظهور هذا الدين الحنيف حـتى عصـرنا الحاضر، وهو تيار له معالمه وشعراؤه، ويستحق الدراسة والتتبع، لكننا قصـدنا في هـذا الكـتاب دراسـة واقـع الأدب العـربي منذ ظهور الإسلام حتى بداية العصـر الأمـوي، فـيكون مصـطلح الأدب الإسـلامي حصـراً تاريخياً نقصد به تيسير دراسـة الأدب وفـق زمـن محـدد، ولـيس دراسته وفق المنهج التاريخي بتتبع الأحداث التاريخية والبحث عن آثارها في الشعر فحسب.

لقـد بدأ المستشرقون الكتابة وفق هذا التقسيم التاريخي، فقسموا العصور الأدبية عـلى أقسام تتفق مع العصور السياسية، وتبعهم المؤلفون العرب. نجد هذا واضحاً في كتـب تـاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ثم جرجي زيدان ومحمود مصطفى، وشوقي ضيف وغيرهم.

ومـن المعـروف أن تقسيم الأدب الى عصور تاريخية موافقة لنشأة الدول سياسياً مـنهج له حسـناته، وعلـيه مـآخذ. أمـا حسـناته فتظهر في محاولة الحصر والاستقصاء ضـمن عصـر معـين، وأما مآخذه، فتظهر في صعوبة فصل النصوص الأدبية والابداع الفـنى بسنوات التاريخ الحاسمة؛ لأن التغيرات السياسية التي تحدث أنظمة جديدة قد لا تـترك صـداها إلا بعد مدة تطول أو تقصر، حسب تفاوت الشعراء في تلقيهم تغير الاحداث، وانفعالهم معها، أو خوضهم غمارها بحيث يستدعي ذلك الشعر والابداع.

رفع المسهم

لقد درسنا في التمهيد قضيتين مهمتين لابد من الوقوف عندهما، الاولى عن مصادر الأدب الإسلامي والثانية عن مظاهر عامة تخص هذا الأدب.

أما المصادر التى روت الأدب الإسلامي فهي متنوعة المشارب والمناهج. وقد رصدنا من خلالها مؤلفات أفردت لشعراء اسلاميين، وأخرى لأمويين، وكتب المختارات الشعرية، ثم المجاميع الأدبية، والمؤلفات التي ترجمت للشعراء، ثم كتب الأدب عامة، وكتب الامالي، وألحقنا بها جولة في كتب التراجم العامة التي يمكن أن نجد فيها أخباراً للشعراء مثل كتب تراجم اللغويين، والنحويين، وتراجم الأدب، وكتب التراجم العامة، ثم مؤلفات النقد الأدبي القديم، ودراسات إعجاز القرآن الكريم التي نجد فيها وقوفاً عند قضايا أدبية تخص الأدب الإسلامي، أو شواهد يتمثل بها. وأخيراً كتب التاريخ والجغرافية وما يمكن أن تقدمه من مادة أدبية.

والقضية الثانية التي وقفنا عندها في التمهيد هي الظواهر العامة التي نلمحها في أدب هذا العصر كشموله الشعر والنثر، وظاهرة الوضع والانتحال اللتين تحدث عنهما مؤرخو الأدب في العصر الجاهلي، وأخيراً ظاهرة وجود شعر غير منسوب، ومقطوعات قصار.

والكتاب بعد هذا التمهيد يقع في خمسة فصول، **الأول** يناقش قضية الإسلام والشعر، والقرآن الكريم والشعر، وموقف الرسول ﷺ من الشعر، ثم دراسة تفصيلية لحالة الشعر في صدر الإسلام.

أما **الفصل الثانى** فدرسنا فيه شاعرين من شعراء الدعوة الإسلامية هما حسان ابن ثابت، وعبد الله بن رواحة، ثم شاعرين قلَّ تأثرهما بالإسلام ولكل منهما ظروفه والاسباب التي منحت شعره سماتها، وهما الحطيئة ومتمم بن نويرة.

أما **الفصلان الثالث والرابع** فقد خصصناهما لدراسة أغراض الشعر في هذا العصر. لقد تابع الفصل الثالث أغراض الشعر الجديدة، وهي شعر العقيدة المتمثل في إعلان الشعراء التبرئة من عبادة الاصنام، ومحاجة المشركين، ومناقشة المرتدين فيما

بعد. ثم شعر الجهاد والفتوحات الإسلامية الذي وجدنا فيه معاني وأغراضاً صورها الشعراء كالثبات على العقيدة والمبدأ، والهجرة في سبيل الله، ثم الصور الإنسانية التي ولدتها ظروف الفتوح، وهي صور رائعة خالدة صور فيها الشعراء المقعدون مشاعرهم إزاء فراقهم لابنائهم المجاهدين، ثم مشاعر أولئك المجاهدين، وهم يبتعدون عن أهليهم وذويهم.

أما **الفصل الرابع** فقد تابع الأغراض الشعرية التقليدية التي قال فيها الشعراء في هذا العصر، وما تطور منها، وما طرأ عليها من تغيير في المعاني...

أما **الفصل الأخير (الخامس)** فقد تناول النثر في العصر الإسلامي ودرس فيه التطور الكبير الذي شهده النثر في هذا العصر بفنيه الخطابة، والرسالة، محاولين ذلك من خلال النصوص النثرية، والوقوف عند الشواهد محللين، وموثقين.

وبعد، فهذا هو كتاب الامالي نضعه بين يدي القارئ، راجين من الله تعالى الخير في الدنيا والآخرة. وأتقدم بالشكر لإبننا أسامة على ماقدمه من تعاون.

والله ولي التوفيق

أ.د ابتسام مرهون الصفار

التمهيد

١- مصادر الأدب الإسلامي:

يمكن أن نبدأ حديثنا عن مصادر الأدب الإسلامي بمقولة أبي عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير.(١)

إن هذا القول يعني ضياع كثير من النصوص الأدبية. ولما كان الشعر أسهل حفظاً وأكثر تداولا، وأسرع سيراً فى القبائل فإنَّ نصيبه من الحفظ أكثر من النثر وقد انتقل إلينا عبر قنوات ذلك العصر التي اعتمدت أول ما اعتمدت على الرواية الشفوية التي وضع لها الرواة أصولاً وشروطاً، منها ما يخص النص المروي، ومنها ما يخص الراوي مما نجده في المقدمة التي كتبها ابن سلام لكتابه طبقات فحول الشعراء.

وكان للتدوين مكانه في حفظ بعض الأشعار، وخاصة ما يتعلق بالشعر في عصر الدعوة، ثم أشعار القبائل العربية فيما بعد، ويكفي أن نشير هنا إلى سماح الخليفة عمر ابن الخطاب للأنصار بتداول أشعارهم حين نهاهم عن انشادها قائلاً :

(إني كنت نهيتكم أن تذكروا ما كان بين المسلمين والمشركين شيئا؛ دفعاً للتضاغن وبث القبيح فيما بينكم، فأما إذا أبوا، فاكتبوه، واحتفظوا به)(٢)

ويمكن الحديث عن مصادر الأدب الإسلامي من خلال المسارات الآتية:

١- ما ألفه علماء اللغة والرواة من مؤلفات في الأدب عامة، أو الشعر والشعراء وأخبارهم خاصة.
٢- كتب الاختيارات.
٣- كتب الأدب العامة.
٤- كتب التراجم الأدبية واللغوية، وكتب تراجم الرجال.
٥- كتب اللغة.
٦- كتب الفهارس.
٧- كتب البلاغة والنقد.
٨- كتب التاريخ والمعاجم الجغرافية.

رفع المسهم

١- تآليف علماء اللغة والرواة:

تبدو جهود علماء اللغة والرواة، ثم الأدباء - فيما بعد- كبيرة جداً في حفظ الشعر العربي وتوثيقه، فقد بذلوا جهوداً كبيرة في جمع أشعار الشعراء منفردين أو في مجاميع. ومعظم المؤلفات والدواوين التي سنذكرها لم تصل إلينا، وانما ذكرت في تراجم مؤلفيها. وأما ما حقق منها، وطبع فإننا نشير إليه في موضعه.

ويقف أبو عمرو الشيباني، واسمه إسحاق بن مرار(ت ٢١٣ هـ) في مقدمة جامعي الدواوين. فقد كان لهذا الرجل الفضل الكبير في جمع أشعار القبائل، وعنه أخذت دواوينها. وقد قيل انه لما جمع أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة، فكان كلما عمل منها شعر قبيلة وأخرجه إلى الناس كتب مصحفاً، وجعله في مسجد الكوفة حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً. (٣)

وعمل السكري أشعار خمس وعشرين قبيلة(٤)

ومن الرواة المدائني المتوفى (سنة ٢١٥ هـ) الذي كتب في أخبار الشعراء:

- من نسب إلى أمه من الشعراء.
- من تمثل بشعر في مرضه.
- كتاب النجاشي.
- كتاب أبي الأسود الدؤلي.
- كتاب مهاجاة عبد الرحمن بن حسان للنجاشي.(٥)

وأما ألاصمعي فمعظم مؤلفاته في اللغة، ورأيه معروف في الأدب الإسلامي وشعرائه؛ لانه كان معنياً بالشعر الذي يصح الاستشهاد به، وهو الشعر الجاهلي. ويظهر هذا في رسالته الموسومة بـ (فحولة الشعراء)(٦) التي ذكر فيها رأي أبي عمرو ابن العلاء الذي لم يكن يروي للمحدثين، وأنه سئل عن جرير والفرزدق والأخطل فقال: لا أقول فيهم شيئاً هم إسلاميون، وهذا يعني موقفاً نقديا إزاء الشعراء الإسلاميين والأمويين ورواية أشعارهم. ومع هذا ذكر انه ألف كتاب شعر النابغة والحطيئة، ويبدو أنه ألفه وفي نظره أن الحطيئة أقرب إلى الجاهليين منه إلى الاسلاميين،

أو هو جاهلي الشعر كما فعل ابن سلام فيما بعد حين وضعه في الطبقة الثانية من الجاهليين، وألف الاصمعي كتاب الاصمعيات وفيه مختارات لشعراء الجاهلية والاسلام [٧].

ولمحمد بن الحسن الأحول كتاب دواوين جماعة من العرب. [٨]

وألف أبوعبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ):

- نقائض جرير والفرزدق. [٩] وذكر ابن النديم أن سعدان بن المبارك رواه أيضاً عن أبى عبيدة [١٠] وفي ثنايا أخبار جرير والفرزدق نجد إشارات إلى أخبار الشعراء في عصر صدر الإسلام وموقف قبيلة الشاعرين من الأحداث في العصر الإسلامي، ذكرت عرضاً.

وله: .

- الشعر والشعراء [١١]

وألف اسحاق الموصلي المتوفى سنة (٢٣٥هـ) كتباً. وهو ليس من علماء اللغة كما هو معروف إلا أنه ألف كتباً كثيرة عن المغنين والمغنيات.وهو الباب الذى عني به وبرع فيه. ولو وصلت الينا كتبه لقدم لنا مادة أدبية فيما يخص مجالسهم أو الأشعار المغناة، وتراجم الشعراء، فمما ذكره ابن النديم له من مؤلفات في أخبار الشعراء الاسلاميين وأشعارهم[١٢]:

- أخبار الهذليين (وفيهم الشعراء الإسلاميون).
- أخبار حسان.

وذكر ابن النديم أن أحمد بن يحيى الملقب بثعلب (المتوفى سنة ٢١٩ هـ) عمل قطعة من أشعار الفحول وغيرهم منها: الاعشى والنابغتان. [١٣]

أما الآمدي، ابوالقاسم الحسن بن بشر فقد ألف: المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء. [١٤]

وكانت لمحمد بن حبيب (المتوفى ٢٤٥هـ) العالم الراوية، جهود في رواية الشعر

رفع المسهم

العربي، فقد ذكرت له مؤلفات تخص الادب الاسلامي، والأموي.قال عنه ابن النديم إنه عمل قطعة من أشعار العرب منها :

- نقائض جرير وعمر بن لجأ (لا بد أن تكون فيه أخبار وإشارات إلى وقعات المسلمين على سبيل المفاخرة).
- المذهب في أخبار الشعراء وطبقاتهم.
- نقائض جرير والفرزدق. (لا بد أن تكون فيه أخبار وإشارات إلى وقعات المسلمين وأيامهم على سبيل المفاخرة).
- من سمي ببيت قاله.
- الشعراء وانسابهم.
- كنى الشعراء.
- أيام جرير التى ذكرها في شعره [١٥].

ومما صنعه من أشعار العرب (من الاسلاميين):

- شعر الشماخ. (انظر مقدمة ديوان الشماخ تحقيق صلاح الدين الهادي. دار المعارف).
- شعر لبيد العامري. [١٦] (طبع ديوانه بتحقيق إحسان عباس. الكويت ١٩٦٢) وشرحه، محمد ضياء الخالدي، القدس ١٨٨٣هـ).

وقد ذكر أن كل الدواوين التي بين أيدينا من صنعة السكري عن أبي حبيب[١٧].

وله :

- من نسب الى أمه من الشعراء [١٨].
- وفي أخبار الزبير بن بكار (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ) أنه الف :
- أخبار حسان.
- أخبار أمية.

وللسكري الحسن بن الحسين بن عبد الله المتوفى سنة (٢٧٥هـ) جهود كبيرة في جمع الشعر العربي وروايته[١٩]. فقد جمع عدة أشعار لشعراء العرب من الجاهليين والإسلاميين والأمويين.

رفع
المسلم

- وذكر أنه صنع ديوان النابغتين، وسماه ياقوت ديوان النابغة الذبياني، والنابغة الجعدي[٢٠].
- شرح أشعار الهذليين[٢١].
- الحطيئة (حققه نعمان أمين طه بشرح ابن السكيت والسجستاني والسكري. مصر، مطبعة البابي الحلبي. وحقق أيضاً بشرح ابن السكيت. مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٧).
- عمرو بن معد يكرب (جمع شعره هاشم الطعان. بغداد، مطبعة الجمهورية ١٩٧٠).
- متمم بن نويرة (جمعت شعره ابتسام مرهون الصفار، وطبع في كتاب مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي، مطبعة الإرشاد ١٩٦٨).
- حميد بن ثور (حققه عبد العزيز الميمني. وطبع في القاهرة ١٩٥١)، وطبع أكثر منّ طبعة على غير رواية السكري).
- العباس بن مرداس (جمع شعره وحققه يحيى الجبوري، بغداد ١٩٦٨).
- ديوان حسان (طبع بتحقيق وليد عرفات، سلسلة مطبوعات جب. لندن ١٩٧١ وطبعات أخرى).
- ديوان أبي الاسود الدؤلي.(طبع برواية السكري بتحقيق عبد الكريم الدجيلي، بغداد ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م)، وتحقيق محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف بغداد، ١٩٥٤، وطبع في مطبعة النهضة بغداد، ١٩٦٢، وفي دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٧٤.
- الشماخ.
- الخنساء (طبع ديوانها في بيروت، ١٩٦٠).
- شرح ديوان كعب بن زهير (طبع في القاهرة، الدار القومية، ١٩٦٥).

ومما ذكر من مؤلفات ابن أبي طاهر (٢٨٠ هـ):

- ألقاب الشعراء ومن عرف بالكنى ومن عرف باسمه.

ومن كتب هشام الكلبي :

- كتاب أخبار عمرو بن معد يكرب[٢٢]

رفع المسهم

وذكر أن أبا بكر ابن الأنباري (٣٢٨ هـ) عمل عدة أشعار، ودواوين من أشعار العرب. [٢٣]

وألف المرزباني محمد بن عمران (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) مؤلفات كثيرة كان منها ما يدخل الأدب الإسلامي ضمنها منها :-

- المونق في أخبار الشعراء المشهورين من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين الى الدولة العباسية.
- المفيد في أخبار المقلين من الشعراء، وكناهم ومذاهبهم (ولابد ان يكون للاسلاميين نصيب فيه).
- معجم الشعراء (طبع بعناية كرنكو، مكتبة القدس، مصر ١٣٥٤هـ وبتحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠).
- أشعار النساء (وقد طبع قسم منه). وصفه القفطي بانه في خمسمائة ورقة وقال ياقوت عنه بأنه أول من جمع ديوان يزيد بن معاوية بن ابي سفيان، وهو صغير الحجم يدخل به مقدار ثلاث كراريس [٢٤].

ومن علماء الكوفة خالد بن كلثوم الكلبي الذي وصفه ابن النديم بانه من رواة الأشعار، والقبائل وله من الكتب :

- كتاب الشعراء المذكورين.
- أشعار القبائل ويحتوي على عدة قبائل. [٢٥]

وذكرت المصادر اسماء كتب تحمل اسم الشعراء، أو الشعر والشعراء، ولاندري أهي في شعراء الجاهلية أم الاسلام أم العصر العباسي خاصة تلك التي لم تذكر إلا أسماؤها. أما ما طبع منها فمعروفة أسماء الشعراء فيها مثل الشعر والشعراء لابن قتيبة الذي ذكر فيه شعراء من العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي (طبع أكثر من طبعة). من هذه الكتب المذكورة أسماؤها فقط:

- الشعر والشعراء لابن السراج (الفهرست٦٧، إنباه الرواة ٣ / ١٤٩)
- الشعراء لابن زبالة (الفهرست ١٢٨)

- الشعراء لعبد الله بن سعيد الوراق (الفهرست ١٢٨)
- الشعر والشعراء لأبي عبيدة معمر بن المثنى(الفهرست ٥٩)
- الشعر والشعراء للخثعمي (الفهرست ١٢٢)
- طبقات الشعراء لأبي حسان الزيادي (الفهرست ١٢٣)
- الشعر والشعراء لعمر بن شبة (الفهرست ١٢٥)
- الشعر والشعراء لدعامة العبسي (الفهرست ٥٣، انباه الرواة٤ / ١٢٣)
- الشعر والشعراء لابن الجراح (الفهرست ١٤٢)
- الشعر والشعراء لابن طباطبا العلوي (الفهرست ١٥١)
- الشعر والشعراء لابن الحرون، محمد بن الحسن(الفهرست ١٦٥)
- الشعر والشعراء لابن المرزبان (الفهرست ١٦٦)
- الشعر والشعراء الكبير ولم يتمه (الفهرست ١٦٧)
- الجامع في الشعراء وأخبارهم لابن ابي طاهر (ت ٢٨٠ هـ) (الفهرست ٢٦٣).
- الديباج في أخبار الشعراء / هشام الكلبي(الفهرست ١٠٩).
- حسن الصحابة في أشعار الصحابة/ جابي زادة علي فهمي، استنبول ١٣٢٤هـ

٢- كتب الاختيارات:

وهناك كتب الفت في الاختيارات تقدم قصائد ومقطوعات للشعراء الاسلاميين والأمويين، وتقدم شروحها تراجم وأخباراً عنهم، منها:

- المفضليات للمفضل الضبي (١٧٨هـ) (مطبوع في دار المعارف بمصر بتحقيق عبد السلام هارون، وأحمد محمد شاكر ١٣٦١-١٣٦٢هـ).
- الاصمعيات للاصمعي (مطبوع في دار المعارف بمصر)
- ديوان الحماسة لابي تمام (مطبوع اكثر من طبعة)
- جمهرة أشعار العرب/ القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، طبع في مصر، المطبعة التجارية ١٩٢٦، وبيروت، دار صادر ١٩٦٣، وطبعات أخرى.

رفع المسـاهم

وأشهر شروح المفضليات :

- شرح أبي بكر ابن الانباري (مطبوع بتحقيق ليال).
- شرح التبريزي (مطبوع) .
- شرح ابن درستوريه (ذكر ابن النديم أنه لم يتمه: الفهرست ص ٦٨).
- شرح الميداني.
- شرح المرزوقي [٢٦].

أما أشهر شروح الحماسة فمنها :

- شرح الحماسة للأعلم الشنتمري[٢٧] (طبع بتحقيق علي المفضل حمودان. دبي، مطبوعات الماجد ١٩٩٢). وذكر له ابن النديم معاني الحماسة[٢٨]
- شرح الحماسة للمرزوقي، أبي علي أحمد بن محمد، ت ٤٢١هـ (طبع في القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١، ١٩٥٣).
- شرح الحماسة للفارسي [٢٩].
- شرح الحماسة لعبد الله الخبري [٣٠].
- شرح الحماسة لابي العلاء المعري [٣١].
- شرح الحماسة لعلي بن الحارث [٣٢].
- شرح الحماسة لمحمد بن ادم [٣٣].
- شرح الحماسة الاوسط للتبريزي، يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ).
- شرح الحماسة الصغير للتبريزي.
- شرح الحماسة للتبريزي، يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ)، طبع في بولاق ١٢٩٠ .
- شرح مستغلق أبيات الحماسة، واشتقاق أسماء شعرائها لابن جني[٣٤].
- ديوان الحماسة لأبي تمام شرحه أحمد بن إبراهيم الشيباني [٣٥].

٣- كتب الأدب العامة:

تقف في مقدمة كتب الأدب العامة مؤلفات الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥هـ) وفيها نجد نصوصاً نثرية وشعرية وأخباراً تخص العصر الإسلامي مثل:

رفع المسيّهم

- البيان والتبيين، وهو حافل بأقوال وخطب ورسائل وأشعار بليغة بينها ما يخص العصر (طبع بتحقيق عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٠م/ ١٣٨٠هـ وطبعات أخرى).
- الحيوان وفيه شواهد للمادة التي يتحدث عنها شعراً ونثراً.
- فضلاً عما ورد في رسائله الكثيرة.(طبعت مجموعة بتحقيق عبد السلام هارون، مصر ١٩٣٨-١٩٤٥).

ولابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ كتب مهمة منها:

- عيون الأخبار (طبع في دار الكتب المصرية ١٩٦٣).
- المعاني الكبير. (مطبوع في حيدر آباد الدكن ١٩٤٩).
- فضلاً عن كتاب الشعر والشعراء الذي مرّ بنا.

ومن كتب الأدب ما عرف باسم الأمالي ومنها:

- الأمالي/ اليزيدي، أبو عبد الله محمد (ت ٣١٠هـ). (طبع في حيدر آباد ١٣٦٨هـ).
- أمالي الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (٣٤٠هـ) (نشر بتحقيق عبد السلام هارون، ١٩٦٣).
- الأمالي لأبي علي القالي (٣٥٦هـ) (طبع في مطبعة السعادة ١٩٥٤، وطبع في دار الكتب المصرية، ١٩٤٦).
- الأمالي/ المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد (٤٢١هـ) تحقيق يحيى الجبوري دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥).
- الأمالي للشريف المرتضى (طبع بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ).

ومن كتب الأدب العامة أيضاً:

- بلاغات النساء، ابن طيفور، أبو الفضل أحمد طاهر (٢٨٠) (طبع في القاهرة ١٩٠٨).
- الكامل في اللغة والأدب- المبرد (٢٨٥هـ).

رفع المسبهم

- العقد الفريد/ ابن عبد ربه (٣٢٨هـ) (مطبوع في القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق أحمد أمين وجماعة، القاهرة، ١٩٥٦).
- المصون في الأدب، أحمد بن الحسن العسكري (٣٨٢هـ) (طبع بتحقيق عبد السلام هارون، الكويت ١٩٦٠).
- أشعار النساء، المرزباني، أبو عبدالله بن عمران (٣٨٤هـ).(طبع قسم منه بتحقيق هلال ناجي، وسامي مكي العاني. في دار الرسالة ١٣٩٦هـ)
- الاقتباس من القرآن الكريم، الثعالبي عبد الملك بن منصور (ت١٣٩٦هـ) طبع الجزء الأول بتحقيق ابتسام مرهون الصفار، والجزآن الأول والثاني بتحقيق ابتسام مرهون الصفار، ومجاهد مصطفى بهجت. مصر، دار الوفاء، ١٩٩٠.
- زهر الآداب، الحصري، أبو إسحاق إبراهيم (٤٥٣هـ) طبع بتحقيق زكي مبارك، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، ١٩٥٣-١٩٥٤.
- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، البطليوسي عبدالله بن محمد (٥٢١هـ) أكثر من طبعة.
- شرح أدب الكتاب، الجواليقي، موهوب بن أحمد ٥٤٠هـ (مطبعة القدسي) يس، مصر، ١٣٥٠هـ).
- أخبار النساء لابن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق نزار حنا مكتبة الحياة، بيروت.

ومن الكتب الأدبية المهمة التي نجد فيها أخبار الخطباء والشعراء في العصر الاسلامي، والأموي :

- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، (طبع أكثر من طبعة).
- صبح الاعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي أبي العباس أحمد (ت٨٢١هـ) طبع في المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩١٣-١٩١٧، وطبع مصوراً في وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.

سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصري. (ت٧٦٨هـ). طبع بتحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي.

٤- كتب التراجم :

ومن مصادر الأدب الإسلامي الخاصة بالشعر :

- طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم، وهو من أوائل من ترجم للشعراء الاسلاميين وذكر أشعارهم ومحصها، ويفيدنا تحقيق محمود محمد شاكر لهذا الكتاب بكثرة المصادر التي يذكرها في هوامش التحقيق، مما يغني الباحث في الحصول على مزيد من المصادر الموثّقة للنصوص التي يذكرها، زيادة وحذفاً.(طبع في دار المعارف مصر ١٩٥٢، ومطبعة المدني).
- الشعر والشعراء لابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (٢٧٦ هـ). (أكثر من مطبعة، دار الثقافة، تحقيق محمد يوسف نجم، إحسان عباس ١٩٦٤).

اما تراجم النحاة واللغويين فتفيدنا من خلال مايتمثل فيها من أشعار، أوما يذكر فيها من قضايا لغوية شاهدها شعر اسلامي، أو من خلال توثيق من صنع وجمع شعر شاعر من الشعراء الاسلاميين نذكر منها:

أخبار النحويين والبصريين لأبي سعيد السيرافي، الحسن بن عبد الله.(مطبوع)

طبقات النحويين للزبيدي. (طبع بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة، ١٩٥٤).

إنباه الرواة على قبائل الرواة لأبي عمر يوسف بن عبد البر (٤٦٣ هـ). (انظر مقدمة الكتاب اللاحق).

إنباه الرواة على أنباه الرواة للقفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (٦٢٤هـ) (مطبوع في دار الكتب المصرية بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠-١٩٧٣).

- طبقات النحويين لابن قاضي شهبة.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي.(٩١١ هـ) (طبع في القاهرة ١٩٦٤-١٣٨٤هـ).

ومن كتب التراجم الخاصة التي نجد فيها مادة أدبية، ما ألفه العلماء في سير الصحابة وكبار التابعين :

- الطبقات الكبرى لابن سعد، أبي عبدالله محمد بن سعد(٢٠٧ هـ) ويشمل الجزاءن الاول والثاني السيرة النبوية، وبقية الأجزاء في أجيال الصحابة والتابعين في الامصار الاسلامية، المدينة، الكوفة، البصرة، وأورد فيه أشعاراً قيلت في المترجم لهم أو قالوها هم أنفسهم. (طبع في دار صادر ودار بيروت ١٩٥٧-١٣٧٦هـ).
- المنتخب من ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين، ملحق بتاريخ الطبري، الجزء الثامن، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٣٩).
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، أبو يوسف بن عبد الله(٤٦٣ هـ). نشر بتحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير، عز الدين (٦٣٠ هـ). (المطبعة الوهبية ١٢٨٥-١٢٨٧هـ، وطبع في دار الشعب، ١٩٧٠.
- الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٨٥٢ هـ. (مطبعة السعادة ١٣٢٣ هـ،وطبعات أخرى).
- وهناك كتب في التراجم عامة، ونجد فيها مادة أدبية تخص العصر الاسلامي منها:
- أنساب الأشراف، البلاذري، أحمد بن يحيى ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف ١٩٥٩.
- المعمرون والوصايا لابي حاتم السجستاني (٢٥٠ هـ). [٣٦](طبع في دار السعادة، مصر ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥)
- الانساب للسمعاني، أبي سعد، عبد الكريم (٥٦٢ هـ). (مطبعة مجلس دائرة المعارف الإسلامية، حيدر آباد الدكن، ١٩٦٣)
- معجم الادباء لياقوت الحموي (٦٢٦ هـ). (طبع بتحقيق مرجليوت في القاهرة، وطبع في دار المأمون بالقاهرة).
- أخبار النساء، ابن القيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، (طبع في دار الفكر دون تاريخ).

رفع المسهم

- تهـذيب التهذيب لابـن حجر العسقلاني، أحمد بن علي(٨٥٢ هـ).
- حلية الأولـياء لأبـي نعـيم الاصـفهاني. (مكتـبة الخانجي، وطبع في مطبعة السعادة، مصر، ١٩٣٢).

أمـا كتـب اللغـة فـتقدم لـنا شـواهد شـعرية، وهـذه تفيد في تحقيق النصوص الشـعرية للشعراء الاسلاميين، ونجدها زاخرة في كتب المعاجم اللغوية خاصة، ويمكن أن نـدرج هنا فقط أسماء المؤلفات التي تقدم مادة علمية عن الشعراء من خلال شرح الشاهد الشعري:

- الاشـتقاق/ ابـن دريد، أبو بكر بن الحسن (ت٣٢١هـ) (تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني).
- شـرح شـواهد المغـني للسـيوطي، عبد الرحمن (٩١١ هـ) (نشر الشنقيطي، القاهرة، ١٣٢٢).
- خـزانة الادب ولب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣هـ) بولاق ١٢٢٩هـ.

٦- كتب الفهارس:

إن نظـرة سـريعة إلى كـتاب المفصـل في شـواهد العربـية لإمـيل يعقوب تبين لنا ضـخامة الكـم الشـعري للشـواهد التي حفلت بها كتب المعاجم وكتب اللغة والنحو لشـعراء العصـرين صـدر الإسـلام والأمـوي. ويضاف إلى هذا كتاب معجم شواهد العربـية الـذي وضـعه عبد السلام هارون الذي يقدم مادة تفيد دارس هذا الأدب في ميادين تحقيق الشواهد، أو دراسة لغة الشعراء.

وأما كتب الفهارس فيشمخ في مقدمتها كتاب الفهرست لابن النديم (٣٨٥ هـ) الـذي أفادنا فائدة كبيرة بتتبع العلماء الذين عنوا بجمع أشعار الشعراء وأخبارهم، مع وصـف للكـتاب وعـدد أوراقه. وأما كتاب فهرست ما رواه ابن خير الاشبيلي (ت ٥٧٥ هـ) عـن شـيوخه فإنـه يفـيدنا في تتـبع دواويـن الشـعر الاسلامي ووصولها الى الأندلـس. نشـر وتحقـيق فرتشـكه قـدارة، وخلـيان. وهـناك بـرنامج شـيوخ الرعيني (مطبوع)، وفهرس الفهارس للكتاني. (مطبوعة)

رفع المسلم

وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (ت١٠٦٧) (مطبوع أكثر من طبعة)، وذيله للبغدادي.

هذه المؤلفات تؤكد وجود دواوين الشعراء أو التراجم المطلوبة، كما تبين اهتمام العلماء بجمع أشعارهم، فضلا عن رحلة هذه الدواوين. وما تقدمه كتب الفهارس من تحديد الأزمنة التي وصلت إليها الدواوين، وإمكانية العثور عليها، أو جمع أشعارها.

٧- كتب البلاغة والنقد:

وهناك مجموعة من الكتب تقدم لنا مادة علمية عن الأدب الإسلامي فى جانب مهم جداً وهو النقد، وتدخل ضمنها كتب إعجاز القران، إذ عنيت هذه الكتب بمعالجة القضايا النقدية متمثلة بالشواهد الشعرية التى كان منها الأدب الإسلامي أو في ما يرد فيها من موازنة أو نقد منها :

- نقد الشعر / قدامة بن جعفر (٣٣٦ هـ).(تحقيق كمال مصطفى مطبعة الخانجي، مصر ١٩٤٩).
- التشبيهات / ابن أبي عون (٣٢٢ هـ). تحقيق عبد المعين خان، كمبردج، ١٩٥٠).
- عيار الشعر / ابن طباطبا، محمد بن أحمد (٣٢٢ هـ). (تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول ١٩٥٦).
- الموازنة للآمدي (٣٧٠ هـ). (طبع بتحقيق محمد محيي الدين، مطبعة حجازي ١٩٤٤، وطبعات أخرى).
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني(٣٨٤هـ).(نشر بتحقيق على البجاوي، مصر ١٩٦٥).
- حلية المحاضرة للحاتمي (٣٨٨ هـ). (طبع بتحقيق الكتاني، وجزء بتحقيق هلال ناجي).
- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني(٣٩٢هـ). (الطبعة الأولى، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٤٥، وطبعة أخرى).

رفع المسهم

- إعجاز القران / الباقلاني (٤٠٣ هـ). (تحقيق سيد صقر، دار المعارف، مصر ١٩٥٤).
- دلائل الاعجاز عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ). (مطبعة المنار ١٣٣٠ وطبعات أخرى).
- أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ). (أكثر من طبعة، ودار المنار ١٩٤٧، مصر ١٣١٩-١٣٢٠هـ).
- العمدة لابن رشيق القيرواني (٤٦٣ هـ). (مصر، ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧ وطبعات أخرى).
- الممتع فى علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلي(٤٠٣ هـ). (مطبوع بتحقيق المنجي الكعبي).

٨- كتب التاريخ والمعاجم الجغرافية:

بقي ان نتحدث عن حقلين من حقول المعرفة في الفكر العربي يقدمان مادة أدبية عامة ومنها الأدب الإسلامي خاصة، وهما المؤلفات التاريخية والمؤلفات الجغرافية. ويبدو كتاب السيرة النبوية لابن اسحاق محمد (١٥٠ هـ) من أوائل المؤلفات التي عنيت بالأدب الإسلامي شعراً ونثراً. وقد هذب السيرة ابن هشام المتوفى (٢٠٦ هـ)، وعرفت باسمه فيما بعد.

لقد وجهت للأشعار التي سجلها ابن إسحاق شكوك كثيرة، وعيب على إيرادها في السيرة، فنقده ابن سلام نقداً شديداً قائلاً:

(وكان ممن أفسد الشعر وهجنه، وحمَّله كل غثاء منه محمد بن اسحاق، وكان اكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك، فقبل الناس منه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر أُتينا به فاحمله. ولم يكن ذلك عذراً له).[٣٧]

وأضاف ابن النديم خبراً بانه يقال: كان تعمل له الأشعار ويؤتى بها ويسأل ان يدخلها في كتابه فى السيرة ويفعل.[٣٨]

ومع ذلك نبه العلماء على الشعر الموضوع الذى أورده ابن اسحاق، وميزوه عن

غيره الذي صحت نسبته. فكان ابن هشام يعلق وهو يورد الأبيات بانها مما صح أو أنها غير صحيحة.

ويبقى الشعر المتحل نفسه الذى أورده ابن اسحاق ممثلا لما كان يدور في أفكار الواضع والمنتحل نفسه في القرن الأول للهجرة، وينبه على أسباب الوضع ودوافعه.

وتضاف الى كتب السيرة، كتب السير والمغازي والفتوح، ومما وصل الينا منها :

مغازي رسول الله للواقدي (٢٠٧ هـ). (طبع بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨).

كتاب الردة للواقدي (ت ٢٠٧هـ) (تحقيق محمود، عبد الله أبي الخير. دار الفرقان، ١٩٩١).

فتوح البلدان للبلاذري. (عني بنشره رضوان محمد رضوان، المطبعة المصرية، ١٩٣٢/ ١٣٥٠هـ).

الفتوح لابن اعثم. (مطبوع)

الاكتفا مغازي رسول الله والثلاثة الخلفا، سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي (تحقيق مصطفى عبد الواحد، مكتبة الخانجي، مصر ١٩٦٨).

أما كتب التاريخ فانها سارت فى مناهجها وفق التسلسل التاريخى للأحداث وتعاقب السنين، وقد أمدتنا بوافر من النصوص الأدبية. وتقف في مقدمتها كتب السيرة النبوية المشرفة، فالطبري المتوفى سنة (٣١٠ هـ) فى كتابه المعروف باسمه تاريخ الطبري أو تاريخ الامم والملوك يتمثل بأشعار نسبت الى أصحابها زمن الرسول (ﷺ) فى الجزء الخاص بالسيرة أو بعهد الخلفاء الراشدين. ونقول مثل هذا عن المسعودي (ت ٣٦٤ هـ) في كتابه مروج الذهب وإن كانت شواهده قليلة اذا قيست بشواهد الطبري.

إمتاع الأسماع للمقريزي، تصحيح أحمد محمد شاكر، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١.

وتـلحق بكتب التاريخ كتب المعاجم الجغرافية التى أورد اصحابها أشعاراً ضمن المواضـع الـتي ذكـرها الشـعراء أو قـالوا فيها أشعاراً، أوحدث حدث فيها فقيلت فيه أشعار وأقوال.

ويـبدو في مقدمـة الكتـب الجغرافية التي تقدم لنا مادة أدبية كتاب معجم البلدان لـياقوت الحمـوي (٦٢٦ هـ) الذى نجد في ثناياه ثروة أدبية ولغوية كبيرة تخص القرن الاول لـلهجرة فهو يذكر الموضع الجغرافي ويشرح معناه، واشتقاقه لغة، ويحدد موقعه الجغرافي، ثم يسرد ماحدث فيه من أحداث ذاكراً الأشعار، واحياناً الأقوال النثرية مما لاغـنى عـنه فى دراسات هذا العصر (طبع باعتناء فردناند وستنفلد. لاينبرج ١٩٢٤، وصـور بالأوفسيت في بغداد، مكتبة المثنى، وطبع في بيروت، دار صادر). ويضاف الى كـتاب معجم البلدان. كتاب معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع لابي عبد الله بن عبـد العزّيز البكري (٤٨٧ هـ). (طبع في القاهرة ١٣٦٤هـ-١٣٧١/ ١٩٤٥ -١٩٥١). وهـو وان كـان متقدماً علي ياقوت إلا أنه أقل تمثلاً بالأشعار والنصوص الادبية.

الأزمـنة والأمكنة، (المرزوقي، أحمد بن محمد (٤٢١هـ) الطبعة الأولى حيدر آباد ١٣٣٢هـ).

هـذه هـي الخطـوط العامـة الـتي يمكـن ان تجمع فيها المصادر القديمة التي تخص الادب الاسلامي.

٢- ظواهر عامة في الأدب الاسلامي:

أ- شموله الشعر والنثر :-

لقـد كانت الحياة العربية قبل الاسلام مدعاة لنشاط الشعراء والخطباء. ووصف العـرب بالـبلاغة واللسـن وقـوة العارضـة، وكـان فيهم البلغاء والخطباء. واذا كانت النصـوص الادبـية لـلخطابة خاصة مدعاة شك ونقاش، فإن جوهر الأمر لايتجاوز الشـك في صـحة هـذه النصـوص مع الإقرار بوجود الظاهرة [٣٩]، والأمر كذلك مع ظاهرة الكتابة التي ثبتت معرفة العرب لها قبل الاسلام مع فقدان النصوص النثرية [٤٠].

رفع المسـاهم

أمـا الملاحظـة الـتي نلحظها في أدب صدر الاسلام، والتى غدت ظاهرة تستحق الدراسـة فهـي شمول الأدب الإسلامي الشعر والنثر. وكان حظ النثر في هذا العصر اكـثر مـن حظـه في الجاهلية لـتوافر دواعـي نشاطه أولاً، ولوصوله الينا ثانياً بسبب اقترانه باحداث تاريخية أو وقائع اقتضت تسجيله، كما أن وصول كثير من خطب هذا العصر ورسائله كان بسبب ارتباطهما بشخص الرسول (ﷺ)، وطبيعه الدعوة ثانياً مما اقتضى تسجيلهما في السيرة النبوية، وفى سير الصحابة رضوان الله عليهم.

لقـد نشطت الكتابة والخطابة نتيجة الحاجة اليهما دفاعاً عن الدين الاسلامي أو وسـيلة لنشـره ولتبلـيغ القـبائل والدول المجاورة به ودعوتها الى الاسلام حتى قيل أن رسـول ﷺ اتخذ له كاتباً فى مكة قبل الهجرة النبوية، ثم كانت وقائع الفتوحات محفزاً كـبيراً لتنشيط الخطابة والكتابة. ووجدنا بعض الباحثين يبالغ في اظهار تطور النثر في هـذا العصـر حـتى يعـده مـتفوقاً عـلى الشـعر، مؤديـاً دوراً أكـبر منه، يقول محمـود مصـطفى: (فـلما جـاء الاسلام صارت الدولة للنثر لانه هو الموافق للجد الذى أخذ العـربي في سـبيله، فدعـا بـه الـنبي ﷺ قومه الى الاسلام، وراسل به الملوك، وكتب به العهود، وشرح به الدين، وكذلك فعل أصحابه).(٤١)

واذا ابـتعدنا عـن المـبالغة قلـيلا، نقـول إن الدولة لم تكن للنثر، وانما تطور النثر واتسـعت آفاقـه بعـد ظهـور الاسـلام، فصارت له دولة كما كان للشعر دولة وذلك ماسنبحثه في فصل النثر.

ب- ضياع كثير من الأشعار:

ويشـمل هـذا الضـياع شعر المسلمين والمشركين على السواء. أما شعر المسلمين فسـنجد في دراسـة واقـع الحـركة الشعرية أن الشعر أدى مهماتٍ كبيرة في الدفاع عن الدعوة الإسلامية، وأن الشعراء اختلفوا في أساليبهم الفنية، والأفكار التي نافحوا فيها عـن الدعـوى بين مرسخ لمبادئ الإسلام، وهاج على الطريقة الإسلامية. فأما الشاعر الإسـلامي فقد استغل الهجاء أحيانا بذكر المثالب رداً على ما كان يذكره المشركون في هجـائهم. فإنـنا نـتوقع طمس أشعاره بعد استقرار الأمور، وانتشار الإسلام، ودخول

عتاة قريش إلى الاسلام، ولم تبق إلا إشارات أو مطالع لهذا الشعر. وأما شعر المشركين فضياعه طبيعي لما فيه من سب وشتم للرسول ﷺ مما دفع الرواة إلى إهماله وعدم روايته. وهذه الظاهرة ستتضح لنا في دراسة شعر المشركين بصورة خاصة.

جـ- الانتحال:

هناك ظاهرة مهمة تخص الشعر المنحول الذى وضع على ألسنة بعض الشعراء واقدم من وقف عند هذه القضية وحللها تحليلاً علمياً هو ابن سلام المتوفى سنة (٢٣١ هـ) في كتابه طبقات فحول الشعراء، حيث أشار الى بعض اسباب الوضع والانتحال منها :

١- **اسباب سياسية ودينية:** لقد وضعت على لسان حسان بن ثابت أشعار كثيرة اراد بها أصحابها ان يكسبوا قضية سياسية فى جعل شاعر الرسول (ﷺ)يقول فيهم أشعاراً أو ليخففوا بعض الشئ من وقع ابيات هجاء قالها فيهم حسان ايام شركهم. يقول ابن سلام: (وقد حمل عليه مالم يحمل على احد، ولما تعاضهت قريش واستتبت، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تنقى).[٤٢]

وحين ذكر ابن سلام ابا طالب عم النبي(ﷺ) وصفه بانه كان شاعراً جيد الكلام، وابرع ماقاله قصيدته التى مدح فيها النبي (ﷺ):

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ... ربيعُ اليتامى عصمة للأرامل

وقد زيد فيها، وطولت وقد رأيت في كتاب يوسف بن سعد،[٤٣] صاحبنا منذ اكثر من مائة سنة، وقد علمت ان قد زاد الناس فيها ولا أدري أين منتهاها ثم قال: وسألني الاصمعي عنها، فقلت : صحيحة جيدة. قال: أتدري اين منتهاها ؟ قلت: لا.[٤٤] وقد تكررت عبارة (لم أر أحداً من أهل العلم يعرفها)[٣٥]، أو قوله: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها)[٤٦].

٢- **ويمكن ان نلمح سبباً فنياً ساعد على كثرة الوضع** والانتحال وهو ان الشعر المنتحل انما وضع على لسان شعراء قريش. وشعرهم ليس فيه سمة خاصة تمنحه الهوية الفنية بحيث يصعب تقليده والزيادة عليه، وإنما هو شعر ليّن (وأشعار قريش أشعار فيها لين، فتشكل بعض الاشكال).[٤٧]

رفع المسبهم

٣- كان من اسباب الوضع والانتحال وجود رواة غير ثقات برواية الشعر يجهلون موارده، ولايهمهم من الشاهد إلا الحدث التاريخي سواء كان صحيحاً أوغير صحيح، وهؤلاء لايصلحون لرواية الأشعار لأن الشعر كما يقول ابن سلام (صناعة وثقافة يعرفها اهل العلم كسائر اصناف العلم والصناعات، منها ماتثقفه العين، ومنها ماتثقفه الاذن، ومنها ما تثقفه اليد ومنها ما يثقفه اللسان).(٤٨)

وبعد أن فصل الإسلام فى الموهبة التى يجب أن يمتلكها راوي الشعر وناقده وقف وقفة طويلة عند ابن اسحاق مؤلف سيرة النبي (ﷺ) فوصفه بأنه ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غثاء منه، وأنه كان من علماء الناس بالسير والأخبار حتى قال عنه الزهري: مايزال في الناس علم ما بقي مولى ابن مخرمة يعنى ابن اسحاق، وأنه كان أكثر علمه بالمغازي والسير، وغير ذلك، فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لاعلم لي بالشعر، أُتينا به فأحمله.(٤٩)

وقد ذكر ابن سلام أسباب رفضه كثيراً مما رواه ابن اسحاق وعدّه شعراً منتحلاً منها:

١ - أن ابن اسحاق كتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال(٥٠) وعلق في موضع آخر على شعر نسبه ابن اسحاق لابي سفيان بقوله (ولئن لايكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم).(٥١)

٢- إن ابن اسحاق روى شعراً لعاد وثمود، فكتب لهم أشعاراً، وليست بشعر، وإنما هو كلام مؤلف، ومعقود بقواف. ثم اجمل رفضه لهذا الشعر بما يأتي :

أ- نص الله تعالى على أن أقوام عاد وثمود قد أهلكوا، ولم تبق منهم باقية فمن روى أشعارهم.؟ (٥٢) والله تعالى يقول: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ ﴾ [النجم:٥٠-٥١] وقال تعالى في عاد ﴿ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨ ﴾ [الحاقة:٨].

ب- أن أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه اسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما، ويعلق بعد ذلك ابن سلام رافضاً الشعر المنسوب لعاد وثمود (فنحن لانقيم في النسب مافوق عدنان، ولانجد لأولية العرب المعروفين شعراً فكيف بعاد وثمود).(٥٣)

رفع المسابهم

ج- ان أبا عمرو بن العلاء قال : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا، فكيف بما على عهد عادٍ وثمود، مع تداعيه ووهيه.[(٥٤)]

د- إن الشعر المنسوب لعاد وثمود ليس بشعر؛ لضعفه، ولكونه لايدل على علم (فلو كان الشعر مثلما وضع لابن اسحاق، ومثل ما روى الصحفيون[(٥٥)]، ما كانت اليه حاجة ولا فيه دليل على علم [(٥٦)] ونستطيع ان ندرج ضمن الشعر المنحول بعض الأشعار المنسوبة الى الأحناف أمثال ورقة بن نوفل، وأمية بن أبي الصلت، خاصة تلك الأشعار التي تجاوزت فكرة التوحيد الى نظم آيات القران الكريم، والصور الواردة فيه. فقد نسب ابن اسحاق شعراً لورقة بن نوفل يقول فيه:

فانْ يك حقاً يا خديجة فاعلمي ... حديثك إياناً فأحمدُ مرسلُ
وجبريلُ يأتيه وميكالُ معْهما ... من الله وحيٌ يشرحُ الصدر منزلُ
يفوز به.مَنْ فاز فيها بتوبةٍ ... ويشقى بها العاتي الغويُّ المغفلُ
فريقان: منهم فرقةٌ في جِنانِه ... وأخرى بأغوار النعيم تغلغلُ
اذا ما دُعوا بالويل منها تتابعت ... مقامع في هاماتهم ثمّ من علِ
يُسبِّحن من تهوي الرياحُ بأمره ... ومن هو في الأيام ما شاء يفعلُ
ومَنْ عرشُه فوق السماواتِ كلِّها ... وأقضاؤه في خلقه لا تُبدَّلُ

وأما شعر أمية بن أبي الصلت، فقد درس الباحثون ظاهرة الانتحال فيه التي يمكن أن تدرك بسهولة في الأشعار التي حاكت القران الكريم، وقلدت صوره بألفاظه وتعابيره، مع وجود شعر صحيح النسبة اليه [(٥٧)]

د- شعر غير منسوب:

أما الشعر غير المنسوب فهو موجود في شعر الدعوة الاسلامية، اذ حفظت الذاكرة العربية كثيراً من الأبيات والمقطوعات، التي لم تسجل اسماء شعرائها، لان مايعني الذاكرة تسجيل الحادث اوالموقف الذى اقتضى التمثل بشعر قيل فيه كما هو الحال في شعر الفتوحات الاسلامية مثلاً، إذ نجد عبارة مكررة ترد فى كتب الادب والتاريخ وهي : قال رجل، وقال اعرابي، وقال بعضهم، مما سيرد في موضوعات شعر الفتوحات الاسلامية في هذا الكتاب.[(٥٨)]

هـ- اختلاف نسبة الأبيات:

وهـذه ظاهـرة واضحة في دراسة كثير من الأشعار في عصر صدر الإسلام في فجر الدعوة أولاً، وفي شعر الفتوحات الإسلامية ثانياً، فنظرة إلى ديوان حسان بن ثابت أو كعـب بـن مـالك وعـبد الله بن رواحة[٥٩]. تطلعنا على وجود أشعار اختلفت نسبتها بيـنهم، فنجد في السيرة، وفي كتب التاريخ ما يؤيد اختلاف نسبتها بقوله، وتروى، أو وقـيل. ومـرد هذا الاختلاف إلى تشابه الظروف التي قيلت فيها الأشعار، أو إلى تشابه الأفكار التي ملكت الشعراء آنذاك، فأوردوها في أشعارهم. فقول عبد الله بن رواحة:

خلّوا بني الكفار عن سبيله   خلّوا فكل الخير في رسوله

روي منسـوباً لعمـار بن ياسر.[٥٩] فمن أهم أسباب الاختلاط هو ورود المعاني الإسلامية والإشارة إليها في القصيدة أو المقطوعة، فالصراع بين النبي ﷺ وخصومه إنما قام حول الإسلام وبسببه. ومن هنا وردت المعاني الدينية عند كثير من شعراء الصراع فـلما انـتهى شـعرهم إلى الـرواة اضـطربوا فـيه، فخلطوا في نسبته إليهم كما يقول د. كمـال جـبري[٦٠]، وقـد سميـت هـذه الظاهرة الاختلاط وهي الانتحال، إذ يبرز فيه تـنازع نسـبة الـنص إلى شـاعرين أو أكثر، وأن هذا لا يقدح في صحة الشعر واصالته وإنما يقدح في نسبته إلى شاعر بعينه[٦١].

و- ضياع شعر المشركين:

إن ظاهـرة ضياع شعر المشركين تفرض نفسها حين يود الباحث البحث في أدب صـدر الاسـلام، وذلـك بسـبب قلة ماوصل الينا من الشعر الذى قاله الكفار في الرد عـلى المسلمين. فمن المعروف ان ظهور الاسلام كان اكبر حدث فكري وسياسي، هز العـرب وأثـارهم، فانقسـموا عـلى قسمين: حزب يدعو الى الله ورسوله، ويدافع عنه شـعراؤه بكـل مـاأوتوا مـن قـوة بيانـية، وحـزب آخر وهم الاكثرية في بداية الدعوة الاسـلامية يتمـثلون بقريش وجبابرتها والقبائل العربية التي كانت قريش تؤلبها وتثير فـيها الضغائن. هذه المعارضة الكبيرة وجدناها في الشعر المنسوب الى شعراء مسلمين، ولابد ان يكون شعر المشركين قد قالوا شعراً كثيراً، ولكنه لم يصل الينا، ولهذا الضياع اسبابه، سندرسها في حديثنا عن شعر المشركين.

هوامش التمهيد

١- طبقات فحول الشعراء١ / ٢٥
٢- الاغاني ٤ / ١٣٠
٣- الفهرست (٧٤ – ٧٥) إنباه الرواة ١/ ٢٥٦. وانظر رسالة الماجستير في جامعة بغداد (أبو عمرو الشيباني وجهوده في الرواية الأدبية ص ٧٠-٧٢).
٤- انظر أطروحة الماجستير في جامعة بغداد، أبو سعيد السكري وجهوده في الرواية الأدبية ٣٧.
٥- الفهرست ١١٦، وانظر القائمة في كتاب شيخ الأخباريين أبو الحسن المدائني، بدري محمد فهد ص ٤٨-٤٦.
٦- نشر بتحقيق توري، بيروت دار الكتاب العربي، ١٩٧١.
٧- الكتاب مطبوع في دار المعارف بمصر.
٨- الفهرست ٨٧،انباه الرواة ١/ ٩٢.
٩- الكتاب مطبوع فى ليدن.
١٠- الفهرست ٥٩.
١١- نفسه.
١٢- الفهرست ١٤٠- ١٤١، انباه الرواة ١ / ٢٥٤.
١٣- الفهرست (٧٤ – ٧٥).
١٤- طبع بتحقيق كرنكو، مطبعة القدسي ١٣٥٤هـ، وطبعات أخرى.
١٥- الفهرست ١١٩ انظر ترجمته فى إنباه الرواة ٣/ ١١٩- ١٢١، وانظر تاريخ بغداد ٢/ ١٧٧، ١٧٨
١٦- معجم الادباء ١٨ / ١١٢- ١١٧ طبعة الرفاعي.
١٧- مصادر الشعر الجاهلي ٤٤٨.
١٨- نشر بتحقيق عبد السلام هارون فى المجموعة الاولى من نوادر المخطوطات ١٩٥١.
١٩- انظر: أبو سعيد السكري وجهوده في الرواية الأدبية ٣٧، فما بعدها.
٢٠- انباه الرواة ١/ ٣٢٨، معجم الادباء ٨ / ٩٤.

رفع المسـاهم

٢١- طبع في ليدن ١٨٥٤، وقسم أخر في برلين ١٨٨٤، وقسم ثالث في ليبزج ١٩٣٣، ونشرت دار الكتب المصرية أشعار الهذليين بشرح السكري في ثلاثة اقسام من ١٣٦٤ هـ - ١٣٦٩ هـ

٢٢- هذا ما ذكره القفطي في انباه الرواة ١ / ٣٢٨

٢٣- الفهرست ٨٦، ١٥٧، ١٥٨ انباه الرواة ١/ ٣٢٨

٢٤- انباه الرواة ٣ / ٢٠٨، الحاشية، نقلاً عن مخطوطة طبقات المفسرين للداودي.

٢٥- الفهرست ٨٢.

٢٦- نفسه

٢٧- انباه الرواة ٣/ ١٨٢، تاريخ بغداد ٣ / ١٣٥، معجم الادباء ١٨ / ٦٨ ٢

٢٨- الفهرست ٧٣، إنباه الرواة ١ / ٣٨٧

٢٩- ذكر القفطي هذه الشروح في إنباه الرواة ٢ / ١١٤،١ / ١٤١، ١٥٩ وانظر هامش ٤ / ٢٩

٣٠- نفسه ٤/ ٦٦ح، معجم الادباء ٢ / ٦٠

٣١- الفهرست ابن النديم ٨٨

٣٢- انباه الرواة ٢ / ١٧

٣٣- نفسه ٢ / ٩٨ - ح

٣٤- نفسه ١ / ٢١١

٣٥- نفسه ٢/ ٢٧٥، ٤ / ١٨٧، وانظر، ٦١، ٢/ ٣٣٧، ٣/ ١٢٦، ٤/ ٢٩.

٣٦- للهيثم بن عدي (ت ٢٠٧ هـ) كتاب المعمرين ذكره ابن النديم ١١٢.

٣٧- طبقات فحول الشعراء ١ / ٨

٣٨- الفهرست ١٠٨.

٣٩- خير من ناقش هذا زكي مبارك في مقدمة كتابه النثر الفني في القرن الرابع الهجري.

٤٠- ينظر في هذا دراسة ناصر الدين الاسد المهمة في كتابه مصادر الشعر الجاهلي.

٤١- الادب العربي، وتاريخه / محمود مصطفى ٤٢.

٤٢- طبقات فحول الشعراء ١/ ٢١٥ ومعنى تعاضهت : تناهشت ورمت بعضها بالعضيهة وهي الافك والبهتان.

٤٣- يوسف بن سعد صاحب كتاب الطبقات الكبرى وهو أقدم جداً من ابن سلام. وقد حيرني وصف ابن سلام له بصاحبنا وهو أقدم منه، ولايمكن ان يلاقيه الإ انني حين راجعت طبقات فحول الشعراء بتحقيق العلامة محمود محمد شاكر وجدت حل هذا الاشكال بقوله انه يعني بصاحبنا انه جمحي مثله في النسب فكلاهما ينسب الى جمح ولاء. هامش ٢٤٥ من طبقات فحول الشعراء.

٤٤- طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٤٤ وانظر الزينة في الكلمات العربية الاسلامية للرازي، أبن أبي حاتم١/ ١١.

٤٥- السيرة ق ٢/ ١٦٩، ٢٦٧.

٤٦- نفسه ق١/ ٩٤٦. ٦٥٠، ق ٢/ ٢٨، ٣٩، ١٧٦ ومواضع أخرى.

٤٧- طبقات فحول الشعراء ١ / ٥.

٤٨- نفسه.

٤٩- نفسه.

٥٠- نفسه.

٥١- نفسه ١/ ٢٤٧.

٥٢- نفسه ١ / ٨.

٥٣- طبقات فحول الشعراء ١ / ١١.

٥٤- نفسه.

٥٥- يقصد بالصحفيين الذين ينقلون عن صحف واوراق غير موثقة، وهم الرواة الضعاف.

٥٦- طبقات فحول الشعراء ١ / ١١

٥٧- انظر أمية بن أبي الصلت، بهجت الحديثي، شعر الصراع، ٢٨٦.

٥٨- كثرت هذه الظاهرة في شعر الفتوح الإسلامية.

٥٩- السيرة، ق٢/ ٣٧١.

٦٠- شعر الصراع ٥٤، فما بعدها.

٦١- نفسه.

رفع
المسهم

الفصل الأول

الشعر في صدر الإسلام

١- الإسلام والشعر:

أ- القران الكريم والشعر.

ب- الرسول (ﷺ) والشعر.

٢- حالة الشعر في صدر الإسلام :

أ- شعر المشركين.

ب- شعر المسلمين وواقع الحركة الشعرية.

رفع
المسـاهم

١ - الإسلام والشعر:

أ- القران الكريم والشعر :

تحدث الباحثون كثيراً عن وضع الشعر في العصر الإسلامي وفي عصر النبوة بصورة خاصة، فرأوا أن الإسلام وقف موقفاً غير مشجع، أو أنه موقف متعنت من الشعر والشعراء. وبنوا على هذا نتيجة أسموها ضعف الشعر، لأن الإسلام فى نظرهم قد هجا الشعر، وحط من شان الشعراء فى القران الكريم(١). وبالغ اخرون بان عدوا الإسلام مناصباً للشعراء العداء(٢). كل هذه الأقوال تقتضي الوقوف بشكل مفصل عند الآيات الكريمة التي تخص الشعر والشعراء والأحاديث النبوية الشريفة بشانهما.لقد اتهم المشركون الرسول (ﷺ) بأنه شاعر، لأنهم ما أرادوا الإيمان به نبياً ورسولاً يوحى اليه، فنفت الآية الكريمة ادعاءهم بقوله تعالى:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس:٦٩].

وقال تعالى ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحاقة:٤١]. وقوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء:٥].

وقد أعلن الجاحظ باستنتاج منطقي رائع عدم تحريم الشعر أو تهجينه بقوله: (فإذا وجب أن الكلام غير محرم فإنّ وزنه وتقفيته. لا يوجبان تحريما)(٣).

أن تنزيه الآيات الكريمة الرسول(ﷺ) عن أن يكون شاعراً جعل السيوطي يعدد جملة أسباب :

١ - أن للشعر شرائط ولايسمى الإنسان بغيرها شاعراً، وذلك إن انساناً لو عمل كلاماً مستقيماً موزونا، يتعدى فيه الصدق من غير أن يفرط، أو يتعدى أو يمين، أو يأتى باشياء لايمكن كونها سبة، لما سماه الناس شاعراً. وقد قال بعض العقلاء وقد سئل عن الشاعر فقال : إنْ هزل أضحك، وإنْ جدَّ كذب. فالشاعر بين كذب وإضحاك، واذا كان كذلك فقد نزه الله نبيه ﷺ عن هاتين الخصلتين، وعن كل امر دنيء.(٤)

رفع المسيهم

٢-إنـا لانكـاد نـرى شـاعراً إلا مادحاً ضارعاً اوهاجياً ذا قذع. وهذه أوصاف لاتصلـح لـنبي، فـإن قـال: (فقد يكون في الشعر الحكمة، كما قال رسول الله (ﷺ) (إن من البيان لسحرا وأن من الشعر لحكمة أو قال لحكما). قيل له: إنما نزه الله نبيه (ﷺ) عن قول الشعر، ولما ذكرناه. فأما الحكمة فقد أتاه الله من ذلك القسم الأجزل، والنصيب الأوفر في الكتاب والسنة).

٣- ومعـنى اخـر في تنـزيهه ﷺ عن قول الشعر أن أهل العروض مجمعون على أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع إلا أن صناعة الايقاع تقسم الزمان بالنغم، وصناعة العروض تقسم الزمان بالحروف المسموعة. فلما كان الشعر ذا ميزان يناسب الإيقاع، والإيقاع بالحروف ضرب من الملاهي لم يصلح لـرسول اللهﷺ(٥).

وقـد حـاول بعـض الباحـثين تعلـيل سبب تنـزيه الرسول (ﷺ) عن أن يكون شاعراً بانه بسبب كون العرب – وشأنهم في ذلك شأن الشعوب الأخرى -في نظرتهم إلى الأدبـاء والفـنانين كـانوا يظـنون بعقول الشعراء، فيعتقدون أحياناً أن بهم ما يشبه الجنون، ولهذا قال الله تعإلى على لسان المشـركين:﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصـافات:٣٦]. أو أن بعـض الشـياطين يوحون اليهم بما يجرى على السنتهم من شعر. ومن المعروف كذلك ان كثيراً من الشعراء قبل الإسلام قد عرفوا بمسلك خلقي يتسم بكثير من الإسراف واللهو والإقبال على الملذات المادية من خمر وميسر وغير ذلك.(٦)

ورأى باحـث اخر متبنياً رأي السيوطي السابق بأن سبب تنـزيه الرسول (ﷺ) عـن الشعر لكون الشعراء معروفين منذ القدم بالغلو والكذب، وفي تجاوزهم الحق في المديـح في استخدامهم القول اللاذع في الهجاء، وأنهم منذ القدم يتعرضون لأعراض الناس وحرماتهم، وذلك لايليق بالرسول ﷺ.(٧)

ان النظرة الشاملة إلى شعر ماقبل الإسلام تجعلنا نقول إن الشعراء ما كانوا جميعاً بمـثل هـذه الصـورة التي يـرسمها مؤرخـو الأدب، لينـزه عنها الرسولﷺ، فللشعر مكانـته الكـبيرة عند العرب، وللشعراء مكانتهم المرموقة مادحين مبالغين، أو هجائين

رفع المسهم

مفحشين وسنجد هذه المكانة بشكل واضح وموجه من خلال علاقاتهم بالرسولﷺ.

إن تنزيه الرسول ﷺ عن الشعر متأت من إدعاء الشعراء انفسهم بأمور غيبية تلهمهم الشعر، أو لم يدّعوا أن لكل شاعر جنياً يلهمه الشعر ؟ حتى اذا كثر عدد الشعراء وكثر عدد الجن الذين يوحون لهم بالشعر، راحوا يبحثون في مخيلتهم عن مكان يأوي اليه جن الشعراء ويستوطنونه، فاخترعوا وادي (عبقر) الذى نسب إليه فيما بعد كل شى فائق الجمال والصنعة، وكأنه من صنع الجن لا البشر وادعى الكهان والسحرة بان لكل واحد منهم رئياً يوحي له بالقول، ويعلمه الغيب اذا احتكمت العرب اليه.

إن تنزيه الله سبحانه وتعإلى الرسول ﷺ من أن يكون شاعراً، مثل تنزيهه تعإلى للرسولﷺ من ان يكون ساحراً أو كاهناً. القران الكريم كلام الله الذى أنزله على النبي ﷺ وهو لايشبه أي ضرب من ضروب الإبداع البشرى،﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم:٤][٨] فنفي الشعر والشاعرية عنه ﷺ توكيد للوحي والنبوة، وكون القرآن الكريم ليس كلام بشر، وإنما هو وحي من الله تعالى. مع كل محاولات التعليل هذه لايمكن ان نفهم من الآيات الكريمة السابقة حطاً من شأن الشعر والشعراء، اونظرة فيها احتقار وسخرية لكونها نزّهت الرسالة السماوية أن تكون نمطا من أنماط الإبداع الأدبي البشري، وما الإبداع الذى بهر العرب آنذاك إلا شعر الشعراء وطلاسم السحرة والكهان.

وقد بين ابن رشيق هذا الموقف حين رفض أن تكون هذه الآيات حطّاً لمكانة الشعر أو الشعراء، والتفت التفاتة ذكية حين قال : (ولو أن كون النبيﷺ غير شاعر غضاً من الشعر لكانت اميته ﷺ غضاً من الكتابة).[٩]

وقد نفى الله سبحانه وتعإلى عن النبي معرفته الكتابة لئلا يتهم بقراءة كتب الاولين، ولتثبيت حقيقة النبوة، وكونها وحياً يوحي من الله تعالى. أما قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ

رفع المسهم

﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٤-٢٢٧].

لقد فهم المفسرون الاوائل أن المقصود من هذه الآيات الكريمة نوع معين من الشعراء الذين يذهبون كالهائم على وجهه من غير قصد جائراً عن الحق وطريق الرشاد وقصد السبيل، فهم يقولون مالايفعلون، بينما استثنت الآيات الكريمة الشعراء الذين يذكرون الله كثيراً، وينتصرون ممن هجا المسلمين من المشركين.(١٠)

إنه موقف الإسلام بشكل عام، يدعو الناس إلى التفكير، والتدبر، وتقسيمهم على مؤمن وكافر حيث اقترن العمل الصالح بالإيمان في آيات القرآن الكريم كلها: فالذين امنوا وعملوا الصالحات سيكون جزاؤهم الثواب، والجنة. وشأن الشعراء في هذه النظرة شأن البشر جميعاً إذا كانوا ضعيفي الإيمان يدعون الناس إلى الغواية، فمصيرهم الحساب ثم العقاب ... اذن آية الشعراء توجه الشاعر المسلم بشكل عام، وليس فيها حط من شأن الشعر عامة.

وقد قيل في سبب نزول هذه الآيات بانها نزلت فى عبد الله ابن الزبعرى، وهبيرة بن وهب، ومسافع بن عبد مناف، وأبي عزة الجمحي، وامية بن ابي الصلت، وكلهم من شعراء المشركين، وأنهم كانوا يجتمعون، ويقولون : نحن نقول مثل قول محمد وكانوا يهجونه، ويجتمع اليهم الاعراب، يستمعون أشعارهم، واهاجيهم، ولذلك فهم الغاوون الذين يتبعونهم.(١١)

وقد ذكر ان شعراء المسلمين الثلاثة: عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك توجهوا إلى الرسول ﷺ وهم يبكون قالوا : قد علم الله حين انزل هذه الأية انا شعراء فتلا النبي ﷺ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾. قال: أنتم ﴿ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قال: أنتم ﴿ وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ ﴾ قال انتم.(١٢)

وقد عدد الزمخشري الاغراض، والمعاني التي يمكن للشاعر المسلم ان يقول فيها، ويكون من الضرب الثاني الموعود بالجنة كأن يقول في توحيد الله والحكمة والموعظة

رفع المسهم

والـزهد والاداب الحسـنة، ومدح الرسول ﷺ والصحابة وصلحاء الامة، وما لابأس به من المعانى.(١٣)

ب- الرسول ﷺ والشعر :

الرسول ﷺ حامل رسالة الإسلام إلى العرب والناس جميعاً، فموقفه من الشعر هو موقف القران والإسلام بصورة عامة، ولاتخرج الأحاديث النبوية الشريفة عن المفهوم الإسـلامي العـام في النظرة إلى الإنسان، ومحاولة توجيهه الوجهة الخيرة البناءة. هكذا نجد في الأحاديث النبوية الشريفة أقو إلا تسير في إطار الآيات القرانية الكريمة السابقة إلى تصـنيف الشعراء إلى صنفين : خيّر ملتزم بالدين والخلق القويم، ومنحرف لايقدم فـائدة دينـية أو أخلاقـية واذا كـان بعضهم قد فهم ظاهر الآيات القرانية الكريمة أو قـرأها مبتورة، واستنتج منها موقفاً متعنتاً من الشعر والشعراء، فإنَّ الأحاديث النبوية الكـريمة قـد تحمـل عـلى ظاهـر معانـيها، ويسـاء تفسـيرها أيضـاً ممـا يوجب المناقشة والتحليل.

روي عن النبى ﷺ : لئن يمتلئ جوف احدكم قيحاً حتى يريه خير له من ان يمتلأ شعراً).(١٤)

قـد يفهـم من هذا الحديث موقف غير مشجع للشعر والشعراء إلا ان مراجعته فـى كتـب الصـحاح تطلعنا على الظرف الذى قيل فيه. فقد ذكره البخاري فى باب الأدب فيما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصرفه عن ذكر الله.(١٥) وذكر الإمام أحمد أن شاعراً عرض للرسول ﷺ، فوصفه بالشيطان ثم قال الحديث(١٦).

هـذان التعليقان البسيطان يوضحان أن قول الرسول ﷺ لم يكن مطلقاً على جميع الشعراء، وإنما أراد به نوعاً معيناً منهم، ولا بد أن يكون الشاعر الذى عرض للرسول ﷺ قـد أنشـده شـعراً يخـالف مـبادئ الإسـلام أو يدعو الناس إلى محاربة الرسول ﷺ وقـتاله. وقـد فهـم ابن رشيق أن تشبيه الرسول ﷺ للشعرَ بالقبح ليس عاماً، وإنما هو على من غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه حتى شغله عن دينه واقامة فروضه، ومنعه عن ذكر الله تعالى، وتلاوة القران.(١٧)

رفع المساهم

أما إذا صحَّت تتمة الحديث الشريف: (لئن يمتلأ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه، خير من ان يمتلأ شعراً قيل في هجائي) فإن هذه التتمة تدرج الحديث مع الآية الكريمة. والشعراء يتبعهم ...) ولايحتاج الحديث فيها إلى تأويل أو تعمق في التفكير فالنهي يكون منصباً على الشعر الذى قيل في هجاء الرسول ﷺ، والذى هو بحد ذاته هجاء للاسلام والمسلمين، معاد للدعوة الإسلامية وقيمها. وهذا مايدرج ضمن الشعراء الغاوين في الآية الكريمة. وقد قيل ان السيدة عائشة رفضت هذه الرواية، وقالت : لم يحفظ أبوهريرة الحديث، إنما قال رسول الله ﷺ : لأن يمتلئ جوف احدكم قيحاً ودماً، خير له من يمتلأ شعراً قيل في هجائي. (١٨)

وهناك قول له ﷺ بشأن الشاعر امرئ القيس يفهم منه على الظاهر موقف قاس ازاء الشعراء خاصة، وشعراء ماقبل الإسلام عامة، وهو قوله ﷺ :

امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار. (١٩) أو أشعر الشعراء، وقائدهم إلى النار. (٢٠)

وفي رواية أخرى فيها تفصيل أكثر لحال هذا الشاعر في الدنيا والاخرة وهي : ذلك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها، سئ في الآخرة، خامل فيها. يجئ يوم القيامة ومعه لواء الشعراء إلى النار. (٢١)

وإذا اكتفينا بالرواية الاولى لكونها واردة في واحد من كتب الصحاح، واستبعدنا الروايتين الاخيرتين الواردتين فى كتابين أدبيين فان وصف امرئ القيس هذا يجعل القارئ في حيرة قد تقوده إلى فكرة خاطئة عن مفهوم الإسلام للشعر ونظرته إلى كبار الشعراء فامرؤ القيس شاعر شمخ بشعره بين شعراء الجاهلية، ويصفه الرسول الكريم بأنه قائد الشعراء إلى النار، وتجد شعره شواهد يتمثل بها في كتب الشعر، وشواهد تمثل الأنموذج الفني في كتب الأب والبلاغة.

هنا لابد من وقفة تأمل وتحليل، فالرسول ﷺ عربي بذوقه الرفيع وبلاغته التي جعلت أقواله، وأحاديثه أعلى نمط أدبي عرفته اللغة العربية بعد القران الكريم. فكيف يحط من شأن شعر امرئ القيس، ويجعله قائد الشعراء إلى النار ؟ لابد إذن أن

يكـون حكمه منصباً على جوانب معينة من شعره، أعني بها الصور الوصفية الفاحشة في غزله التي تتنافى مع مبادئ الإسلام، ودعوته إلى العفة، والخلق القويم، وليس المراد بـه شعر الشاعر عامة، أو شخصه على الحقيقة، لأن الحديث الشريف فيه توجيه آخر لشعراء المسلمين ليسلكوا سبل الخير في أشعارهم. فمن كان على شاكلة امرئ القيس في شعره الماجن، أو غزله الفاحش يكون مصيره النار ولا يفهم منه أن امرأ القيس هنا حـامل لـواء الشعـراء إلى الـنار على الحقيقة، لانه عاش قبل الإسلام. والإسلام كما يقـول الحديث النبوي الشريف(يجبُ ماقبله)[٢٢] أي يقطعه. على أنه يمكن ان يلمح فـي هـذا الحديـث الشـريف موقـف نقـدي من جانب آخر يخص شعر امرئ القيس وتفضيله على شعراء عصره أو على الشعراء عامة دون تحديد لزمان أو مكان، فجعله قـائدهم، وإن كـان قـائداً مؤديـاً إلى النار. علق دعبل الخزاعي تعليقاً طريفاً، فهم من خلالـه رأي الرسّول ﷺ في تقديم شعر امرئ القيس من حيث القوة والجزالة قائلاً : (ولايقود قوماً إلا أميرهم)[٢٣].

ومـثل هـذا يمكـن أن يوجـه الحديـث الشـريف الآخــر (من قال في الإسلام هجـاءً مقذعـاً، فلسـانه هدر)[٢٤]، لأن طبيعة الهجاء القذف والافتراء، وهو وتعاليم الديـن الإسلامي على طرفي نقيض، لأن الاستقامة في السلوك والعفة في الحديث من الأمـور المطلوبـة في أخـلاق المسلم. وقد وصف الرسولﷺ نفسه بانه لم يكن فاحشاً، ولامتفحشـاً، ولا لعّانـاً، ولا سـباباً.[٢٥] ولا يمكـن أن يقبل إنكار الرسولﷺ لوجود الظاهـرة الشـعرية أو مـنعها في المجـتمع العربي، وهو الذى يقول : (لا تــدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحداء).[٢٦]

وقـد قـال الخليل بـن احمد الفراهيدي : كان الشعر احب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام.[٢٧]

فالشعر جزء من حياة العرب، ووجودهم، ولا يمكن ان يهجروه في اى حال من الاحوال كما لا يمكن ان يدعو الرسول ﷺ إلى مخالفة الطبيعة العربية والإنسانية لكون الشعر مظهراً من مظاهر الابداع الفكري الإنساني، وهو العربي الذي يعجب بالكلام

رفع المسـاهم

الفصيح، ويهتز للشعر الجميل. وعلى هذا تكون أقوال الرسول ﷺ السابقة دائرة ضمن التوجيه العام للمهمة الشعرية التي هي جزء من النشاط الإنساني الذى أراد الرسول ﷺ توجيه العرب المسلمين اليه وهو الدعوة إلى الخير، والعمل الصالح، وتجنب الردئ المسئ قولاً وفعلاً.

لقد ذكر انهﷺ اعجب بكلام بليغ في قصة وفد تميم بقوله : إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة أو حكما(٢٨) أي ان البليغ يبلغ ببيانه ما يبلغه الساحر بلطافة حيلته في سحره (٢٩). فاذا تذكرنا ان كلام الرسول ﷺ هذا قد قاله في رجل ذم رجلاً ومدحه في آن واحد،عرفنا اعجابه ﷺ بالكلام البليغ والقول المبين الحسن، مما يؤكد كون الرسول ﷺ لم يمنع العرب من قول الشعر اوانشاده أو سماعه.

وهناك أقوال أخرى أكثر وضوحاً لكونها مبينة لموقف الرسول ﷺ من الشعر، وتقسيمه على ضربين كقوله :

- الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام.(٣٠)
- وقوله ﷺ : فمنه قبيح ومنه حسن فخذ من الحسن، ودع القبيح (٣١).
- إنما الشعر كلام، ومن الكلام طيب وخبيث (٣٢)

إن أقوال الرسول ﷺ هذه تخص الشعر بمفهومه العام لا الخاص، فهو لم يخص به شعر المسلمين دون غيرهم، ولم يقل ان الشعر الجيد هو شعر المسلمين فقط، وإنما استعمل كلمة الحق بمفهومها العام التي يمكن ان يدرج ضمنها كل شعر يدعو إلى الحق والمثل العليا، بما في ذلك شعر قيل قبل الإسلام وفيه موافقة للحق. فالرسول ﷺ يوجه انظار المسلمين إلى أن الشعر نتاج انساني لكنه ينقسم على ضربين: الأول لا خير فيه، لانه لا يوافق أي جانب من جوانب الخير التي يجب ان يدعو اليها الشاعر، أو أن يشيعها في مجتمعه. والثاني: ضرب موافق للخير والحق والجمال، وهذا هو النمط الشعري المطلوب، وماسواه لافائدة منه. هذا التوجيه ينسجم مع قولهﷺ (بعثت لأتمم مكارم الاخلاق).(٣٣) فالشعر المتمم من هذه الناحية لمكارم الاخلاق شعر حق، وخير، وماكان منافياً للحق بمفهومه العام فلاخير فيه.

رفع المسيهما

ونلمح في قول آخر منسوب للرسولﷺ فيه تعريف للشعر، وبيان لمهمة الشاعر يقول فيه (الشعر كلام من كلام العرب، جزل تتكلم به في بواديها، وتُسَّل به الضغائن من بينها).[٣٤] فالرسول ﷺ ميز الشعر عن كلام العرب بالجزالة التي تعني فيما تعني المتانة والرصانة، وكل ما خالف الرّكة[٣٥]. ثم بين غاية الشعر بقوله: (تتكلم به في بواديها). ويشمل هذا ايضاً عموم الشعر الذى قيل في عصر الإسلام وقبله. فهو الذى عبرت به العرب عن مشاعرها، وأحاسيسها في باديتها، وهو وسيلة خيرة يمكن ان يسل بها الشعراء الضغائن والاحقاد، وان يرققوا النفوس ويهذبوها. فغاية الشعر اذن التعبير عن الحياة، واصلاح ذات البين، فالشاعر في نظر الرسول ﷺ يحمل رسالة الخير والاصلاح والصلاح، ومهمته فعالة وكبيرة في خدمة الرسالة الإسلامية من جهة، وحمل الرسالة الإنسانية في التعبير من جهة أخرى حيث يصور أحاسيسه وأحاسيس جماعته، والتزامه بالدفاع عنهم، مما يساعد على تصفية الأجواء الإنسانية التي تربط قومه بالمجموعة العربية، وبذا يؤدي الشعر مهمة خاصة وأخرى عامة، فالخاصة تظهر في تصوير المشاعر الفردية والجماعية، والعامة تتمثل بتوخي الخير والحق بمفهومهما العام والدفاع عن الدعوة بشكل خاص.

إن مهمة الشاعر من وجهة نظر الإسلام والرسول ﷺ تفوق مهمة الفارس أحياناً اذا أحسن استخدام موهبته الشعرية، فكان عنصراً فع إلا في مجتمعه ينير سبل الخير والمحبة والسلام، ويحرك مشاعر العطف والحنان والعفو إذا اقتضى موقف ما وساطة شاعر. والرسول ﷺ نفسه قد قضى حاجات عرضت له شعراً لما أثاره اصحابه من مشاعر المودة والمحبة، فشاعر هوازن يستثير عطف الرسول ﷺ على أسرى قبيلته بعد معركة حنين بشعر رقيق يستدر عطفه وعفوه، ويذكره بمرضعته التي ارضعته، وهي من بني سعد من هوازن وأخواتها اللاتي ينتظرن عفوه، فيستجيب الرسول ﷺ لطلب الشاعر ويعفو عن قومه، ويرد المسلمون الغنائم والاسرى إلى اهلها.[٣٦]

أما تأثره ﷺ بشعر الشاعرة قتيلة بنت الحارث حين رثت اخاها الذى قتل مشركاً فلما فيه من معاني الاخوة الإنسانية، والصدق العاطفي الذى جعل الرسول ﷺ يقول : لوسمعت هذا قبل ان اقتله ماقتلته.[٣٧]

رفع المسـاهم

وهكذا نجد موقف الرسولﷺ موقفا واضحاً ينسجم تمام الانسجام مع ما يدعو إليه الإسلام من مثل وخير وحق، وهو بهذا يوجه الشعر والشعراء ولا يقف مثبطاً لهممهم أو حاطاً من قدرهم كما فهم بعض الباحثين.

وسنجد أنه عليه الصلاة والسلام قد اتخذ شعراء معروفين للذود عن العقيدة، وشجعهم وأثابهم، واستنشدهم وفي هذا يقول ابن رشيق (فلو أن الشعر حرام ما اتخذ النبي شعراء يثيبهم على الشعر ويأمرهم بعمله ويسمعه منه)[٣٨].

٢- حالة الشعر في صدر الإسلام:

أ- شعر المشركين

إن دراسة حالة الشعر في صدر الإسلام تقتضي الوقوف على كل ماقيل في هذا العصر، ما قاله المشركون وما قاله شعراء المسلمين لتكون الصورة واضحة في متابعة الحركة الشعرية، وما قيل من أشعار على لسان الطرفين.

إن معظم ما قاله المشركون أو ممن عارضوا الإسلام كان في مكة ثم ما قاله اليهود في المدينة، حيث شهدت المدينتان صراعاً عنيفاً بين قوى الخير التي أمنت بالرسالة الإسلامية، وقوى الكفر التي استماتت لتحول بين الدعوة الإسلامية والانتشار.

لقد كان هذا الصراع كافياً لحفز النفوس الشاعرة إلى قول الشعر والاندفاع فيه، وهو واحد من الاسباب القوية التي يرد بها على من قال أن الإسلام اضعف الشعر والحركة الشعرية، لأن هذا الحكم لايصدق على الشعراء الذين لم يشملهم حكم الإسلام وتوجيهه، وهم شعراء المشركين الذين سبب ظهور الإسلام بالنسبة لهم دافعاً قوياً على قول الشعر الذي يهجون به المسلمين، ويحرضون القبائل العربية على حربهم.

لقد تنبه ابن سلاّم إلى دوافع القول الشعري حين جعل كثرة الحروب سبباً في نشاط الشعر وكثرته بسبب ماتثيره الحروب من انفعالات، ومواقف تقتضي التعبير عنها شعراً، قال ذلك في حديثه عن الطائف، وأن فيها شعراً ولكنه ليس بالكثير فقال: (وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الاحياء نحو حرب الاوس والخزرج،

رفع المسهم

أو قوم يغيرون ويُغار عليهم، والذى قلل شعر قريش انه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا)[٣٩] ولكنه حين تحدث عن شعراء مكة وقف على ما قالوه أيام شركهم، وهذا الذى يعنينا في هذا الموضوع،لانه يشكل قوام الحركة الشعرية في مكة عند ظهور الإسلام حين اندفعت قريش بكل قواها لمنع الرسول ﷺ من نشر دعوته، ومنع القبائل من الدخول في الإسلام، ثم صار الحافز أقوى حين قال المسلمون أشعاراً في الرد على شعراء المشركين، فتبادل الطرفان الأهاجي، ونشطت النقائض مما سنعرض له في هذا البحث. ونذكر ما أورده ابن سلاّم أيضاً عن ندرة شعر الهجاء في مكة لطبيعة وضع قبيلة قريش المشغولة بالتجارة وسقاية الحاج وحمايتهم فقال: (وكان مما تنكره قريش، وتعاقب عليه ان يهجو بعضهم بعضاً)[٤٠]. وهو دليل على قلة أشعار القرشيين في الجاهلية لضعف الدافع فى أحد أغراض الشعر، والقول هذا يبين لنا قوة ما أثاره الإسلام من حوافز القول الشعري عند مشركي قريش فكانت لهم قصائد يردون فيها على شعراء المسلمين، اويحفزون الناس على حربهم، أو يرثون قتلاهم، وغير ذلك مما تقتضيه طبيعة الحرب الدائرة بينهم وبين المسلمين.

فمن شعراء مكة الذين قالوا شعراً ايام شركهم :

- **عبد الله بن الزبعرى:**

هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم. وصف أنه أشعر شعراء قريش، ويبدو انه كان شاعراً مجيداً قبل الإسلام، وان اهل مكة أصبحوا يوماً وقد كتب على دار الندوة بيتان من الشعر في هجاء بني قصي، فأنكر الناس ذلك، وقالوا: ماقالها إلا ابن الزبعرى، فمشوا إلى بني سهم، وكان مما تنكر قريش وتعاقب عليه أن يهجو بعضهم بعضا، وطلبوا عقابه، إلا انهم بعد ذلك تراضوا وخلوا عنه فقال بيتين تدلان على شاعرية وهما:

لعمرك ماجاءت بنكر عشيرتي ... وإن صالحت إخوانها لاألومُها
يود جناة الغي أنّ سيوفنا ... بأيمانـنا مسلولة لانشيمها

وقد وصف البيتان بانهما من احسن الانصاف والعقل[٤١] وله شعر في يوم الفجار.[٤٢]

أما بعد الإسلام فقد ذكر بأنه كان شديداً على المسلمين[٤٣] وقد ذكرت له ابيات نصّ على انها من قصيدة – قالها في يوم أحد معلناً شماتته من هزيمة المسلمين، وعد ذلك اليوم انتقاماً وشفاءاً لِغليل المشركين مما نالوه على ايدي المسلمين يوم بدر :

يا غرابَ البين أسمعتَ فقلْ ... إنما تنطق شيئاً قد فُعِل
إنَّ للخير وللشرّ مدى ... وكلا ذلك وجهٌ وقُبُل
أبلغنْ حسانَ عني آيةً ... فقريضُ الشعر يشفي ذا الغلل
كم ترى بالحرف من جمجمةٍ ... وأكُفّ قد اترَّتْ ورجل
وسرابيل حسان سُرّبت ... من كماة أهتكوا في المنتزل
كم قتلنا من كريمٍ سيدٍ ... ماجدِ الجدين مقدامٍ بطلّ
صادق النجدة قرم بارعٍ ... غير ملتاثٍ لدى وقع الأسَلْ

وهذه الأبيات أوردها ابن اسحاق في السيرة. أما ابن سلام فقد اورد تتمتها :

كلُّ بؤس ونعيمٍ زائلٍ ... وبناتُ الدهر يلعبْن بكُلّ
والعطياتُ خِساسٌ بيننا ... وسواءٌ رِمْس مُثرٍ ومُقِل
ليت أشياخي ببدر شهدوا ... ضَجَر الخزرج من وقع الأسلْ
حين القت بقناة[٤٤] بركَها ... واستحرّ القتلُ في عبدِ الاشل
فقبلنا النِّصف[٤٥] من ساداتهم ... وعدلنا ميل بدرٍ فاعتدل[٤٦]

وواضح ان هذه الأبيات ليست كل القصيدة. اكتفى ابن سلام بخمسة ابيات منها. والذى يجب ان نلفت إليه الانتباه أن هذه ليست اول قصيدة قالها في هجاء المسلمين، لأن قوله في البيت الثالث (أبلغنْ حسان..) يدل على كثرة مهاجاة بينهما.

وقد ردّ حسان بن ثابت على هذه القصيدة بقصيدة تقع في سبعة عشر بيتاً مطلعها:

ذهبت بابن الزبعرى وقعةٌ ... كان منها الفصلُ فيها لو عَدَل[٤٧]

وقال ابن الزبعرئ قصيدة يوم الخندق مطلعها:

حي الديار محا معارفَ رسمِها ... طولُ البلا وتراوحُ الاحقابِ[٤٨]

ورد عليه حسان بقصيدة تقع في اربعة عشر بيتاً مطلعها :

المسهم

هـل رسـمُ دارسةِ المقـامِ يبابِ　　متكـلـمٌ لمحـاورٍ بجــواب.(٤٩)

وظـل عـبد الله بن الزبعرى يحرض الكفار على المسلمين، فكان من الطبيعي أن يهدر الرسول ﷺ دمه (٥٠).

وقـيل ان ابن الزبعرى أسلم ثم مدح الرسول ﷺ، واعتذر اليه بشعر فيه عاطفة قوية، ورجاء ورغبة في العفو، كما ان فيها نفساً اسلامياً وهي قوله: (٥١)

مـنع الـرقادَ بلابـلٌ وهمـوم　　والليلُ معتلجُ الـرواق بهيمُ(٥٢)
ممـا أتـاني أن أحمـد لامـني　　فـيه، فبـتُّ كـأنني محمـوم
يـاخير مَـنْ حملـت عـلى أوصـالها　　عيرانةٌ سرحُ اليدين رسوم(٥٣)
إنـي لمعـتذر إلـيك مـن الـذى　　اسـديتَ إذ انـا في الضـلال أهيم
أيـام تأمـرني بـاغوى خطـة　　سـهمٌ، وتأمـرني بهـا مخـزوم
فاغفـر- فـدى لـك والـديَّ كلاهمـا - ذنـبي فـإنك راحـم مـرحـوم
وعلـيك مـن أثـر المليك علامة　　نـور أضــاء وخـاتم مخـتوم
مضـت العـداوة فانقضـت أسبابها　　ودعـت أواصـر بيننا وحلـوم

وله أبيات اخرى في الاعتذار من الرسول (ﷺ)(٥٤) يقول فيها :

يـارسـول المليـك إن لسـاني　　راتـقٌ مـا فتقـتُ إذ أنـا بـور
إذ اجـاري الشيطان في سنن الغي　　ومـن مـال مـيله مثبورُ
آمـن الـلحمُ والعظـام بمـا قلت　　فنفسـى الفـدا وأنـت الـنذير

وقد رويت له أشعار في مدح الرسول ﷺ وطلب العفو عن مواقفه السابقة، حتى ذكر أنه شارك في غزوات الرسول ﷺ بعد فتح مكة(٥٥).

والملاحـظ أن ما قاله عبد الله بن الزبعرى أيام شركه لم يروه الرواة كاملا، فهم اما أن يختاروا أبـياتاً لاتمس العقيدة الإسلامية، وليس فيها شتم وفحش أو يكتفوا بإيراد مطلع نقيضته، أو يصدروا نقيضة الشاعر المسلم بعبارة : وقال يرد على ابن الزبعرى (٥٦)، اوقال يهجو ابن الزبعرى، أو يرد في شعر الشاعر المسلم مايشير إلى هجـاء ابن الزبعرى له وللمسلمين كقول كعب بن مالك فى قصيدة :(٥٧)

رفع المسـهم

تبجَّستَ تهجو رسول المليك قاتلك الله جِلفاً لعينا
تقول الخنا ثم ترمي به نقيَّ الثياب تقياً أمينا

والذى يدل على كثرة ما أهمل من شعر ابن الزبعرى الرواية التي ذكر فيها انه وضرار بن الخطاب (وهو من شعراء قريش أيام شركها) قدما المدينة ايام الخليفة عمر بن الخطاب، فأتيا ابا احمد ابن جحش، وكان شاعراً ومألفاً يجتمع عنده فق إلا له: اتيناك لترسل إلى حسان بن ثابت فنناشده ونذاكره، فانه كان يقول في الإسلام، ونقول في الكفر، فارسل اليه فجاء.. وتذكر الرواية انهما أنشدا أشعارهما، حتى اذا صار كالمرجل يفور قعدا على رواحلهما. يعني انهما أسمعاه من أشعارهما ما قالاه في هجائه وهجاء قومه أيام شركهما، ولم يسمعاه، أو لم يتركا له فرصة لانشاد ماكان قد قاله فيهما [٥٨] ... ولم تذكر الرواية الشعر الذى أثار حسان بن ثابت وجعله يغلي كالمرجل. أغلب الظن أن الرواة تجاهلوه، ولم يوردوه لما فيه من ثلب موجع، وهجاء فاحش. وينتهي الخبر بأن يشكو حسان الامر إلى الخليفة عمر بن الخطاب فيامر باعادة الرجلين حتى اذا جئ بهما، وقف حسان، وأنشد أمامهما ما شفى به غليله. عند ذاك سمح الخليفة للرجلين بالرحيل. وهنا ايضاً لم تورد الرواية الشعر الذى قرأه حسان أمام ابن الزبعرى وضرار بن الخطاب. كل ذلك يدل على تقصد الرواة اهمال شعر المشركين وعدم روايته.

- **أبو سفيان ابن الحارث:**

من شعراء قريش ايام شركها ابوسفيان المغيرة بن الحارث. وهو ابن عم الرسول ﷺ ورضيعه، وكان محباً للرسول ﷺ قبل الدعوة وأشدهم عداوة بعد البعثة ظل يؤذي الرسول ﷺ ويهجوه مدة عشرين سنة [٥٩] وذكر أنه كان له شعر قاله في الجاهلية فسقط، ولم يصل إلينا إلا القليل.[٦٠]

أما ماروي من شعره في السيرة النبوية فيرى ابن سلام انه منحول فيقول : ولسنا نعد مايروي ابن اسحاق له، ولا لغيره شعراً، ولئن لا يكون لهم شعر أحسن من ان يكون ذلك لهم[٦١].

رفع المسهم

وقد ذكر القرشي بدء مهاجاة حسان مع أبي سفيان بن الحارث، وذلك ان حساناً جاء إلى الرسولﷺ وقال له : يارسول الله : أن أبا سفيان ابن الحارث هجاك وأعانه على ذلك الحارث بن هشام وكفار قريش. افتأذن لي أن أهجوه ؟ فقال النبي: فكيف تصنع بي ؟ فقال : أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين. قال : اهجهم، وروح القدس معك(٦٢)، وقوله ﷺ له : اذهب إلى ابي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم، ثم اهجهم. (٦٣) وفعلاً هجا حسان ابا سفيان بن حارث في قصيدة مطلعها:

لقد علم الاقوام أن ابن هاشم   هو الغصن ذو الافنان لا الواحد الوغد

كان اخرها :

وإنَّ امرء كانت سمية أُمّه   وسمراء مغلوب اذا بلغ الجهد

قال ابوسفيان : هذا شعر لم يغب عنه ابن ابي قحافة (٦٤) – يعني ابابكر– ولم يورد ابن سلام لابي سفيان شعراً إلا بيتين قالهما يوم احد وهما :

شقيتم بها وغيركم أهل ذكرها   فوارس من ابناء فهر بن مالك
حسبتم جلادَ البيض حولَ بيوتكم   كأخذكم في العير أرطال آنك(٦٥)

أما ابن اسحاق فرواهما ضمن مقطوعة ختمت ببيت شعري يهجو فيه ابوسفيان بن الحارث حسان بن ثابت، ويظهر عليه الوضع والانتحال، لأن معناه لايمكن ان يصدر عن رجل مشرك بالله، لأنه يرد على فخر حسان بما غنمه المسلمون من القافلة التي كانت قريش قد حمّلتها أموالاً، ذهباً وفضة، فيقول له انت لست من المهاجرين، ولا من الانصار الذين تحفهم الملائكة، ولست ممن يفخر بالنسك والإيمان :

فانك لافي هجرة إنْ ذكرتها   ولاحرمات الدين انت بناسك (٦٦)

فكيف يذكر ابوسفيان ابن الحارث الهجرة على انها مفخرة لايحق لحسان ان يفخر بها ؟وكذا حرمات الدين والنسك ؟ اغلب الظن ان تكون المقطوعة التي اوردها ابن اسحاق موضوعة عدا البيتين اللذين ذكرهما ابن سلام.

رفع المسهم

أما أبيات حسان التي رد عليها ابوسفيان فهي (منها) :

دعوا فلجات الشام قد حال دونها … جـلاد كـأفـواه المخـاض الاوارك
بايدي رجال هاجروا نحو ربهم … وأنصـاره حقـاً وأيـدي الملائك
إذا سلكت حوران من أرض عالج … فقولا لها: إن الطريق هنالك(٦٧)

وأشـار حسـان في قصيدته الهمـزية الـتي سـنقف عندها ونحللها، إلى هجاء أبي سفيان للنبي ﷺ :

هجـوت محمـداً فأجبتُ عـنه … وعـند الله في ذاك الجـزاء

وفي ديـوان حسـان قصيدة يهجو بها ابا سفيان ابن الحارث، ويبدو انها رد على قصيدة قالها ابوسفيان لانه يخاطبه بقوله :

فـلا تفخـر بقـوم لست مـنهم … ولاتكُ كاللئام بني هشام(٦٨)

ولكن قصيدة ابي سفيان لم يذكرها الرواة.

وذكـر ابـن سـلام بيـتين قالهما ابوسفيان ابن الحارث في حسان بن ثابت إلا أنه علـق علـيهما بـأن أهل العلم من أهل المدينة أخبروه ان قدامة بن موسى بن عمر بن قدامـة بـن مظعـون الجمحي قالها ونحلها أبا سفيان، وقريش ترويها في أشعارها، تريد بذلك الانصار والرد على حسان.(٦٩)

وبعـد إسـلام أبي سفيان، اشترك في الغزوات، حتى قيل أنه دافع عن رسول ﷺ وهـو يرتجـز شـعراً في وقعة حنين. وفي هذه الوقعة بالذات ذكر ابن سعد أنه قال شعراً كـثيراً، وأ نه تركها لكثرتها (٧٠). كما قال بعد ذلك أشعاراً. وآخر ما أشير إليه قصائده التي قالها في رثاء الرسول ﷺ (٧١). ومع هذه الأوصاف ضاعت معظم أشعاره. إما التي قالها أيام شركة فضياعها بسبب ما فيها من شتم وأقذاع للرسول الكريم ﷺ وأصحابه. وأمـا ضـياع شـعره الإسـلامي فلا بد أن يكون جزءاً من الكم الكبير الذي ضاع من الشعر العربي.

رفع المسـاهم

- **ضرار بن الخطاب:**

ضـرار بـن الخطـاب بـن مرداس، من محارب بن فهر. من شعراء المشركين قرن اسمـه باسـم عـبد الله بـن الزبعرى وأنه أشعر منه (٧٢)، كان شاعراً، فارساً في العصر الجـاهلي. ذكـر له شـعر يفخـر فـيه بقريش وانتصارها على قيس في يوم عكاظ، وهو الـيوم الـرابع مـن أيـام الفجـار (٧٢أ)، وذكر أنه كان يسلك في حياته مسلك عروة بن الـورد في جمعـه الشذاذ والصعاليك والإارة خارج مكة، يسبي ويأخذ المال. (٧٢ب) ذكر له شعر في مكة قبل هجرة(٧٣) الرسولﷺ ونجد في أشعاره تعصباً لقبيلة قريش، فبدرٌ وأن كانـت هـزيمة للمشركين إلا أنه يحاول أن يجعلها مفخرة لقريش كلها، فاحمد (ﷺ ولا يسميه نبيا) ورجاله من قريش هم سبب النصر، فالمسألة ما تزال في مفهومه حرباً بـين قـريش وأهـل يـثرب. (٧٤) وـله شعر في أحد يحمل الروح نفسها، ونراه يصبرُ بني مخزوم (وهم من قريش أيضاً) ويعلن ثباته في الحرب قائلاً:

أكرهـتُ مهـريَ حـتى خاض غمرتهم ... وبلّـه مـن نجيع عانك علَقُ
أيقنت أني مقيم في ديارهم ... حـتى يفارق ما في جوفه الحدقُ
لا تجزعوا يا بني مخزوم إنّ لكم ... مـثلَ المغـيرة فيكم ما به زهقُ
صـبراً فـدى لكـمُ أمـي وما ولدت ... تعـاوروا الضرب حتى يدبر الشفق(٧٥)

وذكر له ابن سلام خبرين احدهما يوم أحد، والاخر بعد إسلامه ايام الخليفة عمر بـن الخطـاب دون ان يـروي لـنا شيئاً من شعره. ولا ندري سبب إحجامه عن إيراد شعره مع أنه ذكره ضمن شعراء قريش.(٧٦) أما ابن عبد البرفقد ذكر له شعراً يستنجد فيه بالرسول ﷺ ويسميه نبي الهدى حين فتح المسلمون مكة يرجوه أن يكف عنه وعن قومـه الأذى والذل(٧٧) وبعد الفتح تستمر حياة ضرار مسلماً، ويشارك في الفتوحات الإسـلامية حتى استشهد في معركة أجنادين(٧٧أ)، وقيل: خرج إلى الشام مجاهداً فمات هناك(٧٧ب)، وقيل امتدت حياته حتى زمن معاوية (٧٧جـ).

- **أبوعزة الجمحي:**

أبوعـزة الجمحي، واسمه عمرو بن عبد الله. كان شاعراً مملقاً ذا عيال فأسر يوم بدر كافراً، فقال : يارسول الله، اني ذو عيال وحاجة قد عرفتها، فامنن علي ﷺ عليك فقال : على إلا تعين عليَّ – يريد شعره- قال : نعم، فعاهده، وأطلقه.

وقـول الرسـول ﷺ عـلى إلا تعـين عليَّ دليل على كثرة شعره، وقوة تاثيره في نفـوس اعـداء المسلمين، فيحرضهم على القتال، بحيث يطلق النبيﷺ سراحه بعد عهده له إلا يقول شعراً ضد المسلمين.

وذكـر أن أبـا عزة هذا وقع في الأسر مرة ثانية، اسر يوم أحد فقال يارسول الله مـنّ علـي. فقال النبي ﷺ: لايلسع المؤمن من جحر مرتين. وقيل أنه ﷺ قال : لاتمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمداً مرتين[٧٨]

وذكر من شعره الذى يحرض به الكفار قوله :

يـا بـني عـبد مـنـاة الـرزامْ أنـتمْ حُمـاةُ وأبوكـمُ حـامْ
لا تعدونـي نصـركم بعـد العـامْ لا تسلموني لا يحل إسلامْ[٧٩]

ويكفـي أن نعـرف أن الآيـة الـتي ذمت الشعراء (سورة الشعراء) الذين يهيمون بكـل واد نزلـت في أبـي عـزة وأمثاله من شعراء المشركين لنعرف سبب إهمال رواية أشعاره[٨٠].

- **هبيرة بن أبي وهب المخزومي:**

أحد جبابرة قريش الذي حاربوا الإسلام، وتصدوا للدعوة الإسلامية بأشعارهم وفروسـيتهم ودهـائهم، فقـد قـاتل في معـركة بدر قت إلا شديداً حتى انهارت قواه، فأعانـه أصـحابه عـلى الهـرب[٨١]. وأخذ بعد هذا يؤلب قريشاً والقبائل العربية. وقد أورد ابـن هشـام في السـيرة قصـيدة له تقـع في ثـلاث وعشرين بيتاً تحمل صورة لهذا الشـاعر الفارس المشرك وقيادته المشركين يوم أحد. فقد بدأ القصيدة بذكر لوم عاذلته لإنشغاله عنها بحرب المسلمين:

رفع المسـاهم

ما بال همٌ عميد باتَ يطرقني ... بالود من هند إذْ تعدو عواديها
باتت تعاتبني هندٌ وتعذلني ... والحربُ قد شغلتْ عنّي مواليها
مهلاً، فلا تعذليني إنَّ من خلُقي ... ما قد علمت،وما أن سوف أخفيها
مساعف لبني كعب بما كلفوا ... حمّال عبءَ، وأثقال أعانيها
وقد حملت سلاحي فوق مشترفٍ ... ساطٍ سبوحٍ إذا تجري يباريها

إلى أن يقول مصوراً دوره السياسي في تأليب القبائل وجمعها لحرب المسلمين:

سُقْنا كنانةَ من أطراف ذي يَمَنٍ ... عرض البلاد على ما كان يُزجيها
قالت كنانة أنّى تذهبون بنا ... قلنا النخيلَ فأمُّوها ومَنْ فيها
نحن الفوارس يوم الجر من أحد ... هابت معدٌّ فقلنا نحن نأتيها
هابوا ضِرابا وَطعناً صادقا خذِما ... مما يرون وقد ضُمَّت قواصيها
ثمت رحنا كأنّا عارضٌ بَرِدٌ ... وقام هام بني النجار يبكيها
كأنَّ هامَهُم عند الوغى فلق ... من فيض رُبْدٍ نفته عن أداحيها(٨٢)

فالأبيات تصور -كما قلنا- دوره السياسي ودهاءه، فقد أفلحت جهوده بأن ضمَّ بني كنانة إلى القبائل التي شاركت في غزوة أحد، وقوله عن لسان كنانة مستفسرة عن الوجهة التي يسيرهم إليها تدل على تذبذب الموقف الفكري أو بالأحرى افتقاد المشركين لمسوّغ حرب المسلمين، ومع ذلك لبّوا دعوته، وأطاعوه، دون أن يعرفوا وجهة الحرب.

وبعد أن وصف قتلى المسلمين مشيراً إليهم ببني النجار، وهو يعلم أن فيهم من فرسان قريش ووجوهها، ولكنه يريد أن يحول الحرب إلى قبلية ضد أهل يثرب (كما سمّى المدينة) بعد هذا وقف للفخر بكرمه ونجدته، وأن له خص إلا ورثها عن والده، وأجداده(٨٣) والواقع أن هذه القصيدة تدل على نفس شعري، ولغة متمكنة استخدم فيها الحوار والأساليب الفنية الأخرى من تشبيه وكناية صَورت الموقف تصويراً دقيقاً ينقلنا إلى أجواء المعارك والاستعداد لها مما دعا حساناً للرد عليه بقوله محولاً فخر هبيرة إلى هجاء إسلامي، فكنانة قد سبقت إلى النار لأنها تحارب المسلمين:

سقتمْ كنانةَ جهلاً من سفاهتِكم — إلى الرسول فجندُ الله مخزيها
أوردتموها حياضَ الموتِ ضاحيةً — فالنارُ موعدُها والقتلُ لاقيها
جَمّعتموها أحابيشاً بلا حسبٍ — أئمةَ الكفرِ غرّتكم طواغيها
إلا اعتبرتمْ بخيلِ اللهِ إذ قتَلَتْ — أهلَ القليبِ ومن ألقينَهُ فيها(٨٤)

وقد قال حسان قصيدة يجيب فيها هبيرة، وينقض قصيدته(٨٥)، ولم يورد ابن سلام من قصيدة هبيرة إلا بيتين، واكتفى بالقول بأن هبيرة كان من رجال قريش المعدودين، وأنه كان شديد العداوة لله ورسوله فأخمله الله ودحقه(٨٦)، وذلك لأنه بقي على كفره وعناده ومعاداته للرسول ﷺ حتى إذا كان يوم فتح مكة لم يحتمل الهزيمة فهرب إلى نجران ومات هناك(٨٧).

وهناك أخبار كثيرة لشعراء المشركين ضاعت ولم تصل إليها، نستدل إليها بأشعار المسلمين الذين ردّوا عليهم، وذكروا إشارات لهم فحسان بن ثابت يرد على ربيعة بن الحارث، ويخاطبه بما يستدل به أنه قال شعراً في هجاء حمزة رضي الله عنه بعد استشهاده، يقول حسان:

أهجوتَ حمزة أنْ توفيَ صابراً — ونفاك أهلُك كالرئالِ الرزح(٨٨)

ولم نجد شعر ربيعة الذي شمت فيه بمقتل الشهيد حمزة رضي الله عنه أو هجاءه له. وهذا أمر طبيعي لشعر يمس شخصية عظيمة كان لها مكانها الكبير في نفوس المسلمين، وبلاؤها العظيم في الذود عن الرسول ﷺ والرسالة الإسلامية، فهو حريّ بالطمس والتجاهل(٨٩).

- **كعب بن الأشرف:**

من شعراء يهود. أبوه من طي وأمه يهودية من بني النضر. عارض الإسلام وحاربه، وقال أشعاراً كثيرة يحرض فيها القبائل العربية على قتال المسلمين، يذكر فرسانهم الذين قتلوا ببدر بما يثير حفيظة قريش فيبكيهم بكاءاً يستثير به أضغانهم، ويحرضهم على شنّ الغارة والحرب على يثرب كما يسميها:

رفع المسابهم

نبئت أنَّ بني المغيرة كلَّهم ... خشعوا لقتل أبي الحكيم وجُدِّعوا
وابنا ربيعة عنده ومنية ... ما نال مثل المهلكين وتبّعُ
نبئت أنّ الحارثَ بنَ هشامِهِم ... في الناس يبني الصالحاتِ ويجمعُ
ليزورَ يثرب بالجموعِ وإنما ... يحمي على الحسبِ الكريمِ الأروعُ

وقد أورد ابن هشام أحد عشر بيتاً من القصيدة(٩٠)، ولم يشكك بها. ولم يكتف كعب بالتآمر على الرسول ﷺ ومعاداته بل تجاوزها إلى هجائه وذكر نساء المسلمين، والتشبيب بهم. وقد بين الرسول ﷺ هذا الموقف بقوله معلقاً على سبب قتل كعب "لو أنه قرّ كما قرّ غيره ممن هو على مثل رأيه ما أغتيل، ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر". وهكذا كان أمره عليه الصلاة والسلام لمحمد بن سلمة ورهط من الأنصار فقتلوه(٩١).

ولم يذكر ابن سلام من شعره إلا خمسة أبيات(٩٢) في الفخر بأخواله ونستطيع أن نتخيل قوة أشعاره التي كان يقولها في تحريض العرب واليهود على المسلمين من أمر الرسول ﷺ بقتله، ومن فعله أيضاً، لأنه كان يتآمر مع يهود المدينة ومشركي قريش ويجمعون القبائل لقتال المسلمين.

ومن خلال هذا العرض لأشعار المشركين يتبين لنا القدر الهائل من الشعر الذى لم يصل الينا تحرجاً من روايته، لما فيه من سبٍّ للرسول ﷺ والمسلمين والدين الإسلامي. نضيف إلى هذا وقوف الخلفاء الراشدين موقفاً حازماً إزاء الشعر الذى قيل أيام الصراع مع المشركين، لأن روايته تثير الحزازة في النفوس بإثارة ما كمن من أحقاد وثأر لقتلى الطرفين، وتداول أي شعر من هذا النوع يؤدي إلى اثارة خلافات عفى عليها الإسلام. وهم في ذلك الرسولﷺ القدوة الصالحة الذى عفا عن مشركي قريش جميعهم حين دخل مكة، بقوله: أقول لكم كما قال أخي يوسف﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف:٩٢]. (٩٣)

وإذا كانت حروب الردة قد شغلت المسلمين عن تذكر تلك المواقف، فاننا

لانعدم اشارات زمن الخليفة عمر بن الخطاب تظهر في موقفين واضحين إزاء هذا الضرب من الشعر فقد ذكر أنه مر يوماً بمسجد رسول الله ﷺ فرأى حسان بن ثابت ينشد الشعر، فأخذ بأُذنه منكِراً عليه فعله قائلاً أرغاء كرغاء البعير ؟. فيجيبه حسان: دعني عنك ياعمر، فوالله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك، فلا يغيِّرُ عليٍّ، فصدقه عمر(٩٤) ومن غير المعقول ان ينسى الخليفة عمر سماع الرسول ﷺ شعر حسان، وسماحه لانشاده على منبر المسجد، ليذكره حسان به، ولكنه تصرف تصرف الحاكم المسؤول عن رعيته، وعرف بحكمته أن ما ينشده حسان من شعر يثير الأضغان في النفوس. ومن المؤكد أن حساناً ما كان ينشد أي شعر قاله في حينها، إنما كان ينشد شعره في قريش أيام شركها، و إلا لما اعترض عليه الخليفة. والدليل على هذا إنه وصف مايسمعه من حسان بأنه كرغاء البعير لا فائدة منه (ولكن حسانا يغفل انه كان يهاجي بالامس قوماً مشركين، وقد صاروا اليوم في عداد المسلمين فلا يستساغ بعد ذلك هذا الضرب من الشعر)(٩٥).

والحادثة الثانية التي تذكر عن الخليفة عمر رضي الله عنه، ومحاولته الحد من رواية الشعر الذى قيل أيام شرك قريش ماذكرناه من قبل من مجئ عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب إلى المدينة، وإرسالهما إلى حسان بن ثابت ليتناشدوا الأشعار، وحين قدم حسان قالا له: ان شعرك كان يحتمل في الإسلام، ولايحتمل شعرنا، وقد احببنا أن نسمعك وتسمعنا. فقال حسان : اتبدآن أم ابدأ ؟ قالا: نبدأ نحن، فانشداه، حتى فار فصار كالمرجل غضباً، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة. فما كان من حسان إلا أن أسرع إلى الخليفة عمر، وحدّثه بخبرهما. ويتصرف الخليفة بما يطفئ غضب حسان، ويبعث في أثرهما من يردهما، حتى اذا عادا أمر حساناً بان يسمعهما ما أراد إنشادهما من شعر. ولما فرغ حسان قال له الخليفة: أفرغت؟ قال: نعم. فقال: أنشداك في الخلاء. وانشدتهما في الملأ، ثم خاطب الشاعرين الآخرين: عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب : إنْ شئتما فاقيما، وانْ شئتما فانصرفا. وقال لمن حضره: إني كنت نهيتكم أن تذكروا ما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعاً للتضاغن، وبث القبيح فيما بينكم، فأما إذا أبوا فاكتبوه واحتفظوا به.(٩٦) ونفهم من

رفع المسهم

هـذا الامر جملة أمور : أولها أن الخليفة عمر يصرح بأنه نهاهم جميعاً عن رواية الشعر الـذى كـان بـين المشـركين والمسـلمين. وثانـيهما : ان هـذه الحادثـة تمـت لحسان بعد احـتجاج الخلـيفة عمـر رضـي الله عـنه علـيه في مسجد المدينة، لأنه حاول ان يكظم غـيظه، وأن يكـل امر الشاعرين اللذين حاولا إغضابه فعلا إلى الخليفة الذى منعه أن يرغو كما يرغو البعير، ويرمز رغاء البعير إلى الصوت العالي لا فائدة منه.

وثالـثها: ان ضـراراً وعبد الله بن الزبعرى يعترفان بان شعرهما في الإسلام كان لايحتمل لانه موقوف ضد الدعوة، متعرض لشخص النبي ﷺ، وأصحابه الكرام، وأن شعر حسان كان محتملاً مقبولاً.

وتـبقى هاتـان الحادثـتان دليلين على محاولة جادة لطمس شعر المشركين وبعض شـعر المسـلمين الـذى يثير الحزازات في النفوس، وان الخليفة اقترح عليهم جميعاً إنْ رغبوا في الاحتفاظ بأشعارهم أنْ يدونوه. وقد ذكر راوي الخبر تتمة : فأدركتهم، والله وإنّ الانصـار لـتجدده عـندها إذا خـيف بـلاه. ولم يقـل ان قريشـاً كانـت تجدد شعر شعرائها أيام شركهم، لأنها فعلا كانت راغبة في نسيان تلك المواقف المعادية للاسلام، وماقيل فيها من شعر.

ب- شعر المسلمين وواقع الحركة الشعرية:

لقـد مرَّ بنا توجيه الرسول ﷺ لشعراء المسلمين عامة، لتكون أشعارهم موائمة لروح الإسلام، وتوجيهه. فإذا أردنا ان نعرف واقع الحركة الشعرية في صدر الإسلام وجب علينا متابعة استجابة الشعراء لهذا التوجيه ومدى فهمهم لأقوال الرسولﷺ.

لقـد وجدنـا مـنذ فجـر الدعـوة الإسـلامية تلاحمـاً بـين توجيهات الرسول ﷺ، ومواقـف الشـعراء المسـلمين، حـين اشـتد اذى رجال قريش للمسلمين وسخَّروا كل قواهم المادية والمعنوية لحربهم، كان الشعر وسيلة فعالة للرد على المسلمين، وتحريض القـبائل علـيهم، لأنـه الوسيلة الاعلامية الوحيدة التي تشيع آراء رجال قريش، فتسير بهـا الركبان بين القبائل والأعراب، وبذا نشطت الحركة الشعرية التي ماكانت معروفة في قريش من قبل بمثل القوة والاندفاع اللذين نجد صداهما في تحرك الشعراء المسلمين للردّ عليهم.

لقد انبرى شعراء قريش لتحريض القبائل العربية، وكان لهم دورهم في الردّ على شعراء المسلمين، اوالفخر بوقائعهم في المعارك التي دارت بين المسلمين، فلا عجب ان ينبري شعراء المسلمين للرد على المشركين تلبية لأمر الرسول ﷺ الذى طلب منهم الدفاع عن الدين الإسلامي، والرد على المشركين بقوله ﷺ المشهور: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم، وقول حسان : أنا لها، وأخذ بطرف لسانه، وقال: ما يسرني به مقول أحد من العرب[٩٧] فصبّ على قريش منه شآبيب شر، فقال رسول الله ﷺ أهجهم، كأنّك تنضحهم بالنبل [٩٨].

وهناك رواية يسأل فيها الشاعر كعب بن مالك الرسول ﷺ عن الشعر وكانه يريد ان يطمئن إلى دور قصائده في الدفاع عن الدعوة فيسأل : ماذا ترى في الشعر؟ فيجيبه الرسول ﷺ: (المؤمن يجاهد بسيفه، ولسانه)[٩٩].

وهكذا نلمح في دراسة الواقع الشعري في عصر الرسول ﷺ تشجيعاً للشعر والشعراء، وتوجيهاً نحو الالتزام بالدين والخلق القويم في أشعارهم، وهذا يوضح واقعاً شعرياً في النظر إلى الشعر وأهمية الشاعر في حمل رسالة الإسلام اوالدفاع عنها ونشرها كما يفعل الدعاة أو المقاتلون. وقد ذكرت أقوال كثيرة شجع فيها الرسول ﷺ الشعراء المسلمين كقوله مخاطباً حسان بن ثابت، اوعبد الله بن رواحة، أو كعب بن مالك :

- لشعرك أجزى عند قريش من سبعين رجلاً مقاتلا.
- هؤلاء النفر أشدّ على قريش من نضح النبل، واهجهم كأنك تنضحهم بالنبل.
- اهجهم، فوالله لهجاؤك أشدّ عليهم من وقع السهام في غلس الظلام.
- اهجهم، ومعك جبريل روح القدس.
- اهجهم أنتَ، سيعينك عليهم روح القدس.
- اللهم، أيدْه بروح القدس.
- إنّ روح القدس معك. [١٠٠]

كل هذه الأقوال ترفع مكانة الشاعر وتقربه من مكانة المقاتل المجاهد،

رفع المسهم

وتجعل كلامه الملتزم بالدعوة مقترناً بالقوة الالهية التي تسند الرسول ﷺ معاناً بجبريل. وفي هذا دلالة كبيرة على طبيعة الشعر في عصر صدر الإسلام، وتشجيع الرسول ﷺ للشعراء المسلمين، ليوجهوا أشعارهم نحو خدمة الدين الإسلامي.

ويبدو هذا الأمر طبيعياً جداً، فالرسول ﷺ عربي يعرف أهمية الشعر في حياة العربي، ومكانة الشاعر في قبيلته. وقد كانت وفود القبائل العربية تقدم عليه ﷺ قبل اسلامها، فتتصرف تصرف القبائل المعهود في العصر الجاهلي، فيخيل لبعضهم أن الامر لا يعدو المفاخرة بين محمد القرشي وأتباعه، وبينهم، لذا لجأوا إلى الشعر والخطابة لكونهما وسيلتين لعرض الرأي والمفاخرة.ومادامت هذه الوفود لم تسلم بعد، فالمسألة عندهم لا تتجاوز التباري شعراً أوخطابة. وهكذا يقدم وفد بني تميم على رسول الله ﷺ قبل فتح مكة، وينادون الرسول ﷺ من وراء الحجرات، فلما خرج اليهم قالوا: يا محمد، جئناك لنفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا. قال : قد أذنت لخطيبكم فليقُلْ. فقام عطارد بن حاجب فخطب خطبة افتخر فيها بقومه الذين هم أعز أهل المشرق، وأنهم أكثر عدداً، وأنه لايستطيع أحد من الناس أن يبلغ مبلغهم. وأن من يريد ان يفاخرهم، فليعدّد مثل ماعدد هو من المفاخر من كثرة الاموال وكثرة العدد والقوة.

إن كل ما أفتخر به هذا الخطيب يمثل القيم الجاهلية، لانه لم يسلم بعد، وقد استمع اليه الرسول ﷺ، ثم طلب من خطيبه ان يقوم فيخطب، وهنا نعجب من سرعة تلقي المسلمين لتوجيهات الرسول ﷺ في خطبهم وأشعارهم، وتوجيههم نحو الالتزام بمبادئ الإسلام. فكانت المعاني التي وردت في خطبة ثابت بن قيس الخزرجي خطيب الرسول ﷺ هي معانٍ إسلامية، أو بالأحرى هي دعوة لمبادئ الإسلام. وفخر به. حمد الله تعالى خالق السموات والارض الذي اختار محمداً ﷺ من بين الناس وائتمنه على كتابه، فهو خير العالمين، لأنه يدعو إلى الإيمان بالله وقد صدقه المهاجرون الأخيار والأنصار الذين أمروا بالدفاع عن الرسول ﷺ ودينه، حتى يظهر الله أمره. ثم يعرض عليهم الإسلام بقوله : (فمن أمن بالله ورسوله مُتِع بماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً). ثم يقوم من وفد تميم شاعرهم وهو

المسهم

الزبـرقان بـن بدر. وهنا ايضاً نجد الفرق كبيراً بين المعاني التي يذكرها الشاعر الذى لم يسلم بعد والمعاني التي يذكرها حسان في قصيدته، يقول الزبرقان :

نحـن الكـرامُ فـلا حيٌّ يعـادلنـا   مـنا المـلوكُ وفيـنا يُقسـم الـربعُ
وكـم قسـرنـا مـن الأحياء كلِّهم   عـند الـنهـاب، وفضـل العـزُ يتبعُ
ونحـن نطعم عند القحط مطعمنا   مـن الشـواء، اذا لم يؤنـس الفـزع

إلى آخـر الأبـيات الـتي يفخـر بها فخراً قبلياً قائماً على المكارم والمثل العليا التي يعـتد بها العربي، ولكن مقارنتها بقصيدة حسان توضح لنا توجيه الرسول الكريم ﷺ للشعراء وللحركة الشعرية بتسخيرهما لخدمة الدين الإسلامي.

لقد كان حسان غائباً، وأخبر بخبر القوم، وأن الرسول ﷺ يدعوه فقدم ويبدو أنه سمـع قصيدة الزبرقان فقال نقيضه يرد قول وضمنها فخراً بالقيم العربية أولاً والقيم والمبادئ الإسلامية ثانياً، أو بالأحرى وجه الفخر بالقيم العربية وجهة اسلامية، فقومه الذيـن يفخر بهم فضلهم كبير، لانهم آمنوا بالدعوة الجديدة، وهم يبينون سنة الدين، وهـم سبّاقون إلى الخير في فضـل احلامهـم متسـع. وهم عفيفون لا يصيبهم طمع، يخلصـون للصديق يحاربون العدو، وقد اعطوا رسول الله ﷺ ميثاقهم، وهم مطيعون لأوامـره، ملـبون لدعوتـه ويستمر فخـره مازجـاً بـين الفخر بالمثل العربية والمبادئ الإسلامية، مما يدل على تفهمه لما يراد من الشاعر في تلك الحرب القائمة بين المشركين والمسلمين :

إنَّ الذوائـب مـن فهـر وإخوتهم   قـد بيـنوا سـنةً للـناس تُـتبعُ

والمطلـع يـدل عـلى فخـره الإسلامي، فخره بجماعة المسلمين الذين يتبعون سنة الـنبي ﷺ وتدلنا تتمة الخبر على عظم مكانة الشعر في الدعوة الإسلامية، لأن قصيدة حسـان هذه قد تركت أثرها الكبير في نفوس بني تميم وكانوا قد سمعوا نمطا مثلها في خطبة ثابـت الخـزرجي. فقـال سيد بني تميم: (وأبي، إن هذا الرجل لمؤتّى له، لخطيبه أخطـب مـن خطيبـنا، ولشاعرُه أشعرُ من شاعرنا، وأصواته أعلى من أصواتنا). فلما فرغ القوم أسلموا[١٠١].

رفع المسابهم

وهكذا لانعجب اذا وجدنا خبراً آخر يذكر فيه ان الرسولﷺ بنى لحسان بن ثابت منبراً في المسجد ينشد عليه الشعر(١٠٢)، وهي مكانة كبيرة مابعدها مكانة. فالمسجد مكان تجمع المسلمين وصلاتهم، وكون حسان يبنى له منبر فيه دليل كبير على تقديره وتشجيعه، لانشاد الشعر الذي يحفّز الهمم، ويدافع عن الدين الكريم. ونفهم إعجابه ﷺ بشعر حسان المنافح عن الدعوة بقوله: هجاهم حسان فشفا واشتفى(١٠٣).

ونفهم مثل هذا التوجيه الكريم للشعر والشعراء من خلال رواية أخرى رواها عبد الله بن رواحة، وانه مر بمسجد الرسولﷺ فسمع نداء القوم، فعلم أنَّ الرسول ﷺ يدعوه. فانطلق إليه فسلم، فقال له الرسول ﷺ: هاهنا. فجلس : فقال وكأنه يتعجب من شعره: كيف تقول الشعر اذا قلته ؟ قال : انظر في ذلك ثم اقول. قال فعليك بالمشركين. قال : ولم اكن اعددت شيئاً وأنشدته:

فخبروني أثمان العباء متى … كنتم بطاريق أو دانت لكم مضر

قال : وكأني عرفت في وجه رسول الله ﷺ الكراهة إذ جعلت قومه اثمان العباء فقلت :

نجالِدُ الناسَ عن عِرض فنأسُرَهم … فينا النبي، وفينا تنزل السور
وقد علمتم بأنّا ليس يغلبنا … حيٌّ من الناسِ إنْ عزّوا وإن كثروا
يا هاشمَ الخيرَ إنَّ الله فضَّلكم … على البرية فضلاً ماله غَيرُ
إني تفرَّستُ فيك الخيرَ أعرفُه … فراسة خالفتهم في الذي نظروا
ولو سألتَ أو استنصرتَ بعضَهُمْ … في جُلِّ أمرك ما آووا ولانصروا
فثبَّتَ اللهُ ما آتاكَ من حَسَنٍ … تثبيتَ موسى،ونصراً كالذي نصروا

قال : فاقبل علي متبسماً. ثم قال : واياك فثبت الله.(١٠٤)

وهنا لابد من تحليل الرواية، إذ الرسول ﷺ ماكان يريد سؤال عبد الله بن رواحة على وجه الحقيقة كيف تقول الشعر ؟ وهل يسأل عربي كالرسول ﷺ مثل هذا السؤال لقد أراد الرسولﷺ أن يلفت نظر الشاعر إلى مايجب قوله، ولذلك ظهر عليه شئ من عدم الارتياح حين هجا الشاعر قريشا هجاء قبلياً، لأنه جعل ثمنهم رخيصاً

رفع المسابهم

كأثمان العباء، لا لأنهم قومه، ولكن حين تنبه الشاعر إلى مايجب قوله، وجدنا أبياته سائرة في نطاق الأدب الملتزم، فيفخر بلغة الجماعة دون أنَّ يخص بالفخر الأوس أو الخزرج، أو حتى قريشاً في الهجاء (نجالد الناس)، كما أن فخره نابع من نصرتهم للرسول ﷺ ونزول القران بينهم. أما بنو هاشم فإنّ فضلهم على الناس ليس لمكانة قبلية، وإنما لكون الرسول المبعوثﷺ منهم. لقد وثبت معاني الشاعر وثبة جميلة رائعة حين ربط بين نبوة محمدﷺ ونبوة موسى، توكيداً لدعوة الإسلام إلى وحدة الشرائع وبرسالة الانبياء الذين أرسلهم الله تعإلى لدعوة التوحيد.

أما الروايات التي ذكر فيها ان الرسولﷺ كان يغير ألفاظ بعض الأبيات اذا أنشدت أمامه فإننا نجدها لاتتجاوز معاني الفخر والمديح، وهي لا تخرج عن توجيهاته ﷺ للشعراء لتكون أشعارهم في إطار الدعوة الإسلامية ومثلها. فقد ذكر أن كعب بن مالك انشد الرسول ﷺ قوله:

ألا هل أتى حسانَ عنّا وعنهمُ　　من الارضِ خِرْقٌ غولُه متنعِنعُ
مجالدُنا عن جِذمنا كلَّ فخمةٍ　　مدربةٍ فيها القوانُس تلمعُ(١٠٥)

فغير الرسول ﷺ لفظة جذم إلى لفظ الدين، فتحول الفخر من الوجهة القبلية إلى الدينية، فيصبح الشاعر مفتخراً بالدفاع عن دينه، وليس عن أصله واصل قبيلته.

أما تغييره ﷺ لبيت كعب بن زهير في قصيدته المشهورة:

إن الرسول لنورٌ يستضاءُ به　　مهنّدٌ من سيوف الهند مسلول(١٠٦)

فغير الرسول ﷺ سيوف الهند إلى سيوف الله. والواقع ان اللفظة التي اعتمدها الشاعر هي مما اعتاد الشعراء ذكره في وصف السيوف الجيدة، ولا اعتراض على هذا إلا أن إضافة السيوف إلى لفظ الجلالة يحول البيت من مديح شخصي إلى مديح ديني، فالرسول ﷺ مرسل من الله، وهو السيف المشهور امام الباطل.

وأنشد الشاعر النابغة الجعدي قصيدة أمام الرسول ﷺ فلما بلغ قوله:

علونا السماءَ عِفَةً وتكرُّماً　　وإنّا لنبغي فوق ذلك مظهرا

سأله الرسول ﷺ : إلى أين يا أبا ليلى ؟ أي: اذا بلغتم السماء في فخركم

بكرمكم وعفتكم فماذا تبغون بعد السماء ؟ لكن الشاعر يجيب جواباً ينسجم مع توجيه الرسول ﷺ لجعل الشعر وسيلة من وسائل تجسيد العقيدة الإسلامية والدعوة اليها، فيهبط بالبيت من غلوه ومبالغته المفرطة إلى توجيه عقائدى إسلامي حين أجاب الرسول ﷺ قائلاً: إلى الجنة يارسول الله. فيقول له الرسول ﷺ قائلاً: إلى الجنة إن شاء الله [١٠٧] ولا نرى في هذه الرواية انكاراً لقول الشاعر قدر ما نحس توجيهه ﷺ لشاعر في فخره، و ألاّ يتجاوز الحد المعقول، ولكن الشاعر -في الواقع- كان ابن المدرسة التي وجهها الرسول ﷺ، فكان جوابه توكيداً لما تعلمه من أن ما يطلبه من فخر هو حقاً فوق السماء، إنها الجنة. وبذا أصبح فخره معقولاً وتمنيه مشروعاً، لأن قومه قد التزموا بمبادئ الأخلاق ودافعوا عن الإسلام.

أما سماع الرسول ﷺ للشعر الجيد الذى قيل قبل الإسلام فانه أمر طبيعي لطبيعة الحياة العربية آنذاك، وكون الشعر سجل الأمة آنذاك، ولأن الرسول ﷺ أفصح العرب يستهويه الشعر الجيد ويعجبه سماعه، وهو أمر لا يحتاج إلى تسويغ وبحث عن أسباب. لقد ذكروا أنه استنشد جماعة من المسلمين فى مجلسه، قيل أنهم كانوا من الخزرج، استنشدهم شعر قيس بن الخطيم، فأنشد قصيدة بائية، فأعجبه ﷺ فخر الشاعر بفروسيته، وسألهم ان كان الشاعر كذلك [١٠٨].

وأما سماعه لشعر أمية بن أبي الصلت فلابد أن يكون لما فيه من معاني التأمل والحكمة والتوحيد التي وردت على لسانه ولسان الأحناف، فذكر أنه ﷺ استنشد الرشيد بن سويد شعر أمية، فأنشده بيتاً وطلب الاستزادة، وكلما زاد يقول له الرسول ﷺ : هيه. وأخيراً قال : كاد ليسلم في شعره. وفي رواية: آمن شعره وكفر قلبه. [١٠٩] ولكن قصيدة أمية التي رثى بها قتلى المشركين ذكر ان الرسول ﷺ نهى عن روايتها [١١٠] ولم يذكر ابن سلام إلا بيتين منها وهما :

ماذا ببدر فالعقنقلِ ... من مرازبةٍ جحاجِحْ
هلاّ بكيتَ على الكرامِ ... بني الكرام أولى الممادحْ [١١١]

وابن اسحاق نفسه ذكر أكثر من بيتين لهذه القصيدة، ولكنه اشار إلى انه حذف بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله ﷺ [١١٢].

رفع المسابهما

ويشبه هذا الموقف ولكنه بسبب أخر – ماذكر من ان الطفيل بن عمرو السدوسي قرأ على الرسول ﷺ أبياتاً من الشعر كان فيها :

أسِلْماً على خَسْفٍ ولستَ بخالدٍ ... ومالي من راقٍ إذا جاءني حتمي
فلا سِلْمَ حتى تحفزَ الناسُ خيفةً ... ويصبح طيرٌ كانساتٌ على لحم

فأجابهم النبي ﷺ بان قرأ الاخلاص والمعوذتين (وذلك لما في هذا الشعر من روح جاهلية، تمجد ماكان في الجاهلية من نزاع قبلي).[١١٣]

وقد احتذى الخلفاء الراشدون بتوجيهات الرسول ﷺ في توجيه الشعر الوجهة التي لاتخالف الإسلام، والروايات في ذلك كثيرة هي اقرب إلى الدراسة النقدية منها إلى الدراسة الأدبية[١١٤].

أما ماقيل من أن لبيداً هجر الشعر عند ظهور الإسلام[١١٥]، وإن شاعريته قد توقفت أواخر أيام الخذيفة عمر[١١٥أ] وانه لم يقل غير بيت واحد كما يقول ابن قتيبة[١١٥ب] فهو أمر مردود لا بد من مناقشته، لأن كثيراً من الباحثين بنوا عليه احكاماً خلاصتها ان الإسلام حال بين الشعر والشعراء، أو أنه أضعف الحركة الشعرية، وهو الأمر الذى ناقشناه باستفاضة فيما سبق.

وقد اختلفوا في البيت الذى ادعوا أن لبيداً قاله في الإسلام فقيل هو :

الحمد لله إذ لم يأتِني أجلي ... حتى لبستُ من الإسلام سربالا

وهو بيت غير موجود في ديوانه، ألحقة المحققون فيما نسب إليه وإلى غيره. وهو منسوب إلى قردة بن نفاثة السلولي من معاصري لبيد، وصوّب ابن عبد البر نسته إلى قرادة [١١٦] وقيل إن البيت الذي قاله لبيد في الإسلام هو :

ماعاتب الحرَّ الكريمَ كنفسهِ ... والمرءُ يصلحُه الجليسُ الصالحُ

وقيل : بل البيت هو:

وكل امرئ يوماً سيعلم سعيَه ... إذا كُشِفَتْ عند الاله المحاصل[١١٧]

وهذا البيت من قصيدة طويلة قالها قبل الإسلام.

رفع المسلم

إن مقولـة هجـر لبيد قـول الشـعر اساسـها رواية تذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب كتـب إلى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة : أنْ استنشد مَنْ قِبلِك من شعراء أهل مصرك من الشعر ماقالوه في الإسلام، فارسل إلى الاغلب العجلي فقال له : أنشدني فقال:

لقـد سـألتَ هيِّـناً موجـودا   أرجَـزًا تـريدُ أم قصـيدا

ثـم أرسل إلى لبيد فقال: إنْ شئت أنْ أنشدَك ماقد عفى عنه، يعني شعر الجاهلية ؟ فقـال أنشـدني ممـا قلت في الإسلام، فانطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة، ثم جاء فقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر.

فكتب المغيرة بذلك إلى الخليفة عمر. فزاد عطاء لبيد، تقديراً لموقفه.[١١٨]

لقد فصل د. يحي الجبوري [١١٩] مناقشة هذا الخبر، ومابني عليه من دعوى هجر لبـيد الشـعر وأثبـت أن لبـيداً لم يـتوقف عن قول الشعر ولم يهجره. ففي شعره ثروة ليسـت هيـنة، ولا قلـيلة تتضح فيها الروح الإسلامية، وأن جواب لبيد السابق يفسر بأنـه عـرف مـا أراده الخلـيفة من الاطمئنان إلى إيمان الشعراء،وتمسكهم بعرى الدين، فأجـاب الخليفة الجواب الفطن. ونضيف إلى هذا التحليل أنه ربما كان لبيد في الساعة الـتي سـئل فـيها أن ينشـد شيئاً من الشعر كان في وضع نفسي غير مستعد فيه لإنشاد شـعر فكتب سورة البقرة، خاصة إنه كان قد مر عليه زمن في الإسلام، وفي شيخوخة المرء ما يحدُّ من نشاطه الفكري فكيف برغبته في إنشاد الشعر ؟

وقـد علـق ابـن حجـر العسـقلاني بعـد أن نـاقش رواية نفي نظم لبيد شعراً في الإسلام بقولـه: ويكون مراد من قال إنه لم ينظم شعراً منذ أسلم يريد شعراً كاملاً لا تكميلاً لقصيدة سبق نظمه بها [١٢٠].

إذن. يمكـن القول بكل ثقة ان الشعر في عصر صدر الإسلام كان في إطار حركة الدعوة وعنف المقاومة التي كانت بين المشركين والمسلمين، وما كان له ان يتوقف وهو حـياتهم الـتى اعـتادوا علـيها، وعـبروا بـه عن مواقفهم، ومشاعرهم. كل ماهناك ان الشـعر كـان شعر حاضرة غالبا، فلغته تختلف عن لغة شعر المعلقات التى تمثل الشعر فـى أوج نضـجه وجماله، وشعراؤه ليسوا الشعراء الفحول الذين يقاس شعرهم بشعر

رفع المسهم

من سبقهم، إنما هم شعراء حفزتهم الأوضاع المستجدة، ودفعهم ظهور الإسلام إلى قول الشعر مناصرين أو مناوئين. والدين الذي غيَّر مسار أمة وتفكيرها وسلوكها لابد ان يغير مسار الشعر. والدين الذى حرَّك في الأمة روح الجهاد والقتال في سبيل الله لابد ان ينشط الحركة الشعرية لتواكب هذا التغيير.

لقد كان لبدء النقائض بين المشركين والمسلمين أثره الكبير في تنشيط الأشعار، اذ توجه شعراء قريش وفيهم عبد الله بن الزبعرى، وأبوسفيان بن الحارث، وضرار بن الخطاب لهجاء المسلمين بابيات وقصائد، وتصدى لهم شعراء المدينة من المسلمين. ويلاحظ هنا ان النقائض التي كانت قائمة بين الاوس والخزرج في يثرب قد اختفت في الإسلام فتحولت إلى مناقضات بين مشركي قريش ومسلمي مكة من الانصار كما نجد نفثات الشعراء المسلمين تصدر في بيت أو بيتين أومقطوعة قصيرة أحياناً يصورون فيها مايعانونه من اذى المشركين في مكة، اويتشوقون فيها إلى أهليهم وديارهم بعد هجرتهم إلى المدينة، وتتعإلى هذه النفثات لتتحول إلى نفس طويل يعبر عن احداث تجري فتزلزل كيان المجتمع الإسلامي في المدينة. لقد قيلت نقائض طويلة وشعر كثير في معركة بدر تعزز النصر، ردّاً على الاعداء، مؤكدة أن النصر الذى أحرزه المسلمون إنما هو نصر للحق والدين، وأنه من الله تعالى، وبارادته.ونجد قصيدة كعب بن مالك الرائية مصورة لهذه المشاعر مؤكدة المبادئ الإسلامية :-

عجبت لأمر الله والله قادر   على ما أراد ليس لله قاهر

وبعد ان يصور تجمع المشركين وتصميمهم على محاربة الدعوة الإسلامية يجعل هذا التجمع موجهاً لقوة أعظم منه، إنها قوة الإيمان بالله ورسوله:

فلما لقيناهم وكلٌ مجاهد   لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأنَّ الله لاربَّ غيره   وأنَّ رسولَ الله بالحق ظاهر[١٢١]

وحين يتم النصر للمسلمين يعلن شاعرنا أن هزيمة الكفار نتيجة حتمية، فقد سبق ان أُنذروا، فلما عصوا حق عليهم عقاب الله فى الحياة الدنيا وفي الآخرة لهم عذاب مقيم.

أما في معركة أحد التي كان فيها النصر للمشركين، فان الشعر صور معاناة

المسلمين، اذ تعالت أصواتهم راثية قتلى المسلمين موجهة هذا الرثاء وجهة إسلامية، فالشعراء لم يقتلوا إلا بعد أن أدوا الرسالة كاملة وأطاعوا الله ورسوله في استبسالهم في سبيل الله، وقتلهم المشركين :

فما برحوا يضربون الكماة ويمضون في القسطل المرهج
كذلك حتى دعاهم مليكٌ إلى جنة دوحة المولج (١٢٢)

وأما وصف معركة أحد فقد أجاد فيها كعب بن مالك أيما أجادة حين وصف جيوش المشركين بأنهم كالبحر في كثرتهم وتدافعهم، وأن جيش المسلمين كان كبيراً بقوة المقاتلين لا عددهم (فقد ذكر انهم كانوا سبعمائة). لقد تجمع فيه خيار الناس وأشرافهم، وأنهم حتى في عودتهم كانوا ثابتي العزيمة كأنهم أسود :

فجئنا إلى موجٍ من البحر وسطَه أحابيشُ منهم حاسرٌ ومقنَّعُ
ثلاثةُ آلافٍ ونحن نصيّةٌ ثلاثُ مئينَ إنْ كثرنا وأربعُ
فراحوا سراعاً موجفين كأنَّهم جهامُ هراقتْ ماءَه الريحُ مقلعُ
ورُحنا وأخرانا تطانا كأننا أسود على لحمٍ ببيشةَ ظُلَّعُ (١٢٣)

ويستمر الشعر مواكباً الاحداث، مصاحباً الشعر في المعارك التي خاضها المسلمون حتى اذن الله لدينه ان ينشر، وان تحرر مكة، وتفتح فتقدم بعد هذا وفود القبائل العربية ويكون الشعر لسان حال شعرائها. ولكن الملاحظ أن الشعر بعد الفتح قد خف حماسه؛ لإعلان قريش إسلامها؛ ولتقاطر الوفود العربية معلنة إسلامها أيضاً. وشعر هؤلاء الوفود لم يتجاوز الأبيات والمقطوعات التي تعلن القبيلة على لسان شاعرها اسلامها.

اما بعد وفاة الرسولﷺ وماحدث من أحداث حروب الردة الكبرى فان صوت الشعر يتعالى مرة أخرى، محفزاً المسلمين على رد الحق إلى نصابه، ومعلناً براءة الشاعر المسلم من قومه المرتدين محرضاً قومه على الوقوف إلى جانب جيش المسلمين..وكل هذه المعاني المواكبة للاحداث سنحاول تتبعها في أشعار شعراء الدعوة أولاً، وأغراض الشعر في عصر الإسلام ثانياً.

رفع المسيّهم

هوامش الفصل الاول

١- تاريخ اداب اللغة العربية / جرجي زيدان ١ / ١٨١، تاريخ الأدب العربي / السباعي ٢١٣

٢- تاريخ الأدب العربي/بروكلمان ١/ ٣٩، تاريخ الشعر العربي/البهبيتي ١١٣، الشاعر الإسلامي تحت سلطة الخلافة ١٠،شعر العقيدة / أيهم القيسي ٤٠، مقالات فى تاريخ النقد ٣٨، صدر الإسلام / جورج غريب ١٢١.

٣- رسائل الجاحظ ٢/ ١٦٠.

٤- المزهر ٢ / ٤٧٠

٥- نفسه

٦- دراسات في الأدب الإسلامي/ العاني ١١

٧- شعر المخضرمين واثر الإسلام فيه ٤٢

٨- سورة النجم الاية ٤

٩- العمدة ١/ ٢١

١٠- أنظر مجاز القران ٢/ ٩١، تفسير الطبري ١٩/ ١٢٧-،١٣٠ (طبعة البابي الحلبي) الكشاف ٣/ ٣٤٣، تفسير ابن عطية ١١/ ١٦٣.

١١- الكشاف ٢ / ٤٤٠، المحرر الوجيز ١١/ ١٦٠) وانظر تفسير الحسن البصري ٢/ ١٨١، تعليق التعليق على صحيح البخاري ٥/ ١٠٨،فتح الباري ١٠٠/ ٥٣٧.

١٢- تفسير ابن كثير ٣ / ٣٠٢

١٣- الكشاف ٢ / ٤٤١ وانظر دراسات في الأدب الإسلامي ٢٥

١٤- وقد ذكر ابن حجر أن الخبر بشأن عبد الله بن رواحة ٤/ ٧٢، مسند الإمام أحمد: الأحاديث ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٥٣٥، ٨٣٥٧. دلائل الاعجاز الجرجاني ١٣، العمدة ١/ ٣١، وانظر hاثر القران في الأدب العربي ٦. ومعنى يريه : يقذفه ويردI.

١٥- فهرس البخاري ٣٦٨، مسند الإمام hحمد ١/ ١٧٥، سنن ابن ماجة، باب الأدب ٤٣، العمدة ١/ ٣٢.

١٦- مسند الإمام احمد ٢/ ٨

رفع المسهم

١٧- العمدة ١/ ٣١
١٨- الاجابة لايراد مااستدركته عائشة على الصحابة للزركشي : ٦٧ عن دراسات في الأدب الإسلامي ١٥
١٩- مسند الإمام hحمد ٢ / ٢٢٨
٢٠- العمدة ١/ ٢١٤
٢١- الشعر والشعراء ١ / ٢٢٦
٢٢- مسند الإمام احمد ٤ / ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥
٢٣- الشعر والشعراء ١ / ٤٥٩، النظرية النقدية / هند حسين طه ٦٤
٢٤- العمدة ٢ / ١٧٠، لسان العرب مادة (هدر)، الإسلام والشعر / الجبوري ١٥
٢٥- صحيح البخاري باب الانبياء ٢١٤
٢٦- العمدة ١ / ٣٠
٢٧- تفسير القرطبي ١٥ / ٥٢
٢٨- مسند الإمام احمد ٢ / ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٤، النهاية في غريب الحديث مادة (سحر) وفيه تفسير الحديث، وانظر العمدة ١/ ٢٧ جمهرة الامثال/العسكري ١ / ١٥، الجامع الصغير / الترمذي ١/ ١٦٩
٢٩- الجامع الصغير ١/ ١٦٩، جمهرة الأمثال، ١/ ١٥.
٣٠- تفسير الخازن / ٣٧٥.
٣١- الأدب المفرد / البخاري ١٢٥
٣٢- العمدة ١/ ٢٧
٣٣- الموطا : حسن الخلق ٨
٣٤- العمدة ١/ ٢٨
٣٥- الصحاح، لسان العرب مادة (جزل) وفيه: اللفظ الجزل: خلاف الركيك
٣٦- انظر الإسلام والشعر الجبوري ٦٢
٣٧- العمدة ١ / ٥٦ زهر الاداب ٢ / ١٠١.
٣٨- العمدة ١/ ١٢ وانظر شعر الصراع ٢٨.
٣٩- طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٥٩.

رفع
المسـ هم

٤٠- نفسه ١ / ١٣٦.

٤١- نفسه وهامش المحقق رقم (٣)

٤٢- نفسه ٢٤٠.

٤٣- الإصابة ٤٠/٧٦. الصحابي الشاعر، ١٣٨.

٤٤- رواية البيت في السيرة، بقباء، وكذا في المعاجم الجغرافية. ورجح محمود محمد شاكر محقق الطبقات ان تكون بقناة،لأن قباء موضع جنوب المدينة لايصلح ان يكون الموضع الذى حدثت فيه معركة احد، ولكنه قناة وهو أحد أودية المدينة. وقد خطا الشيخ حمد الحاسر هذا الرأي: انظر مبحث طبقات فحول الشعر/ تحقيق محمود محمد شاكر في كتاب مع الشعراء، دار اليمامة، السعودية.

٤٥- النصف هنا الانتصاف يقول: انهم قتلوا من المسلمين مثلما قتل المسلمون منهم يوم بدر، فانتصفوا أي: اخذوا حقهم.

٤٦- طبقات فحول الشعراء ٢٣٧ - ٢٣٩، والسيرة النبوية ق ٢ / ١٣٦

٤٧- ديوان حسان ٣٥٧

٤٨- سيرة ابن هشام ٢ / ٢٥٧

٤٩- ديوان حسان، ٥٧، يباب:خراب.

٥٠- الاستيعاب ٣/ ٩٠٢، وانظر الصحابي الشاعر عبد الله بن رواحة ٨٢.

٥١- طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٤٢، الاستيعاب ١ / ٣٥٦، الإصابة، ٤/ ٧٧.

٥٢- البلابل : شدة الهم، معتلج : متداخل.

٥٣- العيرانة : الناقة الصلبة النشيطة، وسرح اليدين : سهلة الحركة. سريعة. ورسوم: شديدة الوطء.

٥٤- طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٤٢ السيرة ق ٢/ ٤١٩، تاريخ الطبري ٣/ ٦٤، الإصابة ٤/ ٧٦. والبور الرجل الفاسد الذى لاخير فيه،والسنن: الطريق، والمثبور : الملعون.

٥٥- السيرة ق ٢/ ٤٢٩، الاستيعاب ٣/ ٩٣، وانظر الصحابي الشاعر٩٢.

٥٦- شرح ديوان حسان ٤٥٨، ٨٥

٥٧- ديوان كعب بن مالك ٢٢٧. تبجس الماء: إذا انفجر، يريد اكثرت هجاءه

٥٨- طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٤٣، الاغاني ٤ / ١٤٠.

٥٩- الطبقات الكبرى ٤/ ٤٩-٥٠.

٦٠- نفسه ١ / ٢٤٧.

٦١- نفسه.

٦٢- جمهرة أشعار العرب ١٤، وانظر الأدب في عصر النبوة ٢٥١.

٦٣- شرح ديوان حسان ٢١٧.

٦٤- نفسه.

٦٥- طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٤٨، شرح ديوان حسان ٣٤٩ - ٣٥١

٦٦- السيرة ق ٢ / ٢١٢

٦٧- الأبيات الثلاثة من قصيدة في ديوان حسان يشير فيها إلى القافلة التي كانت فيها تجارة لقريش فيها سبائك الذهب والفضة، قيل ان وزنها ثلاثين ألف درهم. وكان دليلهم فرات بن حيان فخاف فسلك طريق العراق، فبلغ ذلك الرسول ﷺ وارسل زيد بن ثابت في مئة راكب، فاصابوا القافلة وافلت اعيان القوم من المشركين. الطبقات لابن سعد ٢ / ٢٤-٢٥، طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٤٨، وذلك قبل معركة احد، وبعد بدر بنحو تسعة اشهر على ما حققه محمود محمد شاكر. الفلجات: جمع فلجة وهي المزرعة. الجلاد: الضرب بالسيوف. المخاض:النوق الحوامل.الأوارك: التي ترعي شجر الاراك.

٦٨- شرح ديوان حسان ٤٦٥.

٦٩- طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٥٠.

٧٠- الطبقات الكبرى٤/ ٥٢.

٧١- الاستيعاب ٤/ ١٦٧٥.

٧٢- نفسه ٣/ ٩٠٢، الإصابة الترجمة (٢٥٦١).

أ- ديوان ضرار بن الخطاب الفهري. تحقيق فاروق إسليم بن أحمد. دار صادر بيروت، ١٩٩٦.

ب- طبقات فحور الشعراء ٢٠٩.

٧٣- ديوان حسان: ١٩٢.

رفع المسهم

٧٤- السيرة ق٢/ ١٤.

٧٥- نفسه ق٢/ ١٤٦، والنجيع العانك: الدم القاني. ويفارق الجوف الحدق: أي حتى يقتل، وتفارق عينه جسده.

٧٦- طبقات، فحول الشعراء ١/ ٢٥٠-٢٥٣.

٧٧- الاستيعاب ٢/ ٥٩٧-٥٩٨.

أ- ينظر ديوانه ١٩.

ب- نفسه والطبقات الكبرى ٧/ ٤٠٧.

ج- مروج الذهب ٣/ ١٦، ديوانه ١٩.

٧٨- طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥٥.

٧٩- نفسه والرزام: الرجل يثبت في مكانه شدته في الحرب. ومعنى إسلام هنا من أسلم أخاه: إذا خذله وترك نصرته.

٨٠- المحرر الوجيز ١١/ ١٦٠، تفسير القرطبي ١٣/ ١٥٢.

٨١- السيرة ق٢/ ٣٤.

٨٢- البيتان الأولان فقط من طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥٧. ويقصد بالنخيل: المدينة، لكثرة النخيل فيها. وانظر السيرة، ق٢/ ١٢٩-١٣٠. والربد: النعام، والأداحي جمع إدحية وهو بيضها.

٨٣- السيرة ق٢/ ١٢٤.

٨٤- نفسه ١ / ٢٥٥.

٨٥- شرح ديوان حسان ٤٨٥.

٨٦- طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥٥.

٨٧- أنساب الإشراف ١/ ١٥٦.

٨٨- شرح ديوان حسان ١٢٨. الرئال ولد النعامة الرزح جمع رازح وهو الشديد الهزال.

٨٩- ولحسان شعر يرد فيه على عمرو بن العاص٢٠٧، وشعريهجو به أبا جهل، ويذكر الشعراء المشركين الذين تصدوا له. شرح ديوانه ٤٠١

٩٠- السيرة ق ٢/ ٥٢، تاريخ الطبري ٢/ ٤٨٩.وانظر عنه تاريخ الأدب العربي/

رفع المسيهما

بلاشير ٣٤٤.

٩١- المغازي ١٨٦.

٩٢- طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٨٣.

٩٣- السيرة النبوية ق ١/ ٥٠١، اعجاز القران / الباقلاني ١٣٠. والآية من سورة يوسف٩٢.

٩٤- العقد الفريد ٦ / ١٢٠

٩٥- الإسلام والشعر / الجبوري ١٠٤

٩٦- الاغاني ٤ / ١٣٠ - ١٣١

٩٧- الشعر والشعراء ١/ ٣٠٥.

٩٨- طبقات فحول الشعراء ١ / ٢١٧

٩٩- مسند الإمام أحمد ٦ / ٣٨٧، الاستيعاب ٣ / ١٣٢٥

١٠٠- مسند الإمام أحمد الأحاديث المرقمة ١٨٦٠٣، ١٨٤٣٥، ١٨٥٤٩، ١٨٥٨٦، الجامع الصغير ٢./ ٢٠٩، صحيح البخاري ٢٢، طبقات فحول الشعراء ٢/ ٢١٧، ديوان كعب/ ٧٢.

١٠١- السيرة النبوية ٤ / ٢١٤ ، مؤتّى من قولهم : تأتّى له أمره: اذا تسهلت له طريقته، تاريخ الطبري ٣/ ١١٥-١١٦.

١٠٢- نفسه

١٠٣- نفسه تفسير الخازن ٣٧٥.

١٠٤- الطبقات الكبرى، ٣/ ٢٨٥، الاستيعاب ٣/ ٩٠٠. طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٢٦

١٠٥- السيرة النبوية ق ٢ / ١٣٣، ديوان كعب بن مالك ٢٢٢، والغول : الطريق، والخرق: المفازة، ومتنعنع: مضطرب.

١٠٦- الشعر والشعراء ١/ ٢٤٨ العقد الفريد ٥ / ٢٧٦ الإسلام والشعر/الجبوري ٥٧

١٠٧- نفسه

١٠٨- الاغاني ٣ / ٨٧.

١٠٩- خزانة الأدب ١/ ١٢٠

١١٠- تاريخ الأدب العربي / بروكلمان ١ / ١١٣، وانظر في تحقيق مانسب لامية

رفع المسهم

ولغيره من الشعر في أمية بن أبي الصلت لبهجت الحديثي ص ١٢٤

١١١- طبقات فحول الشعراء ١ / ٦٣. المرازبة والجحاجح: هم السادة. والعقنقل كثيب رمل ببدر. والممادح: ما يمتدح به. وذكر محمود محمد شاكر أن صاحب الاغاني ٤/ ١٢٣ زعم أن رسول الله نهى عن روايتها.

١١٢- السيرة ق ٢ / ٣٢.

١١٣- عصر النبوة ٢٢٢.

١١٤- يراجع في هذا كتابنا (محاضرات في تاريخ النقد عند العرب) ص ٤٤ فما بعدها.

١١٥- قال بهذا بلاشير في تاريخ الأدب العربي ٣٠٥، وانظر مقدمة حنا نصر الحتي لديوان لبيد/ ١٥ ١٥.

أ- لبيد بن ربيعة / إحسان عباس ٢٧-٢٩.

ب- الشعر والشعراء ٢٧٥-٢٧٦.

١١٦- الاستيعاب ٣/ ١٢٣٥، لبيد بن ربيعة ٢٧٩.

١١٧- لبيد بن ربيعة ٢٧٩، ديوان لبيد شرح الطوسي ٢٨٤، وانظر الاستيعاب ٣/ ١٣٣٥.

١١٨- الاستيعاب ٣/ ١٢٣٥.

١١٩- لبيد بن ربيعة.٢٧٩

١٢٠- الإصابة الترجمة، رقم ٧٥٥٧.

١٢١- ديوان كعب بن مالك ٢٠٠

١٢٢- نفسه ١٨٨

١٢٣- نفسه ٢٢٢، طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٠

رفع المسار

الفصل الثاني

دراسة تفصيلية لبعض شعراء العصر

١-دراسة تفصيلية لشاعرين من شعراء الدعوة الإسلامية

أ- حسان بن ثابت.

ب -عبد الله بن رواحة.

٢- دراسة تفصيلية لشاعرين قل تأثرهما بالإسلام

أ- الحطيئة.

ب- متمم بن نويرة .

رفع
المسيَّهم

١- دراسة تفصيلية لشاعرين من شعراء الدعوة الإسلامية:

أ- حسان بن ثابت:

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي، كان أبوه من سادة قومه وأشرافهم وكان الحاكم بين الأوس والخزرج في يوم سميحة، وهو من أيامهم المشهورة[١]. حدد بعض الباحثين سنة ولادته بعام ٥٦٣م[٢]. اعتماداً على مقولة سعيد بن عبد الرحمن بن حسان الذي ذكر أن عمر جده كان ثلاثاً وخمسين سنة عند مقدم الرسول ﷺ. وكان لقبيلته شأن كبير قبل الإسلام وبعده حين نصروا رسول الله ﷺ وآزروه. وكان شعر حسان لسان حال قومه، يفخر بهم، ويعدد أمجادهم، ويعلي شأن رؤسائهم وفرسانهم في الجاهلية . وقد وصل إلينا من شعره الجاهلي شعر كثير إذا قسناه بما وصل إلينا من شعر عبد الله بن رواحة مثلاً كما أن ما وصل إلينا منه يعد كافياً - إلى حد ما- بحيث يمكن موازنته بمجموع شعره.

كانت لحسان قبل الإسلام أشعار قائمة على الفخر والمديح معاً، شأنه في ذلك شأن الشعراء العرب الذين تغنوا بأمجاد قبائلهم، وفخروا بدورهم في إعلاء شأنها والإسهام في سيرورة أمجادها بين القبائل.

يذكر ابو الفرج الأصفهاني أكثر من رواية تبين أن أول اتصال حسان بالغساسنة كان بعمرو بن الحارث الغساني أو جبلة بن الأيهم الغساني، وإنه تمَّ بحضور النابغة الذبياني وعلقمة الفحل وأن الممدوح حين سمع قصيدتيهما عرض على حسان أمرين: أنْ ينشد كما أنشدا، أو يسكت، وآثر حسان أن ينشد، فأنشد قصيدته التي مطلعها:

أسألتَ رسمَ الدارِ أم لم تسألِ ... بين الجوابي فالبُضيعِ فحوملِ

وحين انتهى منها علق الأمير الغساني بأن قصيدة حسان ليست دون قصيدتي النابغة وعلقمة، أو أنه قال: هذه والله البتّارة التي قد بترت المدائح.[٣]

ومن يراجع علاقة حسان بالغساسنة يشعر بصدق مدائحه في كثير من قصائده، ولعل صلة القرابة التي تربطه بهم عكست صدق فخره بقومه ومديحه لهم، وقد ترك

رفع المسـاهم

جمال دمشق أثره في شعر حسان الذي قاله في الغساسنة. وكان طبيعيا أن يترك هذا الجمال أثره في نفسه، وأن تطلق الخمر لسانه، فيتغنى بما رأى ما شاء الله أن يتغنى في شعر هو صورة لما أحيط به من جمال وعذوبة لفظ، وزين جرس، وروي موسيقى، ورقة غزل، وإبداعٍ في الخمريات والوصف[٤]. والواقع ان هذا الوصف الجميل لشعر حسان يصدق على بعض أشعاره التي قالها قبل الإسلام، وان خلت أشعاره الأخرى منها، وتفاوتت بين الجمال والنظم والإبداع في الوصف إلى التقرير والأوصاف الجامدة والركة في التعبير وما إلى ذلك مما سنحاول الوقوف عنده في مقارنة أشعاره الجاهلية والإسلامية.

وقد قيل إن لحسان أشعارا في المناذرة لثبوت الأخبار التي وصفت وفوده عليهم[٥]. وليس في ديوانه ولا فيما نسب إليه من شعر شئ أفرده لمدح النعمان أو المنادرة عامة كما كان يفعل مع الغساسنة، وهذا مما يدعو إلى الظن بأن شعره فيهم قد تناوله الضياع[٦] حتى أبياته التي ذكر أنها قيلت في فخره بفك أسير من قومه لدى الغساسنة[٧] نرجح كونها من شعره الإسلامي لأن محقق الديوان - البرقوقي - علّق عليها بقوله: (وقال رضي الله عنه لرجل من الأنصار أسرته غسان يقال له أبي)[٨].

ويدخل حسان بن ثابت الإسلام ولا نعرف بالضبط سنة إسلامه، إلا أن اسم أخيه أوس بن ثابت يرد ضمن من شهد بيعة العقبة الثانية من الأوس والخزرج[٩]: ويذكر له أول ما قاله من شعر رادا فيه على ضرار بن الخطاب الذي فخر باسره سعد بن عبادة بعد بيعة العقبة الثانية:

تداركتَ سعدا عنوة فأخذتَه — وكان شفاء لو تداركتَ منذرا
ولو نلته طُلّتْ هناك دماؤه — وكان حريا أن يهانَ ويُهدرا

وقد كان سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو من نقباء قومهم في تلك البيعة، فلحقت بهم قريش وأسرت سعدا وربطت يديه إلى عنقه، وادخل مكة وعذب وضرب. وأما المنذر بن عمرو فقد هرب منهم ونجا . وهنا يرد حسان على ضرار في اول شعر قاله في الإسلام:

رفع المسهم

لست الى عمرو ولا المرء منذر إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمَّرا
ولولا أبو وهب لصرَّتْ قصائد على شرف الورقاء يهوين حسَّرا
فانا ومن يهدي القصائد نحونا كمستبضع تمرا إلى أهلِ خيبرا (١٠)

إلى آخر الأبيات التي يفخر فيها بشعره، ويرد على ضرار فخره بأسره سعدا، ولم يتجاوز هذه المعاني إلى الأفكار الإسلامية الجديدة التي آمن بها . بعد هذا الحادث نستطيع أن نتابع أشعار حسان متابعة تاريخية من خلال التعليقات التي سبقت أشعاره، ودلت على زمن قوله أو من خلال إشاراته إلى الحدث الذي اقتضى أن يقول فيه الشعر. وقد بدا فيها حسان مشغولا شغلا تاما بالدعوة الإسلامية يرد على شعراء المشركين ويهجو فعالهم ويفخر بالمآثر الإسلامية، يخلد انتصارات المسلمين، ويمدح الرسول ﷺ مديحا يربأ به أن يكون مديحا شخصيا غالبا، إنما جعله قرين الوحي والنبوة والرسالة الخالدة.

وقد عرف الرسول ﷺ مكانة حسان وشعره ودوره في الرد على المشركين حين خاطب الأنصار بقوله: ما يمنع القوم الذي نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال: حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه، وقال : والله ما يسرني به مِقوَل بين بصرى وصنعاء، ولو شئت لفريت به المزاد، فقال: كيف تهجوهم وأنا منهم؟. فقال: إني أسلُّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين. قال: فأذهب إلى أبي بكر، فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم واهجهم وجبريل معك. (١١)
ويكفي حسان فخرا ومكانة أن جعل رسول الله شعره معضدا بالوحي وبجبريل، وبروح القدس بيانا لمكانته ودفاعه عن الدعوة الإسلامية. وفي ديوانه قصائد يرد فيها على المشركين، كقوله رادا على أبي سفيان بن حرب في فخره بقتل رجال من المسلمين في أحد، ومجيبا هبيرة بن أبي وهب المخزومي بقوله:

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم إلى الرسول فجند الله مخزيها (١٢)

وله قصائد يرد فيها على عبد الله بن الزبعرى وأبي سفيان بن الحارث. وقصيدة حسان الهمزية تمثل رائعة من روائع شعره الحماسي الذي استطاع من خلاله أن يعيش حدث الفتح الإسلامي بعاطفة وحماس كبيرين يكاد ينسيك ما اتهم به من جبن

رفع المسهم

أو عدم مشاركة في القتال الفعلي،[١٣] مما سنعرض له في تحليل القصيدة .

وإذا كان حسان في أهاجيه قد جمع بين شتم قريش بقيم ما قبل الإسلام، وتسفيه رأيها بالمبادئ الإسلامية، فإنه في الرثاء بدا صادقا في دعم الدعوة الإسلامية من حيث ربطه بالمفاهيم الإسلامية الجديدة التي تحول حرقة بكاء فراق القتلى الى بشر بفوزهم بالجنة وحزن على فراق موقت حيث يجمع الله تعالى المؤمنين يوم الحساب . من ذلك رثاؤه لقتلى مؤتة الذي يقول فيه:

تأوَّبني ليلٌ بيثرب أعسَر ... وهمٌّ إذا ما نوَّم الناس مُسهرُ
لذكرى حبيبٍ هيَّجتْ ثمَّ عبرةً ... سَفوحًا وأسبابُ البكاء التذكرُ
بلاءُ وفقدانُ الحبيبِ بليةٌ ... وكم من كريمٍ يبتلى ثم يصبرُ

ويذكر بعد هذه المقدمة الشهداء الذين وقعوا في هذه المعركة، فسبقوه الى الموت المقدر المكتوب :

رأيت خيارَ المؤمنين تواردُوا ... شعوب وقد خُلّفت فيمن يؤخر
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر

إلى أن يقول:

فصار مع المستشهدين ثوابُه ... جنانٌ وملتفُ الحدائقِ أخضرُ
وكنا نرى في جعفرٍ من محمد ... وفاءاً وأمرا حازما حين يأمر
فما زال في الإسلام من آلِ هاشمٍ ... دعائمُ عزٍّ لا تُرامُ ومفخر[١٤]

أما مراثيه لرسول الله ﷺ فقد أخذت طابعا اخر، انها تمثل حزناً حقيقيا لفقد النبي الموجه لحياة المسلمين جميعاً، والمرشد الموجه لحسان نفسه، ففقده إن كان قد عمّ المسلمين حقا، فقد ترك في نفس حسان فراغا كبيرا حين كان يجعل شعره شغله الشاغل بين يدي رسول الله ﷺ فضلا عن وصفه الرائع للفراغ الذي أحس بهوله المسلمون جميعا. فموت الرسول ﷺ انقطاع عن الوحي وحامل الرسالة .... وإذا كان حسان قد ذكر الرسوم في مطلع مراثيه فإنها رسوم وأطلال تختلف عن رسوم الناس الآخرين، لأنَّ آياتها خالدة، ولكنها في الوقت نفسه تجدد الحزن عليه :

بطيبةَ رسمٌ للرسول ومعهَدٌ ... منيرٌ وقد تعفو الرسومُ وتهمَدُ
ولا تنمحي الآياتُ من دار حرمةٍ ... بها منبر الهادي الذي كان يصعَدُ
وواضحُ آياتٍ وباقي معالمٍ ... وربعٌ له فيه مصلّى ومسجدُ
بها حجراتٌ كان ينزلُ وسطَها ... من الله نورٌ يستضاءُ ويوقد
معالُم لم تُطمَسْ على العهد آيُها ... أتاها البلى فالآي منها تُجدَّد

وحين يهم بتعداد مآثر الرسولﷺ يشعر بتبلد نفسه وحيرتها فيما تذكره وتعدده، لان مآثره ﷺ أكثر من أن تحصى ..

وإذا كان المسلمون قد غيبوا جسده الشريف في القبر فإنما يغيبون خلقا عظيما من الحلم والعلم والرحمة، ومن ثم فالحزن عام شمل جميع المسلمين شهدته السموات والأرض:

ظللتُ بهآ أبكي الرسولَ فأُسعدت ... عيونٌ ومثلاها من الجفن تسعد
تذكر آلاءِ الرسول وما أرى ... لها مُحصياً نفسي، فنفسي تبلَّدُ
مفجَّعةٌ قد شفَّها فُقد أحمد ... فظلَّت لآلاءِ الرسول تعدد

إلى أن يقول :

لقد غيبوا حلما وعلما ورحمةً ... عشية علَّوْه الثرى لا يوصد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهورٌ وأعضُد
يُبكُون من تبكي السموات يومه ... ومن قد بكته الأرضُ فالناسُ أكمدُ

ويستمر في هذه القصيدة في رثاء الرسول ﷺ جامعا بين شعوره الشخصي بالحزن عليه، والشعور الجماعي بفقد النبي الهادي، معددا صفات القيادة التي اتسم بها الرسول ﷺ والتي وجه فيها المسلمين في حياتهم الدينية وسلوكهم اليومي، خاتما قصيدته بأمله الكبير باللقاء به ﷺ يوم البعث في جنة الخلد التي وعد بها المتقون :

وليس هوائي نازعا عن ثنائه ... لعلي به في جنة الخلد أخلَدُ
مع المصطفى أرجو بذاك جواره ... وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهدُ[١٥]

وهكذا يستمر حسان بن ثابت في قصائده الأخرى الرائية للرسولﷺ مؤكدا

رفع المستهام

نوازعه الثلاثة، ألم شديد لفراق الرسولﷺ، وشموخ خلقه، وخلود الرسالة التي حملها وبـيان عاطفـته، ولهفته في أن يلقاه في الجنة مصورا عبر ذلك حزن المجموعة الإسلامية والفراغ الذي أحس به المسلمـون حين فوجئوا بموتهﷺ .

أمـا مكانـة شعر حسان من الناحية الفنية فقد ذكرت فيه أقوال كثيرة قديمة وحديثة وبنيت عليها آراء نقدية لعل أهمها ماله صلة بضعف لغة الشعر في الإسلام أو قوتها.

قـال أبـو عبـيدة: فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي ﷺ في النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام.

ونـص أبـو عبـيدة على تفضيل حسان على شعراء الحضر، وهو رأى ابي عمرو بن العلاء أيضا.

قال أبو عمرو بن العلاء : (اشعر أهل الحضر حسان بن ثابت)

وقال أبو عبيدة : أجمعت العرب على أن حسانا اشعر أهل المدر[١٦]

أمـا ابـن سـلام فقد عد فحول المدينة الخمسة أو هم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وقيس بن الخطيم وأبو قيس بن الاسلت .وأشعرهم حسان ابن ثابت وقال عنه : هو كثير الشعر جيده. وقد ذكر ابن سلام مقالة أحدهم بوصف بيـت قالـه حسـان بأنـه لو مزج به مـاء البحر لمزجه،[١٧] وتابعه على ذلك أبو الفرج الاصفهاني.[١٨]

أمـا الأصـمعي فقـد ذكـر عنه أكثر من رأى عن حسان سبَّب نقاشا وخلافا بين الباحـثين، فقـد ذكر عنه أنه وصفه بأنه أحد فحول الشعراء ولكننا إذا راجعنا رسالته المسـماة بفحولـة الشعراء لم نجد فيها ذكرا لحسان بن ثابت، ومع ذلك نجد محاورة بينه وبين أبى حاتم السجستاني الذي يروي عنه كتابه فحولة الشعراء يذكر فيها الأخير أنَّ في أشعار حسان لينا، فيجيبه الأصمعي: تنسب إليه أشعار لا تصح عنه. وهذا يعني أن بعض أسباب الضعف والركة في شعر حسان مردها إلى شعره الموضوع عليه. وقد أكد هذه الفكرة ابن سلام أيضا حين أشار إلى كثرة الوضع على شعر حسان.

وذكـر رأي آخـر عـن الأصـمعي وهـو تمـييزه بـين شـعر حسان الذي قاله قبل

رفع المسهم

الإسلام وبعده، فهو يرى أنَّ شعر حسان قبل الإسلام من أجود الشعر ... وهذا يعني أن شعره في الإسلام اقل منه جودة. فإذا بحثنا عن سبب ذلك برأي الأصمعي وجدناهم ينسبون إليه تعليلا مفاده: (الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان ألا ترى أنَّ حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي وحمزة وجعفر وغيرهم لان شعره. وطريق الشر هو طريق الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحلة والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار، فإذا أدخلته في باب الخير لان)[١٩].

أنَّ أهم ما يمكن إن نناقش به هذا النص أن صحت نسبته إلى الأصمعي ما يأتي :

لم يكن شعر حسان قبل الإسلام في باب الشر حتى يقال إنه علا في الجاهلية فإذا دخل في خير الإسلام لان، لأنه لم يؤثر عن حسان اشتراكه في حروب قومه، وقوة شعره تبعا لذلك، لان حياة حسان قبل الإسلام كانت حياة وادعة مترفة، حياة شاعر يسكن الحضر فهو بين يثرب ودمشق وما في المدينتين من ترف واستقرار يؤديان بالتأكيد الى سلاسة لغته الشعرية .

٢- أن شعر حسان الذي قاله قبل الإسلام لم يكن على نمط واحد، لم يكن كله بمستوى الإبداع والجودة الذي قد نتخيله اذا سمعنا برأي الاصمعي، إنما شعره متفاوت بين الجدة والإبداع والركة والسهولة، وكذا كان شعره الإسلامي. وانك لتجد الفرق كبيرا من حيث الجزالة وخفة الألفاظ وجمال التصوير وتتابع المعاني الواردة في قصيدته اللامية التي قالها قبل الإسلام وبين قصيدة أخرى قالها في الوقت نفسه يرد على قيس بن الخطيم . يقول حسان في رائعته الأولى :

لله درُّ عصابةٍ نادمتُهمْ	يوما بجلّق في الزمان الأولِ
يمشون في الحُلَل المضاعف نسجُها	مشيَ الجمال إلى الجمال البزَّل
الضاربون الكبشَ يبرقُ بيضَه	ضربا يطيح له بنانُ المفصل
والخالطون فقيرَهمْ بغنيهِم	والمنعمون على الضعيف المُرمِل
أولادُ جَفنةَ حول قبرِ أبيهمُ	قبرِ ابن مارية الكريم المفضل
يُغشوْن حتى ما تهرُّ كلابُهم	لا يسألون عن السواد المقبل[٢٠]

ويستمر على هذا النمط الجميل من التغني بالفخر بقومه ومديح الغساسنة الذين يفخر بصلته بهم أيضا، حتى ليكاد كل بيت من أبيات القصيدة أن يشمخ بنفسه رقة وجمالا وتصويرا .وقد وصف ابن سلام هذه القصيدة بأنها من شعره الرائع الجيد (٢١)

فإذا قارنت هذه القصيدة بأخرى قالها رادا على قيس بن الخطيم وجدت بونا واسعا وفرقا كبيرا في اللغة الشعرية وبنية القصيدة وأخيلتها، مما يجعلنا نؤكد كون حسان بن ثابت من الشعراء الذين تفاوتت أشعارهم اجادة وإبداعا وانحطاطا أو ضعفا وهذه ملاحظة تصدق أيضا على شعره الإسلامي الذي تجد فيه صدق عاطفة وجمال تعبير وحلاوة عبارة ترفع أشعاره إلى درجة الفحول من شعراء الإسلام، وتجد أبياتا أخرى دون ذلك أو فلنقل أبياتا اتسمت بالركة والضعف لغة وأسلوبا وخيالا. ولا دخل في ذلك لمسألة كون شعره في الإسلام قد ضعف بسبب افتقاده الكذب والتزيف.

٣- إن كثيرا من أشعاره التي بدت ضعيفة ركيكة يمكن ان تدرج تحت الشعر الموضوع الذي نص القدماء على كثرة وضعه على لسان حسان لسبب من اسباب الانتحال المعروفة (٢٢)

٤- أن الدراسة التحليلية لمراثي حسان في الرسول ﷺ أو في شهداء المسلمين تؤكد خلاف رأي الأصمعي، لأننا وجدنا في بعضها صدقا في العاطفة، واندفاعا في تسخير هذه المراثي في سبيل الدعوة الإسلامية، وهذا مبدأ ما كان يدفع حسان في مراثيه التي قالها قبل الإسلام، والتي بدا بعضها خاليا من الروح والعاطفة .

٥- يضاف إلى كل هذا أن التفاوت في شعر حسان مرده إلى طبيعة الدعوة الإسلامية التي عاشت ظروفا صعبة ومختلفة جعلت الشعر أحد وسائلها، وقد عرف عن حسان انه كان يرتجل في كثير من المواقف، وهذا الارتجال قد يبدع فيه حسان أو قد لا يتجاوز فيه النظم والرد على المشركين، فمقتضيات الأمر تتطلب منه الوقوف إلى جنب المسلمين والدفاع عنهم إزاء أبيات قيلت فيهم. قد يصيب فيها حسان في الإجادة الفنية أو قد يخطأ، ولكنه يبقى ملتزما فيما وجه إليه، مما جعل شعره سلاحا بنّاء يخدم الدعوة والمسلمين .

رفع المسيهم

قصيدة وتحليل

قال حسان بن ثابت :

عَفَتْ ذاتُ الأصابعِ فالجواء
إلى عذراءَ منزلُها خلاءُ [٢٣]

ديارٌ من بني الحَسْحاس قَفْرٌ
تعفِّيها الروامسُ والسماء [٢٤]

وكانتْ لا يزالُ بها أنيسٌ
خلال مُروجِها نِعمٌ وشاء [٢٥]

فَدعْ هذا ولكنْ مَنْ لِطيفٍ
يؤرقني إذا ذهبَ العشاء [٢٦]

لشعثاءَ التي قد تيَّمتْهُ
فليس لقلبه منها شفاء

كأنَّ سبيئة من بيت رأسٍ
يكون مزاجَها عسلٌ وماء [٢٧]

على أنيابها أو طعم غض
من التفاح هصَّره الجناء [٢٨]

إذا ما الأشرباتُ ذُكِرنَ يوما
فهنَّ لطيِّبِ الراح الفداء [٢٩]

رفع المسيّهم

نُولِّـيها الملامـةَ إن ألَمْـنا
إذا مـا كـانَ مَغْـثٌ أو لحـاء (٣٠)

ونشـربُها فتتركـنا مُلوكًـا
وأسْـدًا مـا ينهـنِهُها اللقـاء (٣١)

عَدمـنا خيلَـنا إنْ لم تـروها
تـثيرُ الـنقعَ موعدُهـا كَـداء (٣٢)

يـبارين الأعِـنَّـةَ مصـعِداتٍ .
عـلى أكـتافِها الأَسَـلُ الظّمـاءُ (٣٣)

تَظَـلُ جـيـادُنا مـتمطراتٍ
تلطِمُهـنَّ بالخُمُـرِ النسـاءُ (٣٤)

فأمّـا تُعرضـوا عـنا آعـتمَرْنا
وكـان الفـتحُ وانكشـفَ الغطـاء (٣٥)

وإلا فاصـبروا لِجـلاد يـومٍ
يعـزُّ اللهُ فـيـه مَـن يشـاء

وجـبريلٌ أمـينُ الله فيـنا
وروحُ القـدسِ لـيس له كفـاء (٣٦)

وقـال الله قـد أرسـلتُ عـبداً
يقـول الحـقَّ إنْ نفـعَ الـبلاء

شَـــهِدتُ بـــه فقومـــوا صـــدّقوه
فقلـــتمُ: لا نقـــوم ولا نشـــاء

وقـــال الله: قـــد يسّـــرتُ جـــندا
هُـــم الأنصـــارُ عُرضـــتُها اللقـــاءُ (٣٧)

لـــنا في كـــلّ يـــومٍ مِـــنْ معـــدّ
ســـبابٌ أو قـــتالٌ أو هجـــاءُ (٣٨)

فـــنحكم بـــالقوافي مَـــنْ هجانـــا
ونضـــربُ حـــين تخـــتلِطُ الدّمـــاءُ (٣٩)

الا أبلـــغْ أبـــا ســـفيان عـــنّي
فأنـــتَ مجـــوّف نخِـــب هـــواءٌ (٤٠)

بـــأنّ ســـيوفَنا تركـــتَكَ عَـــبْدًا
وعـــبدُ الـــدارِ ســـادتُها الإمـــاء

هجـــوتَ محمـــداً فأجبـــتُ عـــنه
وعـــند الله في ذاك الجـــزاء (٤١)

أتهجـــوه ولســـتَ لـــه بكُـــفءٍ
فشـــرُكما لخيركمـــا الفـــداء (٤٢)

هجـــوَت مـــباركا بَـــرًّا حنـــيفا
أمـــينَ الله شـــيمتُه الـــوفـــاء

رفع المسهم

فمــن يهجــو رســولَ الله مــنكم
ويمدحُــــه وينصُــــره ســــواء

فــإنَّ أبــي ووالــده وعِرضــي
لعــرضِ محمــدٍ مــنكم وِقــاءُ (٤٣)

فإمــا تــثقفنَّ بــني لــؤي
جذيمــة إنَّ قــتلَهُمُ شــفاء

أولــئك معشــرٌ نصِــروا عليــنا
ففــي أظفارِنــا مــنهم دِمــاء (٤٤)

وحلــف الحــارثِ بــن أبــي ضِــرار
وحلــف قــريظةٍ مــنّا بــراء (٤٥)

لســاني صــارم لا عيــبَ فــيه
وبحــري لا تكــدِرَهُ الــدلاء (٤٦)

التحليل والنقد:

- **جو القصيدة :**

ورد في إحدى نسخ ديوان حسان أنه قال هذه القصيدة قبل فتح مكة يهجو أبا سفيان بن الحارث (٤٧) وقال بعضهم أنها أول ما جرى به لسان حسان حين سلّه على قريش. (٤٨)

وهناك من ذكر أنها قيلت يوم فتح مكة (٤٩) وربما كان هذا القول معتمداً على عبارة وردت في السيرة النبوية ... وكان مما قيل من الشعر في يوم الفتح قول حسان بن ثابت (٥٠). وهذا القول غير كاف لأن ابن هشام ذكر بعد رواية القصيدة مايؤكد قول حسان لها قبل الفتح قائلا : قالها حسان قبل يوم الفتح. (٥١) ويبدو أن عبارة ابن هشام الاولى-أراد بها ما أنشد يوم الفتح، فقد قيل ان الرسول ﷺ نفسه أنشد بيت حسان (تلطمهن بالخمر النساء ...) .وقيل أيضا أن رسول الله ﷺ رأى يوم فتح مكة النساء يضربن وجوه الخيل بخمرهن. فقال عليه السلام: صدق حسان (٥٢). والأبيات نفسها تدلنا دلالة قاطعة على أن معظمها قيل قبل الفتح، هجا فيها حسان بن ثابت أبا سفيان وهدد فيها قريشا كلها بالفتح ناقلا رغبة المسلمين وتشوقهم إلى زيارة الكعبة وأداء العمرة سلماً، وإلا فلتستعد قريش لحرب المسلمين، لأنها بذلك تخالف بندا من بنود صلح الحديبية المشهور .

- **موضوعاتها :**

إذا تابعنا المعاني التي قامت عليها القصيدة أمكننا تقسيمها على ستة أقسام :

١- المقدمة الطللية .
٢- التهديد.
٣- الفخر الجماعي
٤- الهجاء الشخصي والقبلي .
٥- مديح الرسول (ﷺ)
٦- الفخر الشخصي .

رفع المسّاهم

أما المقدمة الطللية فهي تقع في عشرة أبيات وقف فيها الشاعر على مواضع في بلاد الشام يبكي أطلالها المقفرة التي كانت أنيسة من قبل بأهلها، وما يملكون من نِعَم وشياه، وسرعان ما ينتقل من وصف الديار إلى تذكر خيال الحبيبة الذي يلح في اقتحام مخيلته فيؤرقه، ثم يسترسل في وصف صاحبة الخيال، وهذا يتيح له الانتقال الى معنى آخر من خلال تشبيه رضابها بالخمر، فيصف الخمرة، ويمجدها. فهو وقومه يلجأون إلى شربها إذا ما أثيروا لقتال أو مهاجاة فتثير فيهم النخوة والحمية، وتجعلهم ملوكا لا يهابون الحرب والقتال .

وهنا لابد للقارئ أن يقف موقف المتسائل عن حديث حسان عن الخمر في موقف حاسم من حياة المسلمين، وهو توقع الحرب لفتح مكة مع ما هو معروف من توجيهات القرآن الكريم والرسولﷺ في تحريم الخمر ...

ويبدو أنّ الالتفات إلى هذه المقدمة التي بدت غير ملائمة للجو الذي قيلت فيه قد حدث في زمن حسان إذ قيل أنه هجم يوما على فتيان من قومه يشربون الخمر، فنقم منهم ذلك، وأنكره، فقالوا: يا أبا الوليد ما أخذنا هذا إلاّ منك، وإنا لنهمُّ بتركها فيثبطِّنا عنها قولك:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهنها اللقاء

فقال حسان : والله لقد قلتها في الجاهلية وما شربتها منذ أسلمت (٥٣)

وقد صرح مصعب الزبيري في خبر نقله ابن عبد البر في كتاب الإستيعاب ما يؤكد كون مقدمة القصيدة قد قيلت قبل الإسلام بقوله (هذه القصيدة قال حسان صدرها في الجاهلية وآخرها في الإسلام : عدمنا ....)(٥٤)

ووفق هاتين الروايتين تكون المقدمة الطللية من نظم حسان قبل الإسلام، وانه حين اراد ان يقول شعرا في الرد على أبى سفيان وتهديد قريش لم يشأ أن ينظم مقدمة، فأتى بأخرى جاهزة مع ما فيها من معان تخالف روح الإسلام، لأنه يعرف حق المعرفة أن المسلمين يقدرون كونها تقليدا لطريقة الشعراء المعروفة فيما يقولون بمقدمات عرفت فيما بعد بالمقدمات الطللية .

رفع المسلم

أن متابعة قصائد حسان التي قالها في الإسلام تؤكد لنا صدق الرأي السابق فهو لم يعد ملتزما بشكل المقدمات الطللية كما كان يفعل قبل الإسلام، وكأنّه أحسَّ أَنَّ المواقف السريعة المستجدة في حياة المسلمين لم تعد تسمح له نفسيا في الانصراف لنظم مقدمة، والخطر نفسه يفرض خطورته على الشاعر والموقف، فيجد الحديث عن أي شي خارج القصيدة، تافها لا ينسجم مع الظروف الصعبة. وبهذا يمثل شعر صدر الإسلام بداية بسيطة لتطوير بنية القصيدة العربية ومقدمتها الطللية بالذات، ولكنه تطور محدود يوافق طبيعة العصر الذي عاش فيه حسان، حيث لم يكن هناك شاعر يفكر في الخروج من الإطار العام للقصيدة العربية. والواقع أن فكرة الخروج على شكل القصيدة العربية لم تكن ببال حسان أو غيره من شعراء الدعوة إلا أن الظروف الملحة التي دفعتهم إلى نظم الأشعار جعلتهم يختصرون بعض مقدماتها الطللية، وبذا يكون حسان سابقا لأبي نؤاس في دعواه الى نبذ عادة الوقوف على الأطلال.(٥٥)

إن متابعتنا لقصائد حسان الإسلامية - ويصدق هذا على بعض مقدمات كعب بن مالك- تدلنا على أن هناك نوعين من المقدمات الغزلية في أشعاره:

١- مقدمة غزلية عفيفة

٢- مقدمة طللية تجتزئ بسرعة .

لقد بدأ حسان إحدى قصائده الإسلامية بذكر الديار المقفرة، ثم تغزل غزلا عفيفا، ليخلص منه إلى الفخر بقومه، ولم يخرج فيه عن الفخر بالقيم العربية المعهودة من مجد وسؤدد وكرم حتى يصل إلى الفخر بالقيم الإسلامية كفخره بنصر قومه للرسول (ﷺ) معددا مواقفهم في صد عدوان مشركي قريش يوم بدر وأحد ويوم الطائف ...ويختمها بفخر شخصي. ونختار من هذه القصيدة ما يوضح طريقة حسان في افتتاحيات قصيدته، وهو قوله :

أهاجكَ بالبيداءِ رسمُ المنازل
نعمْ قد عفاها كلُّ أسحَم هاطلِ

وجـرَّتْ عليـها الرامسـاتُ ذيولَها
فـلـم يـبقَ مـنها غيرُ أشعث مائلِ

ديـارُ الـتي راقَ الفـؤادَ دلالُهـا
وعــزَّ علـيـنـا أن تجـودَ بـنائـل

لهـا عـينُ كحـلاء المدامـع مُطفلٍ
تـراعي نعامـا يرتعي بالخمائل (٥٦)

ومثلها قصيدته التي قالها ذاكرًا أصحاب اللواء يوم أحد، إذ افتتحها أيضا بمقدمة غزلية عفيفة (٥٧)

أمـا الضـرب الـثاني من المقدمات. فهو السائد في قصائده الإسلامية التي يجتزئ فـيها الحديـث بلفظ (دع)، ليردع نفسه عن الاسترسال في الحديث الشخصي، ويبدأ بموضـوعه مباشرة، وهذا نفسه يسوغ كون القصيدة الهمزية قد وضع لها حسان مقدمة جاهـزة مما كـان قـد نظمه قبل الإسلام، لان الظرف النفسي والاجتماعي الذي كان يعيش فيه لا يدع له مجالا لنظم مقدمة تقليدية للقصيدة.

إن اسـتعمال لفظ (دع) وسيلة حسنة للتخلص من المقدمة التي تكبل أحاسيس الشاعر، وتقيد خطواته للقول في موضوعه مباشرة فيكتفي بذكر بيتين أو ثلاثة تصلح أن تكـون بدايـة لمقدمـة طللية، ولكنه سرعان ما يتذكر الحدث الملم الذي ملك نفسه وكيانه، فيشيح بوجهه مسرعا عن هذه المقدمة، ويدخل في موضوعه مباشرة . لقد بدأ حسان قصيدته التي قالها إثر معركة بدر الكبرى التي انتصر فيها المسلمون بثلاثة أبيات تحـدث فـيها عـن ديـار زيـنب الداثرة التي لم يبق منها إلا آثار كآثار الخط الباهت، ثم يتذكر عمران هذه الديار . وقبل أن يسترسل في الذكرى فيصف صاحبته ينتقل انتقالا طـريفا بإيـراد لفـظ (دع) أيضا، وكأنه يزجر نفسه عن تذكر مواقف تخص المسلمين جميعا ويعبر عن مشاعرهم فيها، وفرحهم بما أصاب المسلمين من نصر عظيم يوم بدر:

عرفتَ ديارَ زينَب بالكثيب
كخطٍّ الوحي في الورق القَشيبِ

تعاورَها الرياحُ وكلُّ جَوْنٍ
من الوسميِّ متَّهمٍ سَكوبِ

فأمسى رسمُها خلقا وأمست
يبابا بعد ساكنها الحبيب

فدعْ عنك التذكرَّ كلَّ يومٍ
وردَّ حزازةَ الصدرِ الكئيبِ

وَخَبِّر بالذي لا عيبَ فيه
بصدقٍ غيرِ أخبار الكذوب

بما صنعَ المليكُ غداةَ بدرٍ
لنا في المشركين من النصيب(٥٧)

فهو في البيت الرابع يريد أن يقول أن تذكر الأحبة قد يكون ذكرى كاذبة، وقد يكون حديثا يستحيا منه ويعاب عليه، فالأولى به أن يتحدث حديث الصدق الذي لا يكذبه فيه أحد لأنه الواقع الذي شهده الناس جميعا، وكان سببا في نزع الحزن والاسى من قلوب المسلمين، ألا وهو نصر الله لهم في بدر . أما قصيدته البائية الثانية التي مطلعها :

هل رسمُ دارسة المقام يباب
متكلِّمٌ لمحاور بجواب

فأنه اكتفى بالمطلع وببيت آخر، ليخلص منهما بلفظ (دع) في سياق أكثر وضوحا، يبين رغبته في الإعراض عن المقدمة الطللية وما فيها من هموم شخصية، لينصرف إلى الحديث عن الهموم الجماعية هموم المسلمين التي يشكوها إلى الله تعالى بسبب تألب المشركين وقوى الشر المعاندة لحرب المسلمين :

فدعِ الديارَ وذكرَ كلِّ خريدةٍ
بيضاءَ آنسةِ الحديث كعابِ
وآشكُ الهمومَ إلى الإله وما ترى
من معشر متألبين غضابِ
أموا بغزوهم الرسولَ وألَّبوا
أهلَ القرى وبوادي الأعراب (٥٨)

هذه طريقة حسان بن ثابت في مقدمات شعره الإسلامي، ولا نرانا بحاجة إلى موازنتها بمقدمات قصائده التي قالها قبل الإسلام، لأن قصيدته الهمزية هذه قد استعار لها مقدمة جاهزة مما كان قد قاله في الجاهلية. وهذا يعني أيضا ان الجزء الثاني اوتتمة الهمزية التي قالها قبل الإسلام قد ضاع، ولم يصل الينا بسبب شيوع قصيدته الهمزية الإسلامية .

إن هذه المقدمات تمثل بداية تطور للقصيدة العربية ومقدماتها وقد وجدنا لها صدى عند كعب بن مالك الذي بدأ إحدى قصائده في رثاء الخليفة عثمان (رضي الله عنه) بتعجبه ممن يبكي على الدمن والاثار :

يا للرجال لأمرٍ هاج لي حَزَنا
لقد عجبت لمن يبكي على الدمن
إني رأيت قتيلَ الدار مضطهَدا
عثمان يُهدى إلى الاجداثِ في كفن (٥٩)

وبعد مقدمة القصيدة يبدأ حسان جوها وموضوعها المباشر الذي بدأه بتهديد شديد اللهجة، تهديد من وثق بجماعته ونصر الله لها حتى سبق خياله في هذه الأبيات الأحداث التي حدثت فيما بعد فتح مكة ونصر الله للمسلمين:

عدمنا خيلنا إنْ لم تروها
تثيرُ النقعَ موعدُها كَداء

لقد تخيل حسان بن ثابت خيول المسلمين التي تقتحم شعاب مكة تاركة الخوف والهلع في النفوس، فالنساء يتَّقين سنابك الخيل وضرباتها بخمورهن.

وقد عمد حسان فيها إلى نقل صور سريعة الحركة توحي لنا بتوقعه النصر المؤكد، وبهذا يبتعد عن الأسلوب المباشر الذي نجده في كثير من أشعاره.

ويخير حسان بن ثابت قريشا من موقع القوة والثقة بالله ونصره، بين أمرين. أمّا أنْ تدع المسلمين يؤدون العمرة بسلام، أو تنتظر بلاء اليوم العظيم الذي يعز الله فيه المسلمين بالنصر والفتح. ويبدو حسان في هذا التهديد صادق اللهجة، واثقا مما يقول، ناقلا لصورة المسلمين الجماعية صورة العزم على الفتح والتشوق إلى العمرة وزيارة مكة . ويمهد بعد هذا التهديد إلى فكرة الفخر بالجماعة الإسلامية نفسها، فهو يهدد قريشا بالمسلمين واثقا من نصر الله لهم، لأن الرسولﷺ أمينهم ويسندهم جبريل بالوحي .. الرسول فيهم وهم يصدقونه ويطيعونه. أما انتم معشر قريش فقد أبيتم إلاّ تكذيبه ﷺ وخذلانه فقد عوض الله نبيه عنكم بالأنصار الذين دافعوا عنه وعن الدين بسيوفهم وألسنتهم .والأبيات في هذا من ١٦-٢١ تدور كلها في فلك المعاني الإسلامية والفخر بالجماعة المسلمة بغض النظر عن القبلية الضيقة، أو الحسب المحدود، الفخر بالمسلمين من الأنصار الأوس والخزرج الذين وقفوا بالمرصاد لكل من يهجو الرسولﷺ ودافعوا عنه حين احتدمت المعارك . وبذا ينتقل إلى المقطع الرابع وهو هجاء أبي سفيان هجاءً شخصيا من البيت ٢٢- ٢٧ .

الا أبلغ أبا سفيان عني
فأنت مجوَّفٌ نخِبٌ هواءُ

رفع المسهم

ولكي يبرز شخصية أبي سفيان الخاوية من الفطنة والكيس يجرده من جماعته التي يفخر بها فهو فارغ لا علم، ولا رأى صائب له .ودليل هذا ما أشار به أبو سفيان يوم احد بشأن اللواء الذي حمله جماعة من بني عبد الدار فكلما حمله واحد، قتل بيد واحد من المسلمين. وقد قيل إنَّ أول من اخذ اللواء من بني عبد الدار – وهو بطن من قريش – طلحة بن ابي طلحة بن عبد العزى بن عثمان، فقتله سعد ابن أبي وقاص، ثم أخذه عثمان بن أبي طلحة فقتله حمزة، ثم أخذه سعيد بن أبي طلحة فقتله سعد ابن أبي وقاص، ثم أخذه مسافع بن طلحة فقتله حمزة، وهكذا قتل كل من حمل اللواء، فكان آخر من حمل لواء قريش عبد لبني عبد الدار، فقتل وهو بيده، ثم أخذته امرأة منهم ... وبذا يجمع حسان بين الهجاء الشخصي والقبلي، فلا فخر يفخر به أبوسفيان، لان بني عبد الدار قد ضيعوا اللواء الذي حملوه. وقد مر بنا رفض د. وليد عرفات نسبة هذا البيت لحسان في هذه القصيدة .

إنَّ حسان بن ثابت يقابل صورة أبي سفيان المهجوة بصورة الرسولﷺ البر الحنيف الوفي .. ويقول بعفوية صادقة (فشركما لخيركما الفداء)، فأبو سفيان فداء لرسول الله،ﷺ وهو ليس بكفءٍ له وبذلك لا قيمة لمن يهجو الرسول ﷺ لأنه ﷺ محاط بالمسلمين الذين يفتدونه بأموالهم وأعراضهم، وهذا حسان نفسه يعلن في البيت (٢٨) بأنه يقي الرسول ﷺ بوالده وعرضه، وهنا يتحول الأسلوب إلى لغة تقريرية أقرب إلى الكلام المباشر الذي لم يعمد فيه إلى الصنعة الفنية.

بعد هذه الأبيات يتطرق حسان إلى هجاء قبلي، فيخفت فيه صوت عاطفته، وتبدو الأبيات من ٢٩- ٣١ خالية من الروح الفنية أو العاطفة والانفعال وتبقى مجرد أبيات منظومة يعدد فيها اسماء من تحالف من مشركي قريش ضد المسلمين.

ويختم القصيدة ببيت واحد يفخر فيه بلسانه الصارم وشاعريته التي لا تغلب، ويبدو هذا البيت غريبا بعد الأبيات السابقة، وكأني أحسُّ بضياع بيتين أو أكثر ينتقل فيها حسان من ذكر حلف قريش مع المشركين واليهود الى الفخر بلسانه ودفاعه عن الدعوة :

المسهم

لساني صارم لا عيب فيه

وبحري لا تكـدّره الدلاء

ولعل هذا هو وراء قول د. عرفات بان القصيدة قد تكون أكثر من قسمين وإنها قد قيلت في أوقات متفاوتة. ولأننا نحس بتفاوت أسلوبها قوة وضعفا، صدق عاطفة وانعدامها .

- **لغتها الشعرية :**

إذا عدنا الى قصيدة حسان مرة أخرى لدراسة تعابيرها - بعد حذف مقدمتها - فأننا نتبين فيها تطور اللغة الشعرية عند حسان أولا وشعراء الدعوة عامة، ونجد هذه القصيدة بالذات ممثلة لتطور اللغة الشعرية مفردة وأساليب ومعاني .

فالشاعرّ حسان يستخدم اسلوب التهديد الذي يتماشى مع الظروف الحرجة التي كان يمر بها المسلمون، ويتمثل هذا بكثرة ايراده لمفردات الحرب والسلاح وما يتعلق بهما مثل الألفاظ:

١١- عدمنا خيلنا.

النقع (وهو الغبار وهذه من متعلقات الخيل لان سنابكها تثيره)

١٢- الأعنة، الأسل (وهي الرماح)

١٣- الجياد

١٥- جلاد

١٩- جند، اللقاء

٢٠ - قتال

٢١- الدماء

٢٢- سيوفنا

٢٩- قتلهم

٣٠- نصروا

واعتمد أيضا أسلوب الخطاب، خطاب الجماعة أو الفرد ممثلا بأبي سفيان،

رفع المستهم

وهذه الخطابية سمة من سمات شعر الدعوة، لأنه أسلوب من أساليب الحماس الذي تثيره القصيدة .

١١- تروها

١٤- فأما تعرضوا

١٥- وإلاّ فأصبروا

١٦- فقلتم لا نقوم

٢٢- ألا ابلغ.. فانت

٢٤- هجوت

٢٥- أتهجوه

وثمة تطور آخر في لغة القصيدة يتمثل باستخدام الشاعر لغة الجماعة في الفخر، وإذا كان هذا الاستخدام موجودا من قبل، فان حسان بن ثابت لا يعني به هنا جماعة القبيلة، وإنما جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين، وهو يستخدمها حتى في وصف الخيول، والتهديد بها بخيل المسلمين:

١١- عدمنا خيلنا

١٢- يبارين

١٣- تظل جيادنا

كما انه استخدم ضمير الجماعة تعبيرا عن الروح الجماعية الجديدة التي أوجدها الإسلام للأمة مثل قوله:

١٦- رسول الله فينا

٢٠-لنا في كل يوم

٢١- فنحكم بالقوافي

ولا يستخدم لغة المفرد إلاّ في الأبيات التي تخصه هو، لكونه شاعرا.

٢٦- هجوت ... فأجبت.

أو فخره بانه سيدافع عن الرسولﷺ بعرضه ولسانه .

٢٨- فإن أبي ووالده وعرضي .

أو إعلانه بقوة أشعاره التي سخرها لخدمة الدعوة الإسلامية .

٣٢- لساني .... وبحري

أما الروح الإسلامية المتمثلة في أبيات قصيدة حسان فإنها تظهر في إيراد الألفاظ الإسلامية : العمرة، الفتح، جبريل، رسول الله، روح القدس، الشهادة (شهادة إلا إله إلا الله).

وأما إيراده الأفكار الإسلامية فتظهر في الأبيات :١٤- كان الفتح وانكشف الغطاء، النصر من الله في فتح مكة، وظهر الحق، وانتصار المسلمين .

١٥- يعز الله فيه من يشاء

وهنا لا يسمي حسان الرسول (ﷺ) بصفة من الصفات الدنيوية التي يوصف بها ملوك الأرض وعظماؤهم، وإنما يصفه كما ورد في القران الكريم والتوجيهات النبوية (عبد الله)، لان العبودية لله وحده. فالله تعالى هو الذي يرسل جنودا يقوي بهم المسلمين وينصرهم

٢٤- وعند الله في ذاك الجزاء .

وهكذا نستطيع أن ننطلق من دراسة لغة الشعر عند حسان الى لغة الشعر عامة في صدر الإسلام، إذ شهد العصر تطورا في اللغة الشعرية لا من حيث المفردات لان الكلمة وحدها مجردة لا تعني شيئا، وإنما هو تطور في الفكر الذي أداته الكلمة مفردة أو مركبة في سياق وصورة . لقد كثرت في هذا العصر مفردات تتعلق بالحساب ثم الثواب والجزاء أو العقاب والعذاب و مفردات الجنة والنار من المؤمنين الخالدين والشهداء والصديقين الى الكفار والدرك الاسفل من النار وعذاب السعير... الخ .

وكثرت في أشعار الدعوة الألفاظ المتعلقة بالحرب والسلاح ولكنها لم ترد على شاكلة ألفاظ الحرب قبل الإسلام لأنها اقتربت باجواء هيمن عليها الإيمان والاستبسال في القتال رغبة في الشهادة والثواب .

والملاحظة الأخرى أن لغة الشعر عامة صارت أقرب الى لغة الحاضرة السهلة السلسة البعيدة عن الغرابة أو التعقيد، المؤدية الى المعنى بيسر وسهولة وسبب ذلك

رفع المسهم

يعـود بالدرجة الأولى إلى كون شعراء الدعوة عامة هم من شعراء القرى العربية، مكة والمديـنة الذيـن شـهدوا الدعوة ودافعوا عنها أو وقفوا ضدها . أما شعراء البادية فقد ظلـوا غالـبا بعـيدا عـن أوار المعـارك الفعلـية أو الفكـرية حـتى من قدم منهم المدينة الإسـلامية، وشـهد بعـض أحداثها، فقال شعرا يمثل امتداداً لأشعار الجاهلية في لغته، ومفرداته وأحيانا في أفكاره وأخيلته . كما سنجد ذلك عند الحطيئة ومتمم بن نويرة.

ب- عبد الله بن رواحة:

هـو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الخزرجي الأنصاري، يكنى أبا رواحـة وأبـا محمـد [٦٠]، اقـترن اسـم عـبد الله بـن رواحة بشعر الجهاد والثبات على العقـيدة والمـبدأ، ويتمـثل المجـاهدون بأبـياته في تمني الشهادة وهم يتوجهون الى الموت بقلوب راضية مطمئنة .

كـان شـاعرا عظـيم القـدر في الجاهلية والإسلام، وكان في حروبهم في الجاهلية يناقض قيس بن الخطيم.

وكـان سـيداً لـيس فـى طبقـته اسود منه . شهد بدرا . وكان في الإسلام عظيم القـدر والمكانـة من رسول الله ﷺ كما قال ابن سلام [٦١] ووصفه الآمدى بأنه شاعر محسن فارس [٦٢]

لقـد أسـلم ابـن رواحـة مـبكرا ضمن من أسلم من أهل يثرب فهو أحد النقباء الاثـني عشـر الذيـن الـتقوا بالرسـولﷺ في العقـبة الثانية، وعاهدوه على النصرة والحـرب[٦٣]، وشهد بدرا وأحد والخندق والحديبية وعمرة القضاء والمشاهد كلها إلاّ الفتح وما بعده، لأنه قتل يوم مؤتة شهيداً[٦٤]، إذ كان أمير الجيش فيها.

لقـد كـان أول خارج إلى الغزو وآخر قافل، وحين ترجم له ابن عبد البر وصفه بأنه أحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردون الأذى عن رسول اللهﷺ [٦٥].

لقـد كان عبد الله بن رواحة مثالا للشاعر المسلم الذي أمن قلبه وصدق عمله إيمانه. فقـد ذكـر أن الرسـول ﷺ كـان يترحم عليه، ويقول واصفا ذكره الدائم لله سبحانه وتعالى بقوله: (رحم الله عبد الله بن رواحة انه يحب المجالس التي تباهى بها الملائكة)[٦٦].

رفع المسهم

ووصفته امرأته بأنه كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين، وإذا دخل بيته صلى ركعتين لا يدع ذلك، وقالوا فيه: أنه كان أول خارج إلى الغزو وآخر قافل(٦٧).

وقد ذكرنا من قبل جملة من الأقوال الكريمة التي قالها الرسولﷺ في شعرائه الثلاثة الذين دافعوا عن الدعوة، وكان عبد الله بن رواحة واحدا منهم. ونرى في دراسة سيرة هذا الشاعر شواهد كثيرة تدل على حمله لواء الشعر مدافعا عن الدين ملتزما بالدفاع عن الحق، كما حمل سيفه وانطلق إلى قتال الأعداء .

لقد كان عبد الله مصاحبا للرسولﷺ، ملازما له متمثلا لتوجيهاته، واعيا لإرشاداته في جعل الشعر وسيلة مهمة من وسائل الدفاع عن الدعوة . فحين أراد الرسول ﷺ أن يوجه هذا الشاعر ليرد على افتراءات المشركين، ويعضد الدعوة والمسلمين سأله سؤال مستفسر وهو (عليه الصلاة والسلام) يريد لفت نظره إلى الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية، والذي يوجب على كل فرد فيها ان يلتزم بالدفاع عن الإسلام وأهله. سأله الرسول ﷺ كيف تقول الشعر اذا قلته ؟ فيقول عبد الله : انظر في ذلك فأقول، أو ثم أقول . قال: فعليك بالمشركين. وحين ينشد عبد الله الرسول ﷺ بيت شعر في هجاء قريش ويرى سمات عدم الارتياح على وجهه يحس بأنه لم يستطع ان يوجه شعره الوجهة التي أرادها الرسولﷺ وهي ان يكون ما يقوله الشاعر جزءاً من عقيدته وسلوكه، فلا فائدة من هجاء قريش بان لا قيمة لهم، لان ذلك لن يخدم الدعوة الإسلامية. وان كانت الرواية التي فصلت الخبر أوردت قول ابن رواحة كالآتي : (فكأني عرفت في وجه رسول الله ﷺ الكراهة أن جعلت قومه أثمان العباء فقلت :

نجالدُ الناسَ عن عِرضٍ فنأسرَهم
فينا الرسول وفينا تنزل السور

وقد علمتم بأنا ليس غالبنا
حيٌ من الناس إنْ عزُّوا وإنْ كثروا

رفع المسيهم

يا هاشمَ الخير إنَّ الله فضَّلكم
على البرية فَضْلا ما له غير

إني تفرَّسْتُ فيك الخير أعرفهُ
فراسةً خالفتْهم في الذي نظروا

ولو سألت أو استنصرتَ بعضَهم
في جلِّ أمرِك ما آووا ولا نصروا

فثبَّتَ الله ما آتاك من حَسَنٍ
تثبيتَ موسى ونصراً كالذي نصروا

فاقبل عليه رسول الله ﷺ ثم قال، وإياك فثبت الله.(٦٨)

وقد مر بنا أنه عليه الصلاة والسلام أراد أنْ يلفت نظر الشاعر إلى ما يجب أن يقوله. وفي هذه الرواية أيضا سرعة استجابة الشاعر لتوجيه الرسول (ﷺ) إذ غير مجرى الأبيات من هجاء قبلي إلى فخر بالأمة يتعالى فيه عن القبليةِ الضيقة إلى إطار العقيدة الصادقة فيفخر بقومه، وقومه هنا ليسوا الخزرج أو الأوس إنما هم العرب المسلمون من الأنصار والمهاجرين، وفخره بهم ليس لكثرة إعدادهم ولكن لكون الرسول ﷺ فيهم . فالعدد والكثرة ليسا بشيء إزاء قوة العقيدة، وان الله قد فضل بني هاشم لكون الرسول ﷺ منهم وكرم الأنصار لأنهم نصروه . أما المعاندون من مشركي قريش فقد خذلوا الرسول ﷺ وعوضه الله تعالى عنهم خيرا . وحين ختم الشاعر أبياته أكد فكرة الاعتراف بنبوة الأنبياء، وان الله سبحانه وتعالى هو الذي يثبت الرسل على الدعوة، وبذا تدخل أبيات ابن رواحة هذه مع خبرها في إطار الشعر الملتزم بتوجيهات الرسول الكريم .

وفي رواية أخرى نجد الخبر وفيه يوصف ابن رواحة على لسان واحد من الصحابة بقوله: ما سمعت أجرأ ولا أسرع شعراً من عبد الله بن رواحة سمعت

رفع المساهم

رسول الله ﷺ يقول له يوما : قل شعرا تقتضيه الساعة، وإنا انظر إليك . فانبعث من مكانه يقول: (إني تفرست فيك الخير أعرفه...) فقال رسول الله ﷺ وانت فثبتك الله يا ابن رواحة .(٦٩)

لقد فهم ابن رواحة توجيه الرسول ﷺ للشعراء للتعبير عن حياتهم الجديدة في ظلال الدعوة، لذلك أجاب الرسولﷺ حين سأله عن الشعر إجابة ذكية بانه (شئ يختلج في صدر الرجل فيخرجه على لسانه).

ولابن رواحة أشعار قصار في مناسبات شتى لا تخرج عن إطار الظروف العامة التي يمر بها أهل المدينة في حربهم مع المشركين، ولكن الذي يهمنا في الدرجة الأولى أبياته التي صحبت خروجه إلى الجهاد في آخر معركة سقط فيها شهيدا، فهي تصلح أن تكون مثالا ساميا لقصص البطولة والجهاد عبر فيها بمقطوعات قصيرة عن مواقف حاسمة في حياته وحياة المسلمين، وكان إيمانه العميق قد جسد نهايته الرائعة حيث الشهادة والخلود، ويكاد كل موقف من مواقف البطولة الذي سار فيه ابن رواحة الى مؤتة قد عبر عنه بأبيات شعرية منذ استعداد جيش المسلمين للتوجه إلى الجهاد ضد الروم يصحبه وداع الآخرين لهم. فقد ذكر أن المسلمين ودعوا الجيش المجاهد بقولهم: (صحبكم الله، ودفع عنكم وردكم صالحين). ونتوقع ان يكون دعاء ابن رواحة مثل قولهم، كأن يدعو لهم بالسلامة أيضا أو يشكرهم او يمدحهم، إلا اننا نقرأ ثلاثة أبيات فيها دعاء من نمط آخر لم يرض فيه ابن رواحة بالدعاء له بالسلامة والعودة إلى الأهل والأحبة، وانما يسأل الله ان يكرمه بالشهادة فيدفن بعيدا عن أهله، وينال رحمة الله ودعاء المسلمين له اذا مروا عن قبره وتذكروا جهاده وصبره وبلاءه :

لكنني أسأل الرحمنَ مغفرةً
وضربةً ذاتَ فرعٍ تقذف الزبدا (٧٠)

أو طعنة بيدي حرّان مجهزةً (٧١)
بحربة تنفذ الاحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مرّوا على جدثي
أرشده الله من غازٍ وقد رشدا [٧٢]

ويبدو انه قال شعراً غير هذا في وداع الرسولﷺ والمسلمين ولم يصل إلينا منه إلا بيت واحد لعله جزء من المقطوعة الضائعة يقول فيه :

خلف السلام على امرئ ودَّعته
في النخل خيرَ مشيّع وخليل

وذُكرت له أبيات يصف فيها مسير الجيش الى الشام وإصرارهم على حرب الروم [٧٣] . ومثلما ودّع ابن رواحة المسلمين في المدينة بإعلان تمنيه الشهادة في سبيل الله نراه يخاطب ناقته متخيلا نهاية رحلته السعيدة، وقد ملكت نفسه صورة الشهيد الثاوي بعيدا عن أهله متمنيا تلك الصورة:

إذا أدَّيتني وحملتِ رحلي
مسيرةَ أربعٍ بعد العشاء

فشأنكِ أنعمٌ وخَلاكِ ذمّ
ولا أرجعْ إلى أهلي ورائي

وجاء المسلمون وغادروني
بأرضِ الشام مشتهي الثواء

وردَّك كل ذي نسب قريب
إلى الرحمن منقطع الإخاء

هنالك لا أبالي طلع بعْلٍ
ولا نخلٍ أسافلُها رواء [٧٤]

رفع المسيهم

ويبدو خطاب عبد الله بن رواحة لناقته خطابا مختلفا عما عهدناه في الشعر الجاهلي، فهو لا يدعو عليها بالهلاك أن لم توصله إلى بغيته، ولا يصف إعياءها وتعبها، ولكنه ينقل لنا تشوقه إلى ارض الجهاد وساعة القتال، فيتعاطف مع ناقته موعدا إياها بالذكر الطيب والرفعة التي يجسدها بنعتها من خلوها من أي ذم وعيب إذ يكفيها فخرا أن توصل المجاهد إلى ساحة الشرف والاستشهاد .

ويمكن أن يفسر إحساس ابن رواحة بدنو استشهاده بأنه بسبب كونه قائدا فارسا، مدركا طبيعة المعركة التي توجه إليها، والرسول ﷺ نفسه قد قدر خطورة المعركة حين عين ثلاثة قواد لهذه الغزوة . لقد أحسَّ ابن رواحة بهاجس يلح عليه أن الشهادة قريبة، وان اجله قد دنا، فقد عين الرسول ﷺ جعفر بن أبى طالب أميرا للجيش، فان قتل فزيد بن حارثة، فان قتل فعبد الله بن رواحة، وحين تبدأ المعركة، ويتولى جعفر بنّ أبي طالب إمارة الجيش يحس عبد الله بروحه الملهمة، وإيمانه العميق أنها نهايته، فإذا به فرحٌ بها يتقدم جماعته إلى المعركة، وكأنه يسبقهم إلى الجنة لا إلى الحرب وأهوالها، ويتخيل نعيم الجنة وشرابها البارد، فيدفعه ذلك إلى الاستماتة في قتال الاعداء متشوقا اليها ويقول وهو يرتجز وكأنه يتنسم عطر الجنة وشرابها البارد :

ياحبّذا الجنةُ واقترابُها
طيبةٌ وباردٌ شرابُها
والرومُ رومٌ قد دنا عذابها
كافرةٌ بعيدةٌ أنسابها
عليَّ إذ لاقيتها ضِرابُها

ويلاحظ في البيت الأول شفافية روح ابن رواحة في تخيله الجنة، وشرابها البارد بدل تصوير لظى الحرب واحتدامها، ولكن شطره الثالث أقل جمالا وشفافية، لأنه تخلى فيه عن نهجه في التعبير عن مواقفه الشخصية وانفعالاته، فقد التفت إلى هجاء الروم، فأخفق في اختيار الصورة، وهجا الروم بأنهم كفار بعيدو الانساب، وكأنه بحث في مخيلته عن صورة من صور الهجاء التي تنطبق عليهم، فلم يجد صورة هاجية لهم إلاّ بالتشكيك في أنسابهم، فأنسابهم بعيدة غير معروفة، وهذا يدلنا على أن ابن رواحة لم

يكن شاعرا هجاءاً. وحين يعود إلى حماسه الأول في تصور الموقف الآني للحرب يعود إليه جمال تعبيره وعفويته (علي إذ لاقيتُها ضرابها) .

ثـم يستشهد جعفر فيتناول زيد الراية، ويلحقه بالشهادة، ويأتي دور ابن رواحة وقـد اشـتدت المعركة، واحتدم القتال، فيقسم بالله أن يتغلب على لحظات ضعف قد تعتري مشاعره، وكأن نفسه تراوده ليحجم عن المعركة، فيذكرها بأنها قد عاشت حياة طويلـة في رغـد واطمئـنان، وأنـه قد آن الأوان للبذل والعطاء، فليس هناك من يكره الجنـة الـتي تكـون مـثوى الشـهيد بعد وفاته . وفجأة ينتقل ابن رواحة انتقالا سريعا ليخاطب رفيقه الأول الذي سبقه إلى الشهادة، يخاطب جعفر بن أبي طالب ﷺ وكأنه يستشـعر معـه طيـب الجنة وروحهـا وريحانها، فيقول مخاطبا نفسه مثيرا فيها الحماس مؤججا فيها الرغبة في الاستشهاد في سبيل الله :

أقســـمتُ بـــالله لتنزلَـــنَّـه
طائعـــة أو، لا لتكـرهـــنه
مـــالي أراك تكـــرهين الجـــنةْ؟
قـــد طالمـا قـــد كنـتِ مطمئـنةْ
إن أجلـبَ الـناسُ وشـدّوا الـرنّة
هـــل أنـــتِ إلاّ نطفـــةٌ في شـــنة ؟
جعفـر مـا أطيـبَ ريـحَ الجـنة (٧٥)

ويلاحـظ في المقطوعـة صدق عاطفته، وعفويته في التعبير عن إحساسه في ذلك الموقف الحرج فهو يصور دون تكلف أو مواربة شدة المعركة التي جعلت نفسه تراوده بالإحجام، ولكـن إرادتـه القوية، أو فلنقل إيمانه يدفعه إلى كبت هذه المراودة بتساءل إنكـاري يـزيح كل خوف وتردد من نفسه. فهل هناك من يكره الجنة ؟ ثم يذكر نفسه بصغرها وضآلة تكوينها وأصلها بينما تشمخ هذه النفس اذا تعالت على مادية الجسد وطمحت الى خلود الجنة .

وبهـذا يسبق ابـن رواحـة شـعراء الخـوارج في تمنيهم الشهادة وتمثلهم للجنة في المعارك بين صليل السيوف .

رفع المسـاهم

وقال أيضا محمسا نفسه على القتال والاستماتة في سبيل الله لرفع كلمة الحق:

يـــا نفـس إلاّ تقـتلي تموتـــي
هــــذا حِمـام المـوت قـد صُـليتِ
ومـــا تمنيـتِ فقـــد أعطـيــت
إنْ تفعلــي فعلَهمـــا هُـديـتِ

فما نال جعفر بن أبى طالب وزيد (رضي الله عنهما) شرف الشهادة إلاّ بعد أن استماتا في القتال، وتقدما المسلمين في الحرب، وان أراد مصيرهما فما عليه إلا أن يحتذى حذوهما في الشجاعة والبأس . وهكذا يمضي ابن رواحة في طريق الشهادة والمجد تاركا أشعارا إن لم تكن في عداد القصائد الطوال، فهي في مقدمة الأشعار الصادقة المشاعر المعبرة عن مواقف الجهاد أصدق تعبير. وإذا عدنا إلى أشعاره التي قالها في الإسلام وجدناها مسايرة لحياته اليومية، مصاحبة لجهاده وقتاله في سبيل المبدأ والدين. ومن الناحية الفنية تبدو أقل تجويدا من شعر صاحبيه حسان بن ثابت وكعب بن مالك (وان كانت اثبت منهما إيمانا واشد تقى).(٧٦)

ويستوي في هذا الحكم شعره الذي قاله قبل الإسلام وبعده . فأطول قصيدة قالها قبل الإسلام هي قصيدته الدالية، وتقع في تسعة أبيات. وأطول ما قاله في الإسلام قصيدته في رثاء حمزة وتقع في ستة عشر بيتا .

لقد حاول بعض الباحثين تعليل قلة أشعار ابن رواحة فذكر د. يحي الجبوري سببين أولهما ضياع شعر عبد الله اعتمادا على ما رواه أبو الفرج الاصفهاني من ان أهون الشعر على قريش قبل الإسلام شعر عبد الله، وأن أشد الشعر عليها بعد إسلامها كان شعر عبد الله،لأنه كان يعيرها بالكفر، وأهون الشعر عليها شعر صاحبيه حسان بن ثابت وكعب بن مالك، لأنهما كانا يهجوان بالمثالب والأيام. والاحتمال الثاني الذي ذكره هو قلة شعر عبد الله بعد الإسلام لأنه كان يتأثم من قول الشعر اعتمادا على مانقله ابن سعد من ان رسول الله ﷺ قال لعبد الله: أنزل، فحرك بنا الركاب، قال: يا رسول الله، إني قد تركت قول ذلك(٧٧).

وأضاف باحث آخر سببا ثالثا رجحه على السببن السابقين وهو (قلة ما وصل

رفع المسهم

إلينا مـن شـعر عـبد الله بسبب قصر الفترة الزمنية التي عاشها في كنف الإسلام على خـلاف صـاحبيه حسـان وكعب اللذين امتد بهما العمر الى فترة متأخرة)[٧٨]. والذي نـرجحه أن ضـياع شـعر ابـن رواحة لم يكن بدافع طمس قريش أشعاره، كما أن ابن رواحة لا يمكن أن يتأثم من قول الشعر لما ذكرناه من شواهد وروايات تدل على كون الشعر جزءاً مسايراً لحياة عبد الله الحافلة بالجهاد. أما قصر المدة التي عاشها ابن رواحة فقـد تكـون سببا في قلة شعره الإسلامي، فما شأن شعره الذي قاله قبل الإسلام؟ إذ لـيس فـيه ما يعارض مصلحة قريش، ولا يدخل ضمن تأثمة من قول الشعر. أغلب الظن أن شعر ابن رواحة قبل الإسلام وبعده ضاع معظمه شأنه شأن كثير من الشعراء الذين ذكرهم ابن سلام مثلا في طبقات فحول الشعراء، وعدهم من الفحول، ولا نجد لهـم فـيما وصـل إلينا من مصادر إلا أسماءهم وأبياتا مفردة . يضاف إلى هذا أن عبد الله فـيما يـبدو لم يكـن مـن الشـعراء المطوّلـين ومـا عـدَّ في الفحـول الجاهلـيين أو الإسـلاميين، إنما يمثل شعره شعر يثرب قبل الإسلام وبعده، وان كان قد توجه وجهة إسـلامية في الـتزامه بالدفـاع عن الدين في شعره الذي قاله في عصر الدعوة. لقد زاده اندفاعه في الجهاد صدقاً في القول وقوة في التعبير عن المواقف أكثر من قدرته في شعره الذي قاله قبـل الإسلام. فقصيدته التي قالها قبل الإسلام مطلعها:

تذكَّـــر بعدمـــا شـــطَّت نجـــودا
وكانـــت تيَّمـــت قلـــبي ولـــيدا

ينقض فيها قصيدة قيس بن الخطيم التي مطلعها:

صـــرمتَ الـــيومَ حـــبلك مـــن كلـــودا
لتـــيدلَ حـــبلَها حـــبلا جديـــدا

وقـد أثبـت حسـن بـاجوده جـامع ديوانـه الأول خمسة أبيات منها فقط، وتلاها بمقطوعـة أخـرى تقع في تسعة أبيات، وجمع شتات هذه القصيدة وليد قصاب فجعلها ستة وعشرين بيتاً اعتماداً على رواية القرشي في جمهرة أشعار العرب [٧٩] مطلعها:

فـــإن تضـــنن علـــيك بمـــا لديهـــا

المسلم

ويصبحُ حبلُ قائلِها جديدا

ويبدو ان المقطوعتين جزء من قصيدة واحدة. ومعنى المقطوعة الأولى في الواقع يتممه معنى المقطوعة الثانية، فهو جزء من مقدمة غزلية يصف فيها جمال امرأة تذكرها بعد ما رحل أهلها وبعدوا . وآخر بيت فيها يصف فيه حليها من شنوف وقلائد:

تزينُ معاقدَ اللّبات فيها
شنوفًا في القلائد والفريدا

من هنا نقول ان المقطوعة الثانية هي أساسا تتمة للأولى إذ يصح استرسال المعنى في البيت السابق، ليتممه أول بيت في المقطوعة الثانية يذكر فيه الشاعر أن صاحبته ضنينة عليه باللقاء شأن الشعراء الآخرين الذين أصروا على وصف صويحباتهم بالتمنع والإباء، ليجمعوا فيهن الجمال الحسي والنفسي، بما يحمله الضن باللقاء من كرامة وعفة.

ينتقل بعدها الى الفخر بقبيلته، وهو فخر لا يتجاوز التغني بقيم العربي، الكرم والحسب الشريف والبأس على الأعداء والبيان في الخطابة يوم الحفل، والوفاء بالعهد، والأخذ بالثأر، وكثرة العدة والعدد. وهذه القيم لا تخلو منها قصيدة فخر :

وقد علم القبائلُ غيرَ فخرٍ
إذا لم تُلْفِ مائلة ركودا

بأنّا نخرجُ الشتواتِ منّا
إذا ما استحكمتْ حسبا وجودا

قدوراً تغرق الأوصالُ فيها
خضيباً لونُها بيضاً وسودا

متى ما تأت يثربَ أو تَردْها
تجدنا نحن أكرمَها جدودا

وأغلظها علــى الأعـداء ركنا
وألينها لـباغي الخير عـودا

وأخطـبها إذا اجـتمعوا لأمــر
وأقصـدها وأوفاهــا عهـودا

إذا نــدعى لــثأر أو لجــار
فـنحن الأكـثرون بهـا عـديدا(٨٠)

ويلاحـظ أن ابـن رواحـة في هـذه الأبـيات لم يلجأ إلى الصنعة، ولم يتعمد إيراد الصـور الفنـية، أو الـتعمق في أوصافها، وإنما جعل معانيه منسابة يتلو المعنى ماسبقه، وكأنـه في صدد تعدادها فقط. وهي في إطارها العام لا تخرج عن إطار الفخر بالقبيلة، وتفتقد الى الذاتية في التعبير عن المشاعر الفردية أو الجماعية، ولغتها تبدو سهلة سلسة تمثل لغـة المديـنة المتحضرة قياسا الى لغة البادية ... وإذا قارنا هذه القصيدة بقصيدته الـتي قالهـا في الإسـلام راثـيا حمـزة وجدنا تطورا في مفردات لغته الشعرية ومعانيه في القصـيدة الثانية مع بقاء أشعاره في اطارها العام سهلة سلسة فيها لين المدينة ورقتها.
يقول ابن رواحة في رثاء حمزة بن عبد المطلب:

بكــت عــيني وحُــقّ لهــا بكاهــا
ومــا يغــني الــبكاءُ ولا العويــل

عــلى أسـدِ الالــه غـداةَ قــالوا
أحمــزةُ ذاكــمُ الــرجلُ القتــيل

أصــيب المســلمون بــه جمــيعا
هـناك وقـد أصـيب بـه الرسـول(٨١)

والأبـيات تـنم عـن صـدق عاطفي تحدث فيها ابن رواحة بلغة الجماعة المسلمة

رفع المسهم

بعيدا عن الروح القبلية، وهو يرثيه بالمعاني الإسلامية التي تجعله شهيدا خالدا في الجنة، ملبيا نداء الرسول الكريمﷺ الذي ينطق بأمر الله ووحيه، مذكرا قريشا بهزيمتها في بدر معددا قتلاها .. وإذا كانت هذه الأبيات متنازعا عليها، فهي تنسب لكعب بن مالك ولحسان بن ثابت، أو لعبد الله بن رواحة[٨٢] فسبب ذلك يعود الى الحدث المشترك الذي شهده المسلمون، وهو استشهاد حمزة رضي الله عنه عم النبي ﷺ ورثاء المسلمين له، وأحساسهم بالفاجعة لفقده، واحتمال رثاء الشعراء الثلاثه له، مع اشتراكهم بالمعاني الإسلامية في الرثاء التي تمثل بحد ذاتها معاني الصبر والسلوان لفقد الشهيد في الإسلام .

وتبقى أشعار ابن رواحة ومقطوعاته التي قالها متحمسا أو معبرا عن مواقف حاسمة في حياته وحياة المسلمين أروع أشعاره من حيث صدق العاطفة، وتصويرها لأحاسيسه، وانفعالاته مصورة ظروف الامة، واندفاع المؤمنين بالعقيدة في الدفاع عن الرسالة السماوية بسيوفهم وأموالهم، وأشعارهم . ولا تمثل الأشعار التي وصلت إلا جزءا يسيراً من أشعاره، لأن الكثير منها قد ضاع ولم يصل الينا .

وإذا أردنا ان نتبين ميزات أشعاره على قلة ما وصل منها وجدناها متمثلة بكونها مقطوعات قصاراً وليست قصائد طويلة، وهو يميل إلى الرجز أكثر منه الى القصيد بسبب ارتباطه باحداث الحرب، والنزال وصلاحية الرجز لمثل هذه المواقف معروفة.

لم يصل من نقائض عبد الله بن رواحة مع قيس بن الخطيم إلا قصيدتان الأولى ستة وعشرون بيتاً، وهي أطول ما وصل من شعره الجاهلي والإسلامي، والثانية في خمسة عشر بيتاً، وأطول قصيدة من شعره الإسلامي هي قصيدته التي قالها في رثاء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فأين شعره الذي امتدحه الرسول ﷺ وأنه لا يقول فيه رفثا؟ يبقى الحكم على أشعاره إذاً بأنها مقطوعات فقط حكما قائما على ما وصل إلينا من شعره. وبناءاً على هذا فلا داعي للحديث عن مقدمات قصائده، ما

دامت لم تصل إلينا.

أما لغته الشعرية فهي تعتمد على الألفاظ والتعابير السلسة السهلة الممثلة للغة المدينة من ناحية، والمستمدة من العقيدة الإسلامية من ناحية أخرى. إن لغته الشعرية مفعمة بالروح الإسلامية، فكثرت فيها ألفاظ الإسلام، والمسلمين، والجنة والثواب. والرسول والنبي، والنبوة، والجهاد، والجنة، والهدى.

ويكاد شعره -كما يقول وليد قصاب- أقرب إلى الكلام العادي في خفته وقرب مأخذه، وسهولة تناوله، فهو شعر خالٍ من الصنعة والتفنن، ولعل سبب ذلك أنه شعر غلب عليه الارتجال(٨٣).

أما الإيقاع فقد لجأ إليه ابن رواحة بشكل يعكس الثقة بالنفس والعقيدة الصادقة، إنه إيقاع متلازم مع الصورة الفنية التي يجتزئها ابن رواحة، لتكون معلقة بالفكرة الإسلامية كقوله (نجالد الناس عن عرض فنأسرهم) اجتزأ فيه صورة الحرب والنزال والمجالدة (فنأسرهم)، ويرتبط بانتقالة سريعة (فينا النبي، وفينا تنزل السور).

وتمتلك مقطوعاته وحدة فنية يتعلق فيها البيت بالذي يليه، ليكون من ثم صورة واحدة متكاملة، فأبياته الهمزية تبدأ بالبيت الأول (إذا أدّيتني...) بخطّاب للناقة يمنحها الحياة الإنسانية في تخييرها بحمله إلى الجهاد ومنحها شرف الكمال في المدح، لتتوالى بعد ذلك الصور المستقبلية: جاء المسلمون، ردّك... هنالك لا أبالي.

أما هجاؤه للمشركين فهو قليل، وماوجد منه بعيد عن الفحش، ونراه لا يصلح للهجاء من خلال اخفاقه في اختيار الصور التي تحط من قيمة مهجويه. ويصدق هذا على شعره الذي قاله قبل الإسلام وبعده .

وأما عاطفته فقد تجلت في أراجيزه وأشعاره المفردة التي تمثلت معاني الإسلام، وتغنت بالشهادة والرغبة في الجهاد .

رفع المسهم

٢- دراسة تفصيلية لشاعرين قل تأثرهما بالإسلام:

يذكر الشاعران الحطيئة ومتمم بن نويرة حين يذكر شعر البادية الذي قل تأثر شعرائه بالإسلام وبالحياة العربية الجديدة بعد قيام الدولة العربية الإسلامية. وعد الحطيئة ومتمم بن نويرة من شعراء البادية الذين لم يتأثروا بالإسلام.(٨٤)

أما الأول فلا نعدم أشعارا في ديوانه فيها اثر إسلامي، ولعل عده من شعراء البادية الذين لم يتأثروا بالإسلام ليس من خلال النظر إلى أشعاره أو مفرداته اللغوية، وإنما بسبب الحكم على سلوكه الذي بدا غير أخلاقي، ولا منسجم مع مبادئ الإسلام وما وصف به من انه كان فاسد الدين أو رقيق الدين كما سنذكر بعد قليل .

وأما متمم فقد ذكروا أنه أسلم، وحسن إسلامه، وإنما يدرج هنا بسبب كون أشعاره سائرة على نهج شعراء ما قبل الإسلام من حيث لغتها أو اخيلتها وتشبيهاتها ومعانيها دون ان نلمح في سلوكه أو اخلاقه ما يشين، أو ما يدل على مخالفته لأوامر الدين أو الدولة آنذاك . وبذا يمكن ان يدرس هذان الشاعران ليكونا النموذجين للشعراء الذين ساروا على ما اعتادوا عليه في حياتهم قبل الإسلام، حتى بدت بعض الأحداث التي سنعرضها في حياة الحطيئة وكأنها حدثت في العصر الجاهلي. ولولا وجود إشارة إلى اسم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حادثة الحطيئة مع الزبرقان لقلنا إنها حدثت قبل الإسلام، ولولا ما هو معروف عن سبب مقتل مالك بن نويرة أخي متمم لقلنا إنه قال قصيدته قبل الإسلام، بسبب كونها منقطعة فكريا عن العصر الإسلامي الذي قيلت فيه، وعن الحدث الذي قتل فيه أخوه مالك، إذ قتل مع المرتدين .

وبذا تلزم دراسة مثل هذين الشاعرين ليكونا انموذجين لشعراء آخرين نجعلهم مقابل أشعار شعراء عرب عاشوا في خضم الأحداث التي حدثت بعد الإسلام نعني بهم شعراء الدعوة و الفتوح الذين نستطيع من خلال أشعارهم ان نسجل الحدث الذي قيلت فيه .

رفع المسهم

أ – الحطيئة:

تبدو أهمية دراسة الحطيئة من خلال ثلاثة محاور:

الأول: في يعد فيه الحطيئة امتدادا لمدرسة فنية أو لمجموعة من الشعراء الذين كانوا قبل الإسلام عنوا بصياغة أشعارهم وتهذيبها وتنقيتها وتنقيحها واجادة نظمها لغة وأسلوبا ومعاني . فهو امتداد لمذهب أوس بن حجر، وبشامة بن الغدير، وزهير بن أبي سلمى، وكعب بن زهير.

الثاني: ما عرف عن الحطيئة من ميله إلى الهجاء وتكسبه به.

الثالث: تنقله بين القبائل مدعيا النسب يمدح هذه القبيلة إن رضي عنها، ويهجوها 'ن تنقل بنسبه الى قبيلة اخرى .

أما المحور الاول فلن نقف عنده مادام ممثلا لاتجاه فني عرف في عصر ماقبل الإسلام، ودرس في حينها .

وأما المحوران الآخران فلابد أن نبدأ بمناقشتهما وتحليلهما من خلال عرض أقوال العلماء والنقاد والمحدثين في هذا الشاعر. لقد وصف الأصمعي الحطيئة فقال: (كان الحطيئة جشعا سؤولاً ملحفا دنيء النفس، كثير الشر قليل الخير، بخيلا، قبيح المنظر رث الهيئة مغموز النسب فاسد الدين). (٨٥)

وفي رواية أخرى الاصمعي شعراً أنشد بين يديه، فقال: (افسد مثل هذا الشعر الحسن بهجاء الناس وكثرة الطمع). (٨٦)

وتحدث عنه أبو الفرح الأصفهاني، وذكر انه كان من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم .... ثم أضاف واصفا أخلاقه وصفاته المشينة بقوله : وكان ذا شر وسفه، ونسبه متدافع بين القبائل، وكان ينتمي الى كل واحدة منها اذا غضب إلى الأخرى. (٨٧)

هذه نماذج لبعض الروايات القديمة، وقد تابعهم المحدثون في ذلك مع وجود من اشار الى مبالغة القدماء في وصفهم للحطيئة. (٨٨)

أما ناشر الديوان ومحققه فقد دافع في أكثر من موضع في مقدمة الديوان التي درس فيها حياة الحطيئة وأدبه فقال : (إن الحطيئة رغم أقوال المؤرخين القدامى لم

رفع المسهم

يكن يخلو من صفات أقل ما يقال فيها إنها لا تخرج من إطار الإنسانية العام الذي كاد ينتزعه منه المؤرخون الأقدمون انتزاعا).[٨٩]

ونبدأ بأول رسم رسمه القدماء وبعض المحدثين، وهو وصفهم لجشعه وطمعه، وتنقله بين القبائل يمدح هذه، ويهجو تلك، ثم ينتقل هاجيا من كان مدحه دون أن يستشعر بشيء من الوفاء لممدوحيه السابقين، ولا يعتوره خجل من تراجعه عن مواقفه السابقة، وتذبذبه بين المدح والهجاء. ويعلل الدكتور شوقي ضيف مبالغة القدماء والمحدثين في تشويه صورة الحطيئة، وذم مواقفه في هجاء الناس بأن حادثة الزبرقان هي التي شوهته[٩٠]. أما محقق الديوان فانه لم ينظر الى هذه الحادثة على أنها ليست دليل دناءة الحطيئة فحسب بل نراه يقول :

(إن الحطيئة لم يذنب بشأن الزبرقان، وان الحادثة في غير حاجة الى هذا التهويل.[٩١])

ولابد إن نعود هنا إلى حادثة الحطيئة مع الزبرقان لنتتبع مختلف الروايات التي أشارت إليها، ونعرف ما إذا كان الحطيئة قد أساء الأدب أو أظهر جشعا ودناءة لممدوح سابق له .

وبغض النظر عن الخلاف الذي ورد في الروايات المتعددة الذي يتعلق بأمور جانبية تخص الحادثة المذكورة بأن الحطيئة التقى بالزبرقان، وسأله الأخير عن وجهته فعلم انه يريد العراق – وكان آنذاك في المدينة – فأخبره الزبرقان بأنه إذا قبل جواره كفاه الحاجة طول عمره، وأرسل معه كتابا إلى زوجته، وقيل إلى أمه في العراق لتكرمه، وانها فعلا أكرمته وأحسنت وفادته، إلا أن ذلك أغاض بني انف الناقة لأنهم حسدوا الزبرقان على جواره لشاعر مشهور مثل الحطيئة، وكانت بينهما منافسة وخصام فعملوا على التقرب من الحطيئة ليتحول إليهم، مصورين له الأمر بان زوج الزبرقان لم تحسن ضيافته، ولم تعطه حق قدره، فكان يجيبهم (لست بحامل على الرجل ذنب غيره، فإن تُركتُ وجفيت، تحولت إليكم، فأطعموه ووعدوه وعدا عظيما) . وقيل إن ابنة الحطيئة مليكة كانت جميلة، وإن امرأة الزبرقان كرهت مكانها فظهرت لهم منها جفوة على حد تعبير ابن سلام [٩٢]

إلا أن أبا الفرج الأصفهاني يروي المقطع الأخير من القصة منسوبا إلى ابن سلام

أيضا بأن الحطيئة حين لم يجب بني انف الناقة على طلبهم دسوا إلى هنيدة زوجة الزبرقان أن زوجها يريد ان يتزوج ابنة الحطيئة مليكة، وكانت جميلة كاملة، فظهرت للحطيئة جفوة وهي في ذلك تداريه (٩٣).

وأخيرا نجح بنو أنف الناقة في احتوائهم الحطيئة، وأخذه إلى جوارهم، وأرادوا تحريضه على هجاء الزبرقان فقال لهم :لست بهاجيه، ولا ذنب له فيما صنعت امرأته، ولكني ممتدحكم، وذاكر ما أنتم له أهل. وهكذا يحاول الحطيئة أن يتهرب من هجاء الزبرقان متعللا بالعلة السابقة نفسها في أن لا ذنب للرجل فيما جنته امرأته، إلا أن الزبرقان يرسل إلى رجل من بني النمر بن قاسط ليهجو بغيضا، وفي هجائه لهم يعرّض بالحطيئة وأن بني انف الناقة لا شرف قديم لهم ولا حديث سوى أن الحطيئة نزل فيهم وامتدحهم. (٩٤)

وحين يبلغ الخبر الحطيئة لا يبادر إلى هجاء الزبرقان أو شتمه، بل نراه يعاتبه عتابا رقيقا لا شتيمة فيه، فيقول :

ألم أكُ نائـــــــيا فدعوتمونـــــــي
فجـــاءَ بـــي المواعـــدُ والدعـــاءُ

ألم أكُ جـــــــارَكم فتركـــــــتموني
لكلـــــبي في ديـــــاركمُ عـــــواء

وآنيـــــت العشـــــاء إلى ســــهيلٍ
أو الشّـــعرى فطـــالَ بـــي الإنـــاءُ

فـــلما كنـــتُ جـــارَكُمُ أبيـــتمْ
وشـــرّ مواطـــنِ الحســـدِ الإبـــاء

ولمـــا أنْ مدحـــتُ القـــومَ قلـــتم
هجـــوتَ ولايحـــلُّ لـــك الهجـــاء

ألـــم أكُ مســــلما فـــيكونَ بـــيني
وبيـــــنَكمُ المـــودةُ والإخــــاء

فـــلم اشـــتم لكـــم حســـبا ولكـــن
حَـدوتُ بحيـثُ يُسـتمعُ الحِـداء (٩٥)

فالحطيئة هنا لا يهجو الزبرقان، ولكنه يذكره بجفاء زوجتـــه له، وتباطؤها عنه ثلاثة أيام صور فيها حـاله في انتظار رسولها، وأمله في معروفها، وكيف انه كان يؤخر العشاء إلى طلوع سهيل أو الشعرى – وهما يطلعان في آخر الليل أو في النصف – ثم انـه صـرح بأنه ماهجا الزبرقان لأن الذي بينهما هو المودة والإخاء، فهو مسلم ربطته مـع آل الزبـرقان رابطة الجوار، وما تحمله من مؤاخاة ومودة. أما ما قاله في مديح آل بغـيض، فهـو لـيس شـتيمة للزبـرقان، ولا نـيلا لعرضـه، إنما هو مديح للقوم مقابل إكرامهم ورعايتهم له ولأهله .

هـذه قصـة الحطيئة مع الزبرقان مجملة، وهي لا تدل مطلقا على سوء أخلاقه أو لـؤم طبعه، لأنـه لم يطعـن الزبـرقان، ولم يهجه حتى بعد انتقاله إلى جـوار آل بغيض وإكـرامهم له، وانـه لـو كـان طماعا دنيئا، لاستجاب لآل بغيض منذ أن أغروه بالمال والجاه ولأعـانهم عـلى هجـاء الزبـرقان . لم يتسرع الحطيئة في هجاء الرجل أو ذمه. وأكـبر دليل على ذلك أن الزبرقان نفسه طالب بني بغيض – في إحدى الروايات– أن يعـيدوا إلـيه جاره الحطيئة، ولما كادت الحرب أن تقوم بين الحيين اشتكى الزبرقان آل بغيض عند الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحكم الخليفة بأن يخرج الحطيئة حتى يقام في موضـع خـال بـين الحيين، ويخلى سبيله، فيكون جار أيهما اختار، ففعل ذلك فاختار الحطيئة بـني أنـف الناقة(٩٦)، وواضح ما في هذه الرواية من سمات الوضع والزيادة التي يبعدها عن الحقيقة رسمها لمشهد وضع الحطيئة في مكان بين الحيين، ليختار بنفسه دون ضغوط، وكأنه حيوان أو بهيمة، لا تستطيع الكلام، اوالتفاهم، فتوضع في مكان ما، لتختار أي مرعى تسرح فيه .

رفع المسهم

أقـول مـع هـذه الـلمحات المضافة إلى القصة فإنها دليل على أن الحطيئة لم يكن قليل الوفـاء أو عديمـه، ولـو كـان كذلـك لما طالب الزبرقان بإعادته إليه، وإنما نراه يشتكي في هذه الرواية، لأنه يعلم حق العلم بأن آل بغيض هم الذين حملوه على ترك جـواره والانـتقال الى جوارهـم كسبا للشـهرة التي قد تأتيهم من مديح الحطيئة لهم . وتتم الرواية الخبر من أن الزبرقان سأل الحطيئة بعد أن اختار آل بغيض : يا أبا مليكة، أفارقت جواري عن سخط أو ذم ؟ قال : لا (٩٧)

وحـين يشـتد الأمر بين الزبرقان وآل بغيض، ويضطر الحطيئة الى هجاء الزبرقان نجده يقـدم الأعـذار تلو الأعذار في مدائحه الأولى لآل بغيض، بأنهم هم الذين آووه وأطعمـوه وأكـرموه بعـد أن عـانى من أذى الفقر والحاجة والجوع. وهو يصور حاله حـين تركـته زوجـة الزبـرقان ينـتظر أياما، قلقا ذليلا جائعا، حتى آوى إلى آل بغيض فاجـبروا كسـره وأكرموه بعد ذل ومهانة، وأحسنوا إليه بعد أن كان لا يعرف الشبع. يقول بعد أبيات في مديح آل بغيض مخاطبا الزبرقان:

قَـروْا جـارَكَ العَـيْمانَ لَمّـا تركـتَه
وقلَّـصَ عـنْ بَـردِ الشَـراب مشـافِرُه

سِـنامًا ومَحْضًـا أنبـتَ الـلحمَ فاكتسـتْ
عظـامُ امرِئٍ مـا كانَ يشبَعُ طائرُه (٩٨)

ألمْ أكُ مسـكينًا إلى الله راغـبـا
عـلى رأسـه أن يظـلم الناس زاجره (٩٩)

ومع ما في الشطر الأخير من جمال الرمز والتعميم في المعاني اختلف في تفسيره، فقـال أبـو عمرو بن العلاء : يزجره من أن يظلم أحدا . وقال الأصمعي: على رأسه تقـوى مـن الله ان يظـلم الـناس .وقـال ابن الأعرابي :عني بالـزاجر شيبه وكبر سنه. وقـيل: بـان الزاجـر عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمنعه خوفه منه من ظلم الناس فكيف يظلم الزبرقان .

رفع المسهم

ومع ذلك تبقى الأبيات صورة لمدائح الحطيئة لآل بغيض وعدم هجائه للزبرقان واكتفائه بمثل هذا الاعتذار الجميل .

أما في قصائده التي تلت هذه المرحلة في تصريحه بالهجاء لآل الزبرقان، فأننا لا نجد سلاطة لسان كما وصفوا بها الحطيئة، ولا نجد فحشا ينكر إيراده في هجائه، ولا بذاءة كالتي ترد عن شعراء قالوا في الهجاء ابتداءاً بأوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى ثم حسان بن ثابت وغيره من شعراء المسلمين الذين افحشوا أحياناً في هجاء قريش أيام كفرها وفجورها. وفي هذا يقول الدكتور طه حسين: (ومن غريب الأمر انك لا تجد لهذه الشخصية المنكرة في شعر الحطيئة أثرا منكرا مثلها، فهم يقولون انه كان مسرفا في الهجاء حتى أنه هجا نفسه، وهجا أمه وأباه، ولكن هذا فيما نظن من غلو الرواة. وقد كان الحطيئة هجاءاً ولكن هجاءه أقل فحشا من هجاء استاذيه أوس وزهير فلهذين الشاعرين من الهجاء ما نستحيي أن نورده في هذا الكتاب. فأما هجاء الحطيئة، فهو ينال الناس من قبل منزلتهم الاجتماعية، وما كان العرب يحمدونه أو يكرهونه[١٠٠]).

أما هجاؤه لأمه أو لأخواله، وتنقله في نسبه بين القبائل بشكل يظهر فيه أنه لا يثبت له قرار، ولا يمكنه الانتساب إلى واحدة منها فإنها، من جملة أمور أخذت على الحطيئة ولابد أن نتحدث عنها سوية .

. وصف أبو الفرج الاصفهاني الحطيئة بقوله (وكان ذا شر وسفه نسبه متدافع بين قبائل العرب، وكان ينتمي الى واحدة منها اذا غضب على الأخرى).[١٠١] ووصفه مرة اخرى بقوله :

(وكانوا يقولون بأن الحطيئة اذا غضب على بني عبس يقول انا من بني ذهل، واذا غضب على بني ذهل قال:انا من عبس)[١٠٢] .

وإذا عدنا إلى أخبار الحطيئة وعلاقته ببني عبس أو بني ذهل نجد أن نسبه كان متدافعا حقا بين القبيلتين، فهو لا يعرف له أباً على وجه الحقيقة، وإذا أراد معرفة ذلك بالاستفسار من أمه خلطت عليه الأمر، فيقول مصورا ذلك أجمل تصوير ذاكرا يأسه من معرفة أبيه :

رفع المسهم

تقـولُ لــي الضّــراءُ لســتَ لواحــدٍ

ولا اثـنين فأنظـر كـيف شِـركُ أولـئكا

وأنــت امــرؤ تــبغي أبــا قــد ضـللته

-هُبلـتَ- ألّما تستفقْ من ضلالكا (١٠٣)

فهـذان البيـتان يصوران حقيقة موقف الحطيئة في قلقه في الانتساب إلى قبيلة من القبائل مادامـت أمه نفسها لا يقر لها قرار، ولا تستطيع أن تهديه وتطفيء ظمأه فيما يخص معرفة أبيه.

فهو حين يمتدح بني ذهل وينتسب إليهم، فلأنه بلغه أن أباه فيهم، وحين يسيئون معاملته يغضب، ليمتدح بني عبس، لأنه قيل له أيضا إن أباه فيهم ...

وهكذا لم يكن الحطيئة صحيح النسب معروف القبيلة، ليقول عنه النقاد والأدباء بأنـه لم يخلـص لقبيلـته، ولم يثبت له ولاء، ولو صدقته أمه القول لبقي في قبيلته يدافع عنها وتحميه.

أمـا حـين يشـعر بـالقلق لعـدم وجود رابطة قوية بينه وبين الآخرين، فان ولاءه يـلحقه القلق والتذبذب وفق معاملة القبيلة له واعترافها به. وفي هذا وذاك لا ذنب له فيما جنته أمه، وفيما يعانيه من تشرد وضياع بين القبائل.

فالحطيئة إذن لم يكن ابنا اعتياديا لامّ برةٍ عطوف بل هو ابن معذب يشعر بالمعاناة مما لحقه من خطأ أمه، فهو حين يهجوها يدعو عليها بأن تلاقي العقوق من أبنائها فيقول :

جــزاكِ اللهُ خــيراً مــن عجــوز

ولقّــاكِ العقــوقَ مــن البــنينِ

لســانُكِ مِــبردٌ لم يــبقِ شـيئاً

ودرُّك درَّ جاذبــــةٍ دهــــينِ

وان تخلـــي وأمـــرَك لا تصـــوني
بمشـــتدٍ قـــواهُ ولا مـــتين (١٠٤)

ويقول فيها أيضا مصورا غضبه عليها :

تـــنحَّي فاجلســـي عـــني بعـــيدا
أراحَ الله مـــنـــكِ العـالمـيـــنا

أغـــربالاً إذا اســـتودِعتِ سِـــرّا
وكـانونـــاً عـــلى المتحدثيـــنا ؟

ألم أوضـــحْ لـــك البغضـــاءَ مـــنّي
ولكـــنْ لا أخـــالُك تعقليـــنا

حـــياتُك مـــا علمـــتُ حـــياةَ ســـوءٍ
وموتُـــك قـــد يســـرُّ الصـــالحينا (١٠٥)

وحـين نقـرأ بـأن الحطيئة هجا زوج أمه، ونبحث عن السبب نعرف انه لم يهجه بسبب روح شريرة مسيطرة عليه، ولم يشتمه لشعوره بالبغضاء لكل الناس أو لما جبل عليـه مـن سـلاطة لسـان وبذاءة قول، بل هجاه وهجا أمه، لأنها شاءت أن تزيد من معاناتـه وشـعوره بالضـياع والحطّـة والذل فيما يخص نسبه. شاءت أمه أو قُدِرَ لها أن تـتزوج مـرة أخـرى مـن رجل دعيّ مطعون في نسبه فزادت الطين بلة – كما يقال – وأضافت إلى الطعنات الموجهة إليه طعنة أخرى وشتيمة ثانية، هي أن أبا اخوته وزوج أمه الجديد لقيط .

وكـل هـذه الأحـداث قـد حدثـت في الجاهلية ولكن أثرها بقي في حياة الحطيئة وسلوكه.

أمـا مـا ذكـر مـن هجائه لأبيه وعمه، فأنه يستحق الوقفة بعد أن ذكرنا شكه في معرفة أبيه، وامتناع أمه عن الإدلاء بذلك، فقد قيل بأن الحطيئة هجا أباه وعمه وخاله بقوله:

رفع المسهم

لحـاكَ الله ثـم لحـاكَ حقّـاً
أبـاً ولحـاكَ مـن عـمّ وخَـالِ

فـنِعمَ الشـيخُ أنـتَ عـلى المخـازي
وبـئسَ الشـيخُ أنـت لـدى المعـالي

جمعـتَ اللـؤمَ لاحـيّاك ربـي
وأبـوابَ السفاهةِ والضـلال (١٠٦)

ترى كيف يهجو أباه وعمه إذا كان يجهلهما ....؟

أغلب الظن أن شعوره بالمرارة والخيبة هو الذي دفعه إلى مثل هذا القول، وإلا فإن معرفته لأبيه تجلي موقفه عن حقيقة نسبه وولائه إذا صح ذلك .

وأخيرا يبقى من الأدلة على بذاءة لسان الحطيئة وهجائه السليط ما وصفه أبو عبيدة بقوله: كان الحطيئة بذئيا هجاءاً، فالتمس ذات يوم إنسانا يهجوه فلم يجده، وضاق عليه ذلك فأنشأ يقول :

أبـتْ شـفتاي الـيوم إلاّ تكـلمًا
بشـرٍ فمـا أدري لمـن أنـا قائلُـه

وجعل يدهور هذا البيت في أشداقه، ولا يرى إنسانا إذ طلع على رِكيّ أو حوض فرأى وجهه فقال :

أرى لـي وجهـا شـوّه الله خَلْقَـه
فقُـبِّحَ مـن وجـهٍ وقـبّحَ حاملُـه (١٠٧)

هذه الصورة التي رسمها أبو عبيدة للحطيئة تصور شاعرنا هجاءاً بذيء اللسان لا ترتاح نفسه، ولا تستقر إلاّ إذا قال هجاءاً وبالغ فيه، ونحن نرى فيها غير ذلك، لان ديوان الحطيئة لا يعطي هذه الصورة مطلقا، فلم يكن الهجاء الغرض الوحيد الذي

رفع المسهم

قال فيه، ولم يقصر عليه القول دون بقية أغراض الشعر الأخرى، وأبو الفرج الأصفهاني نفسه الذي روى الرواية السابقة يقول في وصف إجادة الحطيئة في كل فنون الشعر: (وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متصرف في جميع فنون الشعر في المديح والهجاء والفخر والنسب مجيد في ذلك أجمع).(١٠٨) وعلى هذا فان البيتين السابقين لا يدلان على بذاءة لسانه، بل هما دليلان على روح سخرية أصيلة في نفس الحطيئة، فهو من أولئك الناس الذين أحسوا ببشاعة خلقهم، فلم ينطووا على نفوسهم، ولم ينزووا عن العالم، بل حاول أن يتغلب على هذه العاهة، ليبدو أمام الناس غير مبال بها فهجاء الحطيئة لنفسه ووصفه لشكله يجب أن لا يؤخذ مأخذ الجد.

أما هجاؤه لزوجته فلا يمكن أن يحمل إلا على محمل الهزل والسخرية أيضا، لأن علاقته بزوجته كانت علاقة طيبة، وأن عاطفة جميلة تربط بينهما . ذكروا من هجائه لها قوله :

أطوّفُ ما أطوّفُ ثم آوي
إلى بيت قعيدته لكاعِ (١٠٨)

وهناك رواية تتسم بالظرف والنكتة اللتين جبل عليهما الحطيئة فقد قيل أن رجلا دخل عليه وهو مضطجع على فراشه، والى جانبه سوداء قد أخرجت رجلها من تحت الكساء فقال له: ويحك أ في رجلك خف؟، قال : لا والله، ولكنها رجل سوداء، أتدرى من هي ؟ قال:لا . قال: هي والله التي اقول فيها :

وآثرتُ ادلاجي على ليلِ حرةٍ

وذكر البيتين. والله لو رأيتها يا ابن أخي لما شربت الماء من يدها . قال: فجعلت تسبُّه، وهو يضحك (١٠٩)

أقول أن هجاءه لزوجه لابد أن يحمل على الدعابة والظرف، لأن أخباره الأخرى تبين تعلقه بأهله، زوجه وبناته. فقد ذكر أبو عبيدة بان الحطيئة أراد سفرا فأتته امرأته، وقد قدمت راحلته ليركب فقالت :

رفع المسهم

أذكــرْ تحنُّنَــنا إلــيكَ وشــوقَنا

واذكــرْ بــنائك إنهــنّ صــغارُ

فقال : حطوا، لا رحلَتُ أبدا. (١١٠)

ونجد أروع الأشعار الإنسانية في شعر الحطيئة الذي يصور فيه أبناءه الصغار وفقرهم، وحاجتهم إلى المال . وقصيدته المشهورة التي وجهها إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو في حبسه بعد أن استعدى عليه الزبرقان، هذه القصيدة خير انموذج على إنسانية الحطيئة في علاقاته بأهله وأبنائه . فهو يستعطف قلب الخليفة بتصويره لأبنائه الصغار الذين ينتظرونه، ليعيلهم ويسد رمقهم فيقول:(١١١)

مــاذا تقــولُ لأفــراخٍ بــذي مَــرَخٍ

زغــبِ الحواصــلِ لا مــاءٌ ولا شــجرُ

غَيّبــتَ كاســبهم في قعــر مظــلمة

فاغفــرْ علــيك ســلامُ اللهِ يــا عُمــر

أنــتَ الأمــينُ الــذي مــن بعــد صاحبه

ألقــتْ إلــيك مقالــيد الــنهى البشــر

ثم يصف ضعفهم وفقرهم وما يتعرضون له من أذى البرد ويصور بإنسانية رائعة بعده عنهم، وحنينه إليهم وقد نفي في حبسه، وبينه وبينهم صحراء كبيرة تنقطع فيها اخبارهم عنه :

فأمــنُنْ عــلى صــبيةٍ بالــرَّملِ مســكنُهم

بــين الابــاطحِ يغشــاهُمْ بهــا القــررُ

اهلــي فــداؤك كــم بــيني وبيــنَهمُ

مــنْ عُــرضِ دويّــةٍ يفــنى بها الحجرُ(١١٢)

ويرق له قلب الخليفة، ويخرجه من السجن، ولكنه يمنعه من هجاء الناس . وفي رواية أخرى يشتري منه أعراض المسلمين . وهنا يسجل الحطيئة لمحات طريفة في وصفه لأبنائه الجياع بأنهم كانوا كثيرين كلهم يطالبه بالطعام، وأمهم جائعة مثلهم، وهو في هذا الوصف يريد ان يستعطف قلب الخليفة الذي حظر عليه هجاء الناس، وان شتمه ما عاد يضر أحدا كما أن مديحه لا ينفع أحدا. فماذا يفعل الحطيئة وهو لا عمل ولا موارد له، وعشيرته قد اخذوا حقه من النخيل، فهم يزرعون وينعمون بالزرع بعد ان حرموه حقه؟ :

يا أيها الملكُ الذي أمستْ له
بُصرى وغزةُ سهلُها والأجرُعُ

أو ملكها وقسيمُها عن أمرهِ
يُعطي بأمرِكَ ما يشاءُ ويمنعُ

اشكو إليك فَأشكِنِي ذريةً
لا يشبعون وأمُهم لا تشبعُ

كثروا علي فلا يموتُ كبيرُهم
حتى الحسابِ ولا الصغيرُ المرضعُ(١١٣)

نقول ربما كانت القصة الأخيرة هي السبب في وصف الحطيئة بهذه الصفة، وربما أيضا عرف في حياته شيئا من الحرص لا يصح أن نطلق عليه بخلا بمعني الكلمة الشامل، وقد تحدث نعمان طه أمين مسوغا بخل الحطيئة بقوله (وما بخل الحطيئة إلاّ نتيجة لحياته القاسية التي عاشها ولفقدان حقه في الميراث، بل حقه في أن يعرف من أبوه ليتمكن من أن يرفع رأسه عاليا بين أخوته وقومه وعشيرته، فالعقدة النفسية التي تاصلت في عقله الباطن، وسيطرت عليه قد علّمته أن المال هو كل شئ في الحياة وبذلك بدا في كثير من الأحيان طماعاً جشعاً على حد تعبير الأقدمين).(١١٤)

رفع
المسيا هم

وتعقيباً على هذا الدفاع نضيف أن المال لم يكن كل شئ في حياة الحطيئة، ولو صح ذلك لسعى لأخذ المائة ناقة أو الألف التي عرضت عليه في حالة قبوله هجاء زيد الخيل. إن الأمثلة التي ذكرناها سابقا تبين بان الرجل مع فاقته وسعيه إلى مدح الأشراف طلبا للمال الذي يقيم به حياته كان يحسب للوفاء حسابه وللكرامة مكانها .

لقد أسهمت أخبار الحطيئة وبعض أشعاره التي مرت بنا في وصفه بالبخل فقد كان ساخرا يحاول طبع حياته بالنكتة والسخرية، ليتخلص من تبعات الجد ويتهرب من شعوره بالضياع والذلة في مجتمعه، فكانت سخريته من ضيوفه من هذا الباب، مضافا إليها ما نقله الرواة من محاورة كانت بينه وبين رجل، وكان الحطيئة في حينها جالسا بفناء بيته فقال له : السلام عليك. فقال : قلت ما لا ينكر. قال : إني خرجت من عند أهلي بغير زاد . فقال :ما ضمنت لأهلك قراك. قال: أفتأذن لي أن أتي ظل بيتك فأتفيأ به؟ قال: دونك الجبل يفئ عليك . قال: إنا ابن الحمامة. قال : كن ابن أي طائر شئت، وانصرف. وواضح في هذه المحادثة طابع الظرافة والمزاح في تلاعبه بالألفاظ، وتغييره مسار الحديث والنكتة .

وتنسب للحطيئة قصيدة لطيفة لا نقول أنها تحكى قصة أعرابي فحسب، وإنما تحكي حياة الأعراب في البادية، وشظف حياتهم ومايقاسونه من جدب وفقر، يقابل هذا غنى في النفس، ورغبة طوعية جبلوا عليها، وهي الرغبة في إكرام الضيف، وقراه حتى لو شك بعض الباحثين في نسبتها تبقى ممثلة للغته الشعرية، ولنفسه البدوي.

قصيدة وتحليل

قال الحطيئة:

وطاوي ثلاثٍ عاصب البطنِ مُرْملٍ (١١٥)
ببيداءَ لم يعرفْ بها ساكنٌ رسما

أخي جفوةٍ فيه من الأنسِ وحشةٌ
يرى البؤسَ فيها من شراستِه نُعْما

وأفرد في شِعْب عجوزاً إزاءها
ثلاثةُ أشباحٍ تخالُهم بهمْا (١١٦)

حفاةٌ عراةٌ ما اغتذوا خبز ملّةٍ (١١٧)
ولا عرفوا للبر مُذْ خُلقوا طَعْما

رأى شبحاً وسط الظلامِ فراعَهُ
فلمّا رأى ضيفًا تشمَّرَ واهتمّا

فقال : هيا رباهْ، ضيفٌ ولا قِرى
بحقك لا تحرمه تا الليلةَ اللَّحما

فقال ابنه لما رآه بحيرة
أيا أبتي اذبحني ويسِّرْ له طعما

فروّى قليلاً ثم أحجَم بُرهةً
وإنْ هو لم يذبح فتاه فقد همَّا

رفع
المستهم

فبينا هُمُ عنَّتْ على البعد عانةٌ
قد انتظمت من خلفِ مسحلِها نظما (١١٨)

فأمهلَها حتى تروَّت عطاشها
فأرسلَ فيها من كِنانته سهما

فخرّتْ نحوصٌ ذاتُ جحشٍ سمينةٌ
قد اكتنزتْ لحماً وقد طبقّتْ شحما (١١٩)

فيا بشره إذْ جرَّها نحو أهلِه
ويا بشرهم لما رأوا كَلْمها يدمى (١٢٠)

وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفِهم
وما غرموا غُرْماً، وقد غنموا غنما (١٢١)

وبات أبوهم من بشاشته أبا
لضيفهم والأمُّ من بشرها أما

تحليل القصيدة:

تصلح القصيدة لتكون صورة لحياة العربي في الصحراء حيث الفقر والحاجة والجدب يقابلها كما قلنا غنى في النفس، وتسارع لإطعام الضيف، وتربية وتنشئة ينشأ فيها الصغار، وفيهم رغبة في إكرام الضيف كائناً من يكون، وعلى أي حال يكونون فيه من الغنى، أو العدم. أن في لغة القصيدة شبهاً بقصائده التي قالها في آل بغيض التي صور فيها حاله، وقد ترك في انتظار عودة الزبرقان لإكرامه، وعتابه الزبرقان يحمل بعض هذه السمات أيضا، وأسلوبها يميل نحو السلاسة من ناحية والجزالة والقوة من ناحية أخرى. تبدو لغته سهلة بسيطة حين يكون الحديث حواراً بين

الأعـرابي وابـنه وبـين نفسـه، وتغلـظ لغته وتخشن حين تعبر عن أوصاف البادية، أو بالأحـرى حـين يصف قطيع الحمر الوحشية، وتعود لغته إلى سلاستها حين ينتقل إلى وصف مشاعر الأعرابي وقد عاد محملاً بالصيد الذي سيطعم منه ضيفه وأهله.

اعتمد الحطيئة في هذه القصيدة أسلوب الحكاية التي مهد لها بالحديث عن نفسية هذا الأعرابي الذي انفرد بعائلته في مكان ما في صحراء موحشة لا يسكنها غيره بحيث انـه حين رأى شبحاً قادماً استغرب أمره، وراعه مشهده من بعيد، لأنه لم يألف ساكناً في أرضـه. ويقتـبس الشاعر من قصة النبي إسماعيل عليه السلام في القرآن الكريم ما يـرفد بـه حكايته حركة وانفعالا حين يقدم الابن نفسه ليذبحه أبوه وهو وان لم يفعل، لكنه همَّ، وهنا أيضاً يقتبس الشاعر لفظ (همَّ) التي يبدو أن فيها شيئاً كثيراً من دلالة اسـتخدامها في القـران الكريم في قصة النبي يوسف عليه السـلام﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسـف:٢٤]، وبـرهان الأعرابي هنا ان يرى قطيعاً من الحمر الوحشية تقدم منتظمة لترتوي من الماء .

عمد الشاعر إلى جمع المعاني المتقابلة من خلال صور متعـددة، ليبرز المعنى الذي يـريد تصـويره، فيحـيط الأعـرابي بإطـار التفرد والغربة والفقر والجوع بحيث يتحول أبناؤه إلى شبه أشباح، ليقابل هذه الصورة برغبته بالكرم، وشعوره بالمسؤولية إزاء هذا الضيف الذي طرأ عليه. وصورة أخرى للتقابل نجدها في حشد معاني التلهف للصيد والحصول عليه تقابلها صورة من يتمهل، ولا يتعجل للحصول على الصيد، لأنه إزاء مشـاعر انسانية لهذا الأعرابي الذي يترك الحمـر ترتـوي، ولا يفزعها بسهمه إلا بعد ان يتـيقن مـن ريّها . والصورة الثالثة هي صورة الغنيمة المدماة التي يفترض أن يكون مـنظر الـدم فيها غير جميل أن لم نقل بشعا، لكن الشاعر أفلح في جعلها مقابلة لسرور أهله حين رأوا جرح الغنيمة يدمى، لأن مشهدها يعلن حسم الموقف في إكرام الضيف منها.

يـنهي الحطيـئة الحكاية، وتبقى في أذهاننا صورة لإنسانية هذا الاعرابي وأخلاقه العالية، وكرم نفسه مع فقره وحاجته .

ومـن خـلال هـذه اللقطـات السـريعة من شعر الحطيئة تبين لنا أنه شاعر بدوي اسـتمرت حـياته بعد الإسلام على النمط نفسه الذي كانت عليه قبله. وما الأحداث

رفع المسهم

التي عرضنا لبعضها، والتي صورها في أشعاره إلا مصداق لحياته التي لم يظهر فيها اثر لمتغيرات الحياة العربية الإسلامية . ولعل سبب ذلك عائد إلى نشأته الخاصة، وما صاحبها من شك في نسبه مما ترك أثره على سلوكه وشخصيته. وقد فسر لنا هذا اتجاهه نحو الهجاء، كما عللت لنا أخبار ظروف تنقله في نسبه بين القبائل، وكل ما أشير في حياته وأشعاره إلى هذين الجانبين يكاد يبعد صورة الشاعر عن خضم الأحداث المهمة التي طرأت في المجتمع الإسلامي آنذاك، ولولا الإشارة التي ذكرت عن شكوى الزبرقان عند الخليفة عمر بن الخطاب وسجنه والعفو عنه لما وجدنا صدى للأحداث الإسلامية أو الحياة الإسلامية في شعره وسيرته. تضاف إليها إشارات أخرى ذكرت بشأن أبيات قالها في الردة (١٢٢)، وأخرى قالها في تأسفه على ضياع فرصة انخراطه في جيوش الفاتحين في العراق(١٢٣) وهي إشارة أبدى المحققون شكهم فيها.

وأخيراً نقول بأننا خلال قراءتنا الدقيقة لديوان الحطيئة، وأخباره سرعان ما تمحي القسمات القاسية، والظلال البشعة لوجهه القبيح الذي رسمه الأقدمون لتحل محلها صورة اعتيادية للحطيئة، الإنسان الذي تدفعه ظروف معينة الى الهجاء، ولكنه في الوقت نفسه لا يسف في هجائه، ولا يقذع ولا يتعرض لأعراض الناس، إنسان اعتيادي له علاقاته الطيبة مع أهل بيته، زوجه، أبنائه، وبناته، تربطه بهم رابطة إنسانية سامية مع ما عانى من ذل وأسى وحيرة جرتها إليه ظروف ولادته ونشأته. قسمات واضحة إلا أنها تفتقر إلى الجمال وهي لا تخلو من دمامة، فيحاول الشاعر ان يضفي عليها خطوطاً من السخرية والتهكم الذي قد يصل إلى درجة الضحك والقهقهة. هذا الوجه بجميع ظلاله، وقسماته وسيآته يمثل امتداداً لمذهب شعري معروف، هو مذهب زهير بن أبي سلمى الذي عني بتجويد الشعر، وحبك الصنعة ورصانة اللفظ، وجمال الأسلوب. ولا نرى في هذا الوجه إلا ظلالاً شاحبة من الروح الإسلامية المتناثرة في بعض أبياته، كل ذلك لان الحطيئة شاعر بدوي استمر على نهج حياته التي كان يعيشها في الجاهلية، وسايرت أشعاره حياته، إذ لم يكن من شعراء الدعوة أو الشعراء الذين هزتهم أحداث العصر، لذلك لم نجد أي تغيير يطرأ في لغته الشعرية كما لا نجده ذاكراً لحدث من الأحداث العامة في العصر الإسلامي.

ب- متمم بن نويرة اليربوعي :

هو متمم بن نويرة بن عمرو بن شداد من بني يربوع بن مالك من تميم . كان فارساً شاعراً قبل الإسلام، إلا أنهم قالوا عنه بأنه أسلم وحسن إسلامه [١٢٤] ولم تحدد سنة إسلامه، ولم يشترك فيما قام به قومه.

لقد شاع اسم متمم بسبب قصائده الرائعة التي رثى بها أخاه حين قتل في حروب الردة، وكانت له أخبار طويلة مع الخليفة أبي بكر ثم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بشأن مقتل أخيه واخذه ديته، [١٢٥] وأجاد متمم في بكائه ورثائه حتى وجدنا ابن سلام يفرد طبقة خاصة لأصحاب المراثي فى كتابه طبقات الشعراء، ويقدم متمماً بقوله : والمقدم عندنا متمم بن نويرة.[١٢٦] وقال أيضاً : وبكى متمم مالكا فأكثر وأجاد، والمقدمة منهن قوله:

لعمري وما دهري بتأبين هالكٍ ... ولاجزعاً مما أصاب فأوجعا[١٢٧]

وقد عدَّ الأصمعي هذه القصيدة ام المراثي [١٢٨]

وقال أبو العباس المبرد : ومن أشعار العرب المشهورة المتخيرة في المراثي قصيدة متمم بن نويرة [١٢٩] . وقال ابن الأثير معجباً برثاء متمم: (وأما متمم فلم يختلف في إسلامه . كان شاعراً محسنا، لم يقل أحد مثل شعره في المراثي التي رثى بها اخاه مالكا).[١٣٠] وقد قيل فى بيته المشهور :

لقد لامني عند القبور على البُكا

رفيقي لتذرافِ الدموعِ السوافِك

بأنه أرثى بيت قالته العرب، وانه أبلغ ما قيل في تعظيم ميت[١٣١]

وقد علّق ابن نباتة على هذه القصيدة أيضا بأنها من جيد مراثى متمم لمالك[١٣٢]

ويذكر ابن حجر رواية تعكس إعجاب الحطيئة بشعر متمم، ورثائه فقد ذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للحطيئة: هل رأيت أو سمعت بأبكى من هذا ؟ قال : والله ما بكى عربي قط، ولا يبكيه.[١٣٣]

رفع المساهم

هذا الإعجاب الكبير برثاء متمم مرده الى الروح الرقيقة الصادقة التي اتسمت بها نفسه، وانعكاس هذه الروح في أشعاره، والعاطفة القوية التي صبت أحزانه في أبيات شعرية ما إن تعيها الإذن حتى تمس شغاف القلب، وتحرك فيه أوتار الحزن، وتهيج ما كمن فيه من الأسى واللوعة .

لقد كان رثاء متمم يحرك في نفس الخليفة عمر كوامن الحزن على أخيه زيد الذي قتل في حروب اليمامة . وروي انه كان يقول : رحم الله زيداً ماهبت الريح من تلقاء اليمامة إلا أتتني برياه، وما ذكرت قول متمم إلا ذكرته، وهاج بي شجنا:

وكنا كندماني جذيمةَ حقبةً

من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرّقْنا كأني ومالكاً

لطول اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معا(١٣٤)

وذكر أنه حين انشده متمم قصيدته السابقة التي مطلعها :

لعمري وما دهري بتأبين مالك

ولا جزعاً مما أصاب فأوجعا

قال: هذا والله التأبين، ولوددت إني أحسن الشعرَ، فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك . فقال متمم : لو أن أخي مات على ما مات أخوك ما رثيته. فقال عمر: ما عزاني عن أخي بمثل ما عزاني به متمم.(١٣٥) وتمني عمر قوله الشعر ليرثي أخاه زيدا يجلي لنا حقيقة، هي أن العاطفة وحدها لا تكفي لإيجاد شعر قوي مؤثر، وإنما يجب ان تلازمها موهبة شعرية تنضح بالصدق والعاطفة. ومن هنا كان إعجاب الخليفة الثاني بشعر متمم، لأن حزنه على أخيه كان شديدا، وأنه استطاع ان يصور هذا الحزن، وينقله إلى نفوس الآخرين . وكما أن العاطفة لابد أن تلازمها موهبة شعرية لاجادة شعر مؤثر فالعكس كذلك. وتفسر هذه الحقيقة رواية تذكر ان متمما رثى زيد بن الخطاب رضي الله عنه بعد ان سمع تمنى عمر قول الشعر، ليرثي به

رفع المسهم

أخاه، ولكنه ما أجاد في نظمه. فقال له عمر رضي الله عنه: لم أرك رثيت زيدا كما رثيت مالكا فقال : والله انه ليحركني لمالك ما لا يحركني لزيد (١٣٦) وفي هذا صورة لصدق عاطفة متمم إزاء أخيه، وظهور هذا الصدق في مراثيه، وان متمما حين حاول أن يتكلف قول الشعر، وان يفتعل العاطفة لم يجد. ولو وصلت إلينا أشعاره في رثاء زيد لاستطعنا المقارنة بينها وبين رثائه لأخيه مالك، ومع ذلك فان نظرة لشعره في رثاء الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعطينا صورة لرثائه المنبعث عن مجاملة أو عن عاطفة غير العاطفة التي رثى بها مالكا:

يسائلني ابنُ بُجيرٍ أين أبكره
عنّي فإنَّ فؤادي عنك مشغول

هلاّ بيوم أبي حفص ومصرعِه
إنّ (ابتغاءك) ماضيعَت تضليلُ

إنَّ الرزيئة فابكِه ولا تَسمَنْ
عبءٌ تطيف به الأنصارُ محمول (١٣٧)

فلا نجد في هذه الأبيات عاطفة قوية، ولا روحا حزينة، بل أنها تبدو فضلا عن هذا ركيكة النظم فيها خبن ثقيل، ومعان مبتذلة واهية.

لقد سارت مراثي متمم مسير الأمثال. وروت الركبان أشعاره، وحفظها العرب، وتمثلوا بها، وذكرها شعراء الرثاء في أشعارهم مثلا لطول التلازم وشدة الأسى، وصدق المودة في الاخاء. (١٣٨)

وكون متمم من الشعراء الذين عاشوا في البادية، وشهدوا غارات قبائلهم، وأيامها جعله في مصاف الشعراء الذين اهتمت بهم المعاجم اللغوية والتفاسير، فاعتمدت على أبياته في شرح كلمة أو تأييد شاهد لغوي أو تحديد مكان من الأمكنة. (١٣٩)

وهناك ملاحظتان وجدناهما في شعر متمم: أولاهما كثرة شعره الذي وصل إلينا على قافية العين، ولا ندري سر إعجاب متمم بهذه القافية. هل أن لها وقعا

رفع
المسهم

خاصا في معاني الرثاء دون القوافي الأخرى أم إنها الصدفة التي حفظت رثاء متمم الذي على قافية العين دون غيره؟ هذا الأمر لا يمكن الإجابة عنه مادام الشعر الذى وصل إلينا لا يمثل كل ما قاله متمم من شعر، بل يمثل ما أمكننا جمعه مما بين ايدينا من مصادر. والملاحظة الثانية هي وجود الاقواء في شعره وذلك أن يختلف إعراب القوافي فتكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة أو منصوبة . هذه الظاهرة وجدت في شعر الأقدمين وعدها النقاد من عيوب الشعر[١٤٠]. إلا انهم قد تسامحوا مع شعراء البادية ولم يجيزوا ذلك لشعراء المدن والمولدين، لان البدوي لا يأبه فهو أعذر. وقد وجدت هذه الظاهرة في شعر النابغة. قيل انه لما قدم الحجاز ونبه عليها فطن إليها وقال (قدمت الحجاز وفى شعرى ضعة، ورحلت عنها وأنا اشعر الناس)[١٤١] ولكننا نلاحظ ان هذه الظاهرة احتلت مكانا كبيرا في شعر متمم، وذلك أنها لم تقتصر على بيت شعرى واحد أو بيتين.[١٤٢]

وسوف نقف وقفة تحليلية طويلة، عند قصيدته العينية المشهورة لأنها، يمكن ان تمثل أشعاره التي قالها بعد الإسلام تمثيلا صادقا، ولأنها تعد أيضا امتدادا لشعره الذي قاله قبل الإسلام. وهي بعد هذا وذاك انموذج للشعر العربي الذي عاش بعيدا عن الجو الإسلامي وأفكاره غير متأثر بأبعاد الدعوة الإسلامية، إلا ما يتعلق بمقتل أخيه مالك نفسه.

رفع المسهم

قصيدة وتحليل

قال في رثاء مالك: (١٤٣)

لعمري وما دهري بتأبين هالكٍ
ولا جَزِعًا مما أصابَ فأوجعا(١٤٤)

لقد كفَّن المنهالُ تحت ردائِه
فتى غير مبطانِ العشيّاتِ أروعا(١٤٥)

ولا بَرِمًا تهدي النساء لعرُسِه
إذا القشْعُ من برْدِ الشتاءِ تَقَعْقعا(١٤٦)

لبيبٌ أعانَ اللبَّ منه سماحةٌ
خصيبٌ إذا ما راكب الجَدْبِ أوضعا(١٤٧)

تراه كصدر السيفِ يهتزُّ للنَّدى
إذا لم تجدْ عند امرئ السّوء مَطمعا(١٤٨)

ويومًا إذا ماكَظَّك الخصمُ إنْ يكنْ
نصيرك منهم لا تكنْ أنت أضيعا(١٤٩)

وإنْ تَلقَه في الشّرب لا تلقَ فاحشا
على الكأسِ ذا قاذروة متزبّعا (١٥٠)

وإنْ ضرّس الغزوُ الرجالَ رأيتَه
أخا الحرب صَدْقا في اللّقاء سَمَيْدعا(١٥١)

وما كان وقّافا إذا الخيل أحجمتْ
ولا طائشاً عند اللقاءِ مُدفَّعا[١٥٢]

ولا بكهاٍ بزُّه عن عدوه
إذا هو لاقى حاسرا أو مقنعا[١٥٣]

فعينيّ هلاّ تبكيان لمالكٍ
إذا أذرتِ الريحُ الكنيفُ المرفعا[١٥٤]

وهبَّت شمالا من تجاهِ أظايفِ
إذا صادفت كف المفيض تقفعا[١٥٥]

وللشرب فأبكي مالكا ولبُهمةٍ
شديدٍ نواحيه على مَنْ تشجعا[١٥٦]

وضيف إذا أرغى طروقا بعيره
وعانٍ ثوى في القدِّ حتى تكنَّعا[١٥٧]

وأرملةٍ تمشي بأشعثَ محثلٍ
كفرخ الحبارى رأسُه قد تصوَّعا[١٥٨]

إذا جرَّد القومُ القداحَ وأوقدت
لهم نارُ أيسارٍ كفى من تضجعا[١٥٩]

وان شهد الايسار لم يُلفَ مالكٌ
على الفرْثِ يحمي اللحمَ أن يتوزَّعا[١٦٠]

أبى الصبرَ آياتٌ أراها وإنني
أرى كلَّ حبلٍ دون حبلِك أقطعا (١٦١)

وقد كان مجذاماً إلى الحرب ركضُه
سريعا إلى الداعي إذا هو أفزعا

وإني متى ما ادعُ باسمك لا تجب
وكنتَ جديرا أن تجيب وتسمعا(١٦٢)

وكان جناحي إنْ نهضت أقلَّني
ويحوي الجناحُ الريشَ أن يتنزعا(١٦٣)

وعِشنا بخير في الحياة وقبلَنا
أصابَ المنايا رهطَ كسرى وتُبَّعا

وكنا كندمانيْ جذيمةَ حقبةً
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا(١٦٤)

فلما تفرّقنا كأنّي ومالكاً
لطولِ اجتماع لم نبتْ ليلةً معاً

فان تكن الأيامُ فرّقن بيننا
فقد بان محمودا أخي حين ودَّعا

فتى كان أحيا من فتاة حيية
وأشجعَ من ليثٍ إذا ما تمتَّعا

أقولُ وقد طارَ السنا في ربابهِ
وجونٌ يسحُّ الماء حين تريَّعا [١٦٥]

سقى الله أرضا حلَّها قبرُ مالكٍ
ذهابَ الغوادي المدجناتِ فأمرعا [١٦٦]

وآثرَ سيلَ الواديين بديمةٍ
ترشّحُ وسمياً من النبت خروعا

فمجتمع الأسدام من حول شارع
فروَّى جبالَ القريتين فضلفعا [١٦٧]

فوالله ما أسقي البلادَ لحبِّها
ولكنني أسقي الحبيبَ المودعا [١٦٨]

تحيتهُ مني وإنْ كان نائيا
وأمسى ترابا فوقه الأرضُ بلقعا [١٦٩]

تقولُ ابنةُ العمريّ ما لك بعدما
أراك حديثاً ناعمَ البالِ أفرعا [١٧٠]

فقلت لها: طولُ الأسى إذ سألتِني
ولوعةُ حزنٍ تتركُ الوجه أسفعا [١٧١]

وفقدُ بني أمّ تداعوا فلم أكنْ
خلافَهمُ أنْ أستكينَ وأضرعا [١٧٢]

ولكنّني أمضي على ذاك مُقدِما
إذا بعضُ من يلقى الحروبَ تكعْكعا[١٧٣]

وغيَّرني ما غالَ قيساً ومالكًا
وعمْرًا وجزءاً بالمشقَّرِ ألمعا[١٧٤]

وما غال نُدماني يزيدَ وليتني
تملَّيتُه بالأهلِ والمالِ أجمعا[١٧٥]

وإني وان هازلتِني قد أصابني
من البثّ ما يُبكي الحزينَ المفجَّعا[١٧٦]

ولستُ إذا ما الدهر احدث نكبةً
ورزءاً بزوّارِ القرائبِ أخضعا[١٧٧]

فعيدكِ الا تسمعيني ملامة
ولاتنكئي قرحَ الفؤادِ فييَجْعا[١٧٨]

فقصَركِ انّي قد شهدت فلم أجِدْ
بكفيَّ عنهم للمنية مدفعا[١٧٩]

فلا فَرِحا إن كنتُ يوما بغبطةٍ
ولا جَزِعا مما أصابَ فأوجعا[١٨٠]

فلو انَّ ما ألقى يصيبُ مُتالِعًا
أو الركنَ من سلمى إذًا لتضعضعا[١٨١]

وما وجدُ أظآرٍ ثلاثٍ روائمٍ
أصَبْنَ مجراً من حوارٍ ومَصرَعا (١٨٢)

يذكِّرنَ ذا البثّ الحزين ببثّهِ
إذا حنَّتْ الأولى سَجَعْنَ لها معا

إذا شارفٌ منهن قامتْ فرجَّعت
حنينا فأبكى شجوُها البركَ اجمعا(١٨٣)

بأوجدَ مني يومَ قام بمالك
منادٍ بصيرٌ بالفراق فأسمعا (١٨٤)

فإنْ يكُ حزن أو تتابعُ عبرةٍ
أذابتْ عَبيطاً من دمِ الجوفِ منقَعا(١٨٥)

تجرَّعتُها في مالك واحتسيتُها
لأعظمَ منها ما احتسى وتجرعا (١٨٦)

ألم تأتِ أخبارُ المحلّ سرائكمْ
فيغضب منكم كلُّ من كان موجعا(١٨٧)

بمشمته إذ صادف الحتفُ مالكا
ومشهده ما قد رأى ثم ضيعا

آآثرتُ هِدْما باليًا وسويَّةً
وجئت بها تعدو بريدا مقزَّعا (١٨٨)

المسهم

فلا تفرحَنْ يوما بنفسك إنّني
أرى الموتَ وقّاعًا على من تشجّعا[١٨٩]

لعلّك يوما أن تلّمَ ملمةٌ
عليك من اللائي يدعنك أجدَعا[١٩٠]

نعيت امرءاً لو كان لحمك عنده
لآواه مجموعا له أو مُمزَّعا[١٩١]

فلا يُهنئ الواشين مقتلُ مالكٍ
فقد آبَ شانيه إيابـاً فودَّعا

تحليل القصيدة:

إن هذه القصيدة أطول قصائد متمم، تقعُ في سبعة وخمسين بيتا، وهي التي وصفت بأنها أم المراثي، وهي التي تناولها بالشرح والتحليل والنقد محاولين استقصاء الصور التي أولع بذكرها متمم، أو أجاد في وصفها سواء كانت تلك الصور وليدة الحياة البدوية، أو هي اثر من اثار الحياة التي عاشها قبل الإسلام، وبقيت راسخة في ذهنه.

يبدأ متمم قصيدته برغبته في البكاء على أخيه طول حياته، فهو يذكر أن همه وعادته سيكونان في تعداد خصال أخيه الحميدة، ولكنه ينفي ما يمكن ان يتبادر الى الذهن من احتمال جزعه، فهو لا يجزع لما حدث لأخيه مع شدة حزنه عليه، ويبدأ بعد مطلع القصيدة بتعداد فضائل أخيه فعلا:

لعمري وما دهري بتأبين هالكٍ
ولا جَزِعًا مما أصابَ فأوجعا

لقد كفَّن المنهالُ تحت ردائِه
فتى غير مبطانِ العشيّاتِ أروعا

ثم يستمر حتى البيت العاشر.

والمتابع لهذه الفضائل يجدها فضائل عربية حقا، فهو كريم حسن الخلق، راجح العقل متصف بالسماحة والنجدة والشجاعة وغير ذلك، إلا أن هذه الصفات قد عرضت بثياب بدوية أصيلة تحس من خلالها أثر البداوة وحياتها، فحسن الخلق في معاملة الأهل صفة يمتدح عليها الرجال مدحا وتأبينا، إلا أنها وردت في بيت متمم الثالث مصورة لشظف العيش الذي يعاني منه البدوي فيبرز حسن خلقه أكثر من بروزه في الحياة المستقرة :

ولا بَرِمًا تهدي النساء لعرْسِه

إذا القشْعُ من بردِ الشتاءِ تَقَعْقَعا

فالبرد الشديد الذي يقسو على العربي في صحرائه صوره متمم من خلال وصفه للجلد اليابس الذي يزيد تقعقعه اذا هبت الريح، كما ان الشطر الأول فيه مدح من خلال صورة بدوية سنقف عندها مع الصور الأخرى. وحين يريد متمم وصف أخيه بالنجدة تتبادر إلى ذهنه صورة بدوية كانت معروفة قبل الإسلام، وهي سرعة نجدة أخيه لصاحبه إذا ما أصابه غم أو داهمه خصم لأنه لا يضيع من يستنجد به. وتنساب الأوصاف الأخرى راسمة صورة لفارس بدوي لا يحجم إذا اشتد القتال، ولا يهاب منازلا مدججا بالسلاح. بعد هذه الصفات يندفع متمم مرة أخرى للبكاء على أخيه، وكأن تعداد مآثره مسوغ آخر لاستمراره على البكاء، فيخاطب عينيه يحثهما على البكاء من خلال صور جميلة تتراءى أمامه يبرز فيها وجه أخيه الذي افتقده (الأبيات من ١١- ١٧)

فعينيَّ هلاَّ تبكيانِ لمالك

إذا أذرتِ الريحُ الكنيفَ المرفَّعا

فيعرض متمم في هذه الأبيات صورا بدوية جميلة إذا رآها افتقد أخاه فيها، وزاد إحساسه بالألم لفراقه، فمشهد الريح إذا اشتدت وقلعت ما حرص العربي على ثباته

رفع المسهم

كالحظائر والبيوت تجسم الفراغ الذي تركه مالك، لأن كرمه يعرف أكثر في هذه الأيام، ولأن شدة البرد والريح قد يتركان الكريم بخيلا، لضيق ذات يده، بينما يبدو مالك في هذه الأيام العصيبة أكثر كرما وجودا، وإذا رأى متمم مشهد أسير قد طال أسره حتى يبس قيده على يديه افتقد مالكا، إذ لو كان موجودا لفك أسره وافتداه .

وإذا سمع متمم صوت رجل يرغي بعيره (يحمله على الرغاء) لتجيبه الابل أو لتنبح الكلاب القريبة منه، فيهتدي إلى وجود أناس يطعمونه ويكرمونه، هذا الصوت بحد ذاته يذكره بأخيه الذي يسرع الى نجدة من يضل طريقه ويبحث عمن يؤويه:

وضيف اذا ارغى طروقا بعيره

وعان ثوى في القدّ حتى تكنعا

وإذا رأى ذليلة تجر يتيمها الضعيف، فإنه يدعو عينيه للبكاء أيضا، لأنه يحسّ أن لو كان مالك موجودا لأنقذ الأرملة ويتيمها من الضياع والفقر. هذه الصور البدوية الجميلة التي أجاد متمم عرضها أضاف إليها صورا كانت معروفة قبل الإسلام، وكأن صورة أخيه ما تزال ماثلة أمامه أيام كانا معا في قبيلتهما قبل أن يحرم الإسلام كثيرا من معالم تلك الحياة. من ذلك وصفه لهمة أخيه وكرمه، فهو يشترك مع القوم في ميسرهم ليطعم حصته من الطعام (ولا برما تهدى النساء لعرسه)، وبذا فإن زوجه هي الأخرى لا تحتاج إلى من يطعمها لأنّ زوجها يكفيها، ويكفي الآخرين المحتاجين .

وحين يعم الجدب البادية وينحر الموسرون والأشراف تبرز صورة مالك الذي يشترك مع القوم في ميسرهم، ويوزع حصته أو ما يفوز به قدحه من اللحم على المحتاجين:

إذا جرَّد القومُ القداحَ وأوقدت

لهم نارُ أيسارٍ كفى من تضجعا

وان شهد الايسار لم يُلفَ مالكٌ

على الفرْثِ يحمي اللحمَ أن يتوزَّعا

وقد ألحت صور ما قبل الإسلام على مخيلة متمم، فهو حين عدد صفات أخيه العربية أول القصيدة أضاف إليها حسن خلقه في مجلس الشراب، ومنادمة أصدقائه فلا تعبث الخمر برأسه ولا يفحش ولا يسئ الأدب ... فإذا أضفنا إلى هذه الصورة صوراً أخرى سترد في بيته التاسع عشر وجب علينا إن نقف محللين سبب إيراد متمم لها مع نص القدماء على كونه قد أسلم وحسن إسلامه، وصور الميسر والقداح والشرب والمنادمة وإجابة الداعي ونصرته قبل معرفة كونه ظالماً أو مظلوما، مثل هذه صور قد اختفت من حياة العرب بسبب تحريم الإسلام لها، فلماذا أصرَّ متمم على إبرازها في أشعاره ؟ لا نجد تفسير لهذا إلاّ بأن متمماً ما يزال شاعراً قد رسخت في ذهنه المعاني والصور التي مرت به قبل إسلامه، وصورة أخيه ومآثره بالذات مازالتا راسختين في مخيلته من خلال بروزه في عشيرته قبل الإسلام فارسا شجاعاً كريما سيد قومه، فرسم متمم صور أخيه المتنوعة من خلال ما عرف به قبل الإسلام، ولعل هذا هو سبب عدّه في الشعراء الذين قل تأثرهم بالإسلام لا من حيث قلة المفردات والصور الإسلامية الواردة في أشعاره، ولكن من خلال الحاح الصور القديمة على مخيلته، وعدم قدرته على الخروج عليها أو الإتيان ببديل عنها .

على أن هناك ملاحظة فنية أخرى وهي أن متمما لا يستمر في تعداد مآثر أخيه أو رسم صور جميلة له على نسق واحد، وإنما نجح في إعادة ذهن السامع إلى سبب تعداده هذه الفضائل فهو لا يستمر فيها ولا يسترسل إلا بعد أن يقطع تأبينه ببيت او بيتين يظهر من خلالهما حزنه وآلامه، ليسوغ لنا إفاضته في ذكر مآثر أخيه فنراه بعد الأبيات العشرة الأولى يبدأ مقطعا جديدا في وصف مآثر أخيه بعد ان يفلح في إعادة ذهن القارئ إلى تذكر المرثي (فعيني هلا تبكيان لمالك) ويذكر الأبيات ١٧-٢٢ إن الذي حال بينه وبين الصبر على فقد أخيه هو مثول المشاهد التي يُفتقدُ فيها أخوه:

أبى الصبر آيات أراهـا وإنّني ... أرى كلَّ حبلٍ دون حبلك اقطعا

وينتقل في البيت (٣٢) الى الفكرة نفسها بأسلوب آخر من خلال محادثة امرأته التي تنكر عليه حزنه:

رفع المستهم

وهكذا ينهي متمم قصيدته بإظهار حزنه وصبره، وجلده مع عتابه لمن مر بجسد أخيه، ورآه ملقى ولم يغطه، معلنا أن الموت لا شماتة فيه، وأن المصائب قد تصيب الناس لكنّ المهم أن أخاه غادر الدنيا بخصال حميدة، والملاحظ أخيرا ان متمما في هذه القصيدة والقصائد الأخرى اكتفى بإظهار حزنه وألمه لفقد أخيه وتعداد مآثره وفضائله دون الدخول بتفصيلات عن مقتله، ودون الإشارة إلى سببه، وكأن معرفة السبب أو إعلانه لا يهمانه في شئ قدر ما يهمه كون مالك هو أخوه وحبيبه، وان فقده قد آلمه وأبكاه . لقد حفلت القصيدة بتنوع صور متمم الشعرية بين تصوير حزنه لفقده أخيه، والتنقل بين الصور التي تذكره بمآثره . وتبقى لغته مواكبة لهذه الصور، فتبدو أعرابية الحُلَّة في الصور البدوية، وتعود الى اللغة السمحة السهلة التي يتحدث فيها عن أحزانه وآلامه (الأبيات ٢٠، ٢١،٢٢، ٢٣، ٢٤،٢٥، ٢٦، ٣١، ٣٢) وتتعدد أساليب خطابه بين الذات والمخاطب والمخاطبة، والجماعة وحين يتحدث عن فضائل أخيه يستخدم لغة الغائب، لا برما، فتى، لبيب، خصيب) ويتحول إلى خطاب المخاطب المفرد الذي يعدد له فضائل أخيه : (تراه كظِّك، وأن تلفه) (الأبيات ٥، ٦، ٧، ٨)

يعود بعدها إلى اخفاء الخطاب والحديث مباشرة بلغة الغائب عن أخيه : وما كان وقافاً (الأبيات ٩ فما بعدها).

. ثم ينتقل في البيت ١٣ الى المخاطبة المؤنثة (وللشرب فابكي مالكاً)، ويعود إليها أيضا في الأبيات ٣٣، ٣٤، ٣٩، ٤١، ٤٢

وفي البيت ٥١ يتحول إلى خطاب الحاضرين (ألم يأت اخبار المحل ..).

وفجأة ينتقل الى المخاطب المذكر، وهو الشخص الذي يصفه بأنه جاء معلناً موت أخيه مالك، وكأنه يشمت به (أآثرت، وجئت، تعدو، فلا تفرحن، لعلك، نعيت ٥٣ الى ٥٧ لينتقل أخيراً الى خطاب الجماعة الغائبينِ في البيت الأخير.

هذا التنوع في الخطاب منح القصيدة حيوية تشد القارئ، وتجعله متابعا لصور الشاعر، متعلقا بتنقلاته السريعة وفي الوقت نفسه منح تنوع الخطاب الإحساس بأنّ

رفع المسابهم

قضية مقتل مالك والحزن عليه ليست خاصة بالشاعر، ولكن فقده أمر يشغل الآخرين ممـن يعرفون فروسيته ومكانته وكرمه، بدءاً من المرأة التي يفترض وجودها، فيخاطبها إلى خطاب الأفراد منفـردين، أو مجتمعين، حاضرين، أو غائبين. وهو ما منح القصيدة خصوصية، وجمالية عبر الأجيال.

رفع
المسهم

هوامش الفصل الثاني

١- طبقات فحول الشعراء ١/٢١٦.

٢- مقدمة ديوان حسان بن ثابت تحقيق وليد عرفات ومقدمة البرقوقي في تحقيقه لديوان حسان، ودائرة المعارف الإسلامية م٧/ ٣٧٥.

٣- الأغاني ١٤/٨.

٤- حسان بن ثابت/ محمد طاهر درويش١٥٠.

٥- الأغاني ١١/٢٧-٢٩ طبعة دار الكتب.

٦- حسان بن ثابت ١٥٣.

٧- نفسه ١٥٥.

٨- نفسه ٣٠٣.

٩- السيرة ٢/١٩٢.

١٠- ديوانه: ١٩٢.

١١- الاستيعاب ١/١٢٨.

١٢- ديوانه ٤٢٤.

١٣- انظر في مناقشة جبن حسان كتاب محمد طاهر درويش - حسان بن ثابت ١٧٩.

١٤- ديوان حسان شرح البرقوقي، ١٧٩.

١٥- ديوانه ١٠٠.

١٦- ديوانه ١٧٩ فما بعدها .

١٧- الاستيعاب ١/ ١٢٩-١٣٠.

١٨- طبقات فحول الشعراء ١/٢١٦.

١٩- الأغاني ٩-٣٢٧.

٢٠- الموشح ٢٣، الاستيعاب ١/ ١٣٠، حسان بن ثابت ٥٠٣ وفيه تفصيل هذا الرأي.

٢١- الكبش: السيد، البيض: جمع أبيض وهي السيوف، والهرير: صوت الكلب دون النباح. والأبيات في ديوانه ٣١٣.

٢٢- طبقات فحول الشعراء ١/٢١٨.

٢٣- راجع في هذا ديوان حسان بن ثابت تحقيق وليد عرفات الجزء الأول، الروايات والتخريج. وفي الجزء الثاني التعليقات والشروح، العصر الإسلامي - ضيف ٧٩ ودراسات في الأدب- القط ٢٤.

٢٤- عفت: درست، خلاء: خلاء من أهلها، وذات الأصابع والجواء وعذراء أسماء قيل أنها كانت فيها منازل الغساسنة في بلاد الشام.

٢٥- ديار من بني الحسحاس : أي التي درست وخلت من أهلها هي ديار بني الحسحاس، والحسحاس: الكريم وقيل: هم قوم بعينهم، والحسحاس: الكريم الذي يطرد الجوع بسخائه. الروامس: الرياح التي ترمس آثار الديار أي التي تثير التراب وتدفن آثار الديار وتمحو معالمها. السماء: المطر.

٢٦- يتذكر حسان هنا الديار التي يراها مقفرة، يتذكرها أيام إقامة أهلها فيها وكيف كانت عامرة بهم، تسرح في مروجها الخضراء النعم أي الإبل والشياه.

٢٧- الطيف: الخيال الذي يلم في النوم، يؤرقني: يسهرني. العشاء: أول الليل. تيمته: جعلته متيما.

٢٨- السبيئة: الخمر أي إن رضاب هذه الفتاة كأنه طعم الخمر الممزوجة بالعسل والماء.

٢٩- هصّره: أماله، والجناء: جمع جني وهو الثمر. ولعلها جمع جانٍ وهو القاطف. تشبيه آخر تبع به التشبيه السابق، فعلى أنياب تلك الفتاة طعم كأنه الخمر، أو كأنه عصير تفاح نضج وجني. وقد ذكر أن هذا البيت زيادة لا تشبه شعر حسان ولا لفظه (الروض الآنف ٢/ ٢٨٠، الديوان وليد عرفات، ج٢/ ٧).

٣٠- الأشربات جمع أشرِبة: يريد أن أنواع الأشربة تكون فدى لطيب شراب الخمر، ويعدد بعد هذا البيت فائدة الخمر على ما ذهب إليه قبل الإسلام.

٣١- يقول: نحيل على الخمر ما نلام عليه، ونلجأ إليها إذا احتدم بنا موقف مهاجاة وسباب أو قتال وحرب.

٣٢- ينهنهها: يكفها اللقاء: لقاء العدو في الحرب.

٣٣- عدمنا: أي أهلكنا وفقدنا، يدعو على خيله وخيل المسلمين بالهلك أن لم تفاجئ المشركين في ساحاتهم في مكة.. وكداء موضع بمكة قيل إن النبي ﷺ دخل منها يومئذ.

رفع المسـاهم

٣٤- يبارين، يسابقن. الأعنّة: أعنّة الخيل جمع عنان، مصعدات: ذاهبات صعداً أي متقدمات، الأسل: الرماح، الظماء: العطشى لدماء الأعداء، يصف خيول المسلمين التي يهدد بها قريشا بأنها ستدخل مكة مندفعة سريعة تسابق فرسانها عنانها وعليها رماح متعطشة لقتال المشركين.

٣٥- متمطرات: يسبق بعضها بعضها، تلطمهن: تضربهن. والخمر جمع خمار وهو ما تلبسه المرأة على رأسها. أي أن سرعة الخيل في اقتحام مكة تخيف النساء فتحاول تجنب الخيل بضرب وجوها بالخمر لإعاقة تقدمها.

٣٦- اعتمرنا: أدينا العمرة، تعرضوا: تصدوا أو تنصرفوا: أي تفسحوا لنا طريق العمرة، انكشف الغطاء: أي انكشف ما هيأه الله لنا من نصر عليكم، أو كشف عن الحق بفتح مكة ونصرنا.

٣٧- كفاء: نظيرة البلاء: الاختبار والامتحان.

٣٨- عرضتها: أي همتها وغايتها. يصف أنصار الرسول ﷺ بأن عادتهم لقاء الأعداء وقتالهم.

٣٩- معد: يريد بها قريشا أي في كل يوم لنا موقف مع قريش المشركة، أما في مهاجاة أو قتال وحرب.

٤٠- إذا كان موقف مهاجاة، فشعرنا محكم نرد به على من يهجونا، وإن كان موقف حرب فالضرب والقتال سبيلنا.

٤١- مجوّف: فارغ. ونخب: جبان لا فؤاد له منتزع الفؤاد.

٤٢- عبد الدار: بطن من قريش، وهم أهل أبي سفيان. والإماء جمع أمة: وهي الجارية. وقد حذف د. وليد عرفات هذا البيت من نص القصيدة، لأنه لم يرد إلا في نسخ الديوان المتأخرة، ولأنه لم يرتض معناه.

٤٣- ينكر على أبي سفيان جرأته في هجاء الرسول ﷺ وهو ليس كفء لمنازلته وهجائه فشتان ما بين الخيِّر (الرسول) والشرير أبي سفيان.

٤٤- العرض: الشرف، شرف الشخص وشرف آبائه وأجداده، وقاء: وقاية.

٤٥- نصروا علينا: أي تالبوا علينا واتفقوا مع أعدائنا، وفي أظفارنا منهم دماء: أي بيننا وبينهم حروب ما تزال آثارها عالقة في نفوسنا.

رفع المسلم

٤٦- يعدد حلفاء قريش الذين تآمروا معهم ضد المسلمين بما فيهم يهود بني قريظة.

٤٧- صارم: قاطع حاد. أي شعره كالسيف الصارم، وشبهه أيضا بالبحر الزاخر الذي لا تؤثر فيه الدلاء ولا تعكر صفوه.

٤٨- ديوان حسان، تحقيق وليد عرفات ١/ ١٩.

٤٩- العصر الإسلامي، ضيف/ ٤٨.

٥٠- نفسه.

٥١- تهذيب سيرة ابن هشام ٢/ ٦٨ تحقيق عبد السلام هارون.

٥٢- نفسه.

٥٣- نفسه.

٥٤- الروض الأنف ٢/ ٢٨٠، ديوان حسان/ تحقيق عرفات ١٩، وديوانه تحقيق البرقوقي.

٥٥- الاستيعاب ١/ ٣٤٤.

٥٦- انظر تفصيلات هذا الأمر في (بحثنا القصيدة العربية بين الثورة والتجديد) مجلة المناهل المغربية ١٧/ ١٩٨٠.

٥٧- ديوان حسان ٣١٣ (البرقوقي) الأسحم: الأسود، يريد به السحاب الممطر المثقل بالماء، أشعث، منتشر، مغبر: أي لم يبق من آثار الديار إلا بقايا ماثلة تتناثر عليها الغبرة.

٥٨- نفسه (تحقيق البرقوقي)، ١٣،١١.

٥٩- نفسه.

٦٠- ديوان كعب بن مالك ص ٢٨٢ ووجدت في أشعار لبيد بعض المقدمات التي يمكن أن تكون بديلا للمقدمة الطللية وهي ما بدأ بعض قصائده من أبيات يحمد بها الله سبحانه وتعالى، وينتقل بعدها إلى الموضوعات الأخرى: شرح ديوان لبيد ١٧٤، انظر مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام، حسين عطوان صفحة ٨٩-٩٣.

٦١- الإصابة ٤/ ٧٢.

٦٢- طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٣، وانظر أيضا الإصابة ٤/ ٧٢.

٦٣- المؤتلف والمختلف ١٨٤.

رفع المسبهم

٦٤- أنساب الأشراف ١/ ٢٤٤، الإصابة ٤/ ٧٢.

٦٥- الخزانة ١/ ٣٦٢.

٦٦- الاستيعاب ٤/ ٨٩٨، وانظر مقدمة ديوانه الذي جمعه حسن باجودة.

٦٧- مسند الإمام أحمد ٣/ ٢٦٥.

٦٨- الإصابة ٤/ ٧٢.

٦٩- الطبقات الكبرى ق٢ ج٣/ ٨١، الاستيعاب ٣/ ٩٠٠، الإصابة ٤/ ٧٢، ديوان عبد الله بن رواحة: ٤٦.

٧٠- نفسه.

٧١- يتمنى ألاّ يرجع إلى أهله، وأن ينال الشهادة بضربة تسبِّب له جرحاً كبيراً فيتدفق منه دم كثير.

٧٢- حران: عطشان، يريد أنه يتمنى أن يُضرب بيد كافر حاقد متعطش لقتال المسلمين، فتكون ضربته مجهزة مردية تتركه سعيداً بالشهادة.

٧٣- ديوانه ٨٨، السيرة ق٢/ ٣٧٤، الاستيعاب ٣/ ٨٩٨.

٧٤- نفسه ١٠٠.

٧٥- ديوانه ٧٩، السيرة ق٢/ ٣٧٦. أنعم جمع نعمة: يريد إذا أوصلتني إلى مكان المعركة فلن يكون نصيبك إلا الثناء، ويعاهد ناقته بأنه لن يرجع إلى أهله حيث النخل، والبعل هو النخل الذي يشرب بعروقه فيستغني عن السقي، الاستيعاب ٣/ ٨٩٨. يريد أنه إذا كتب الله له الشهادة فلن يبالي بشيء مما يشغل الناس من ترقب طلع النخل الراسخ في الأرض، أو طلع النخل الذي حسن ارواؤه.

٧٦- الاستيعاب ٣/ ٨٨٩، السيرة ق٢/ ٣٧٩. ديوانه/ ١٠٨.

٧٧- شعر المخضرمين/ ٨٥.

٧٨- نفسه، ٨٨/ ٨٩.

٧٩- شعر العقيدة/ ٢٣٦.

٨٠- ديوان عبد الله بن رواحة ١١٧-١١٩، وتخريج القصيدة ١٦٩.

٨١- ديوانه ص ٨٩-٩٠، الشنوف: جمع شنف وهو القرط الأعلى، والفريد الدر إذا نظم وفصل بغيره. واللبات وسط الصدر والمنحر، ومعاقد اللبات موضع القلائد.

٨٢- ديوانه تحقيق قصاب، ١٣٢-١٣٣.

٨٣- نفسه ١٧٢، تخريج القصيدة واختلاف نسبة الأبيات.

٨٤- نفسه ١٠٤.

٨٥- تاريخ آداب اللغة العربية/ نالينو. وانظر كتابنا مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي،٥٠.

٨٦- الأغاني ٢/ ١٦٣، وانظر طبقات فحول الشعراء ١/ ١١٠، البخلاء ١٨١، الشعر والشعراء، ١/ ٢٢٢.

٨٧- الأغاني ٢/ ١٧٠.

٨٨- نفسه ٢/ ١٦٣.

٨٩- تاريخ الأدب العربي، ضيف ٢/ ٩٧، في الأدب الجاهلي ٥٩٥. مقدمة ديوان الحطيئة ٥٦، شعر المخضرمين، ٢٤٣.

٩٠- ديوان الحطيئة، ٥٧.

٩١- تاريخ الأدب العربي، ٩٧.

٩٢- ديوانه، ٥١.

٩٣- طبقات فحول الشعراء ١/ ١١٥.

٩٤- الأغاني ٢/ ١٦٩.

٩٥- ديوانه، ٩٥.

٩٦- نفسه ٩٧.

٩٧- الأغاني ٢/ ١٨٣.

٩٨- ديوانه: ٩٦.

٩٩- ديوانه: ١٨٤.

١٠٠- نفسه.

١٠١- في الأدب الجاهلي، ٢٩٥.

١٠٢- الأغاني ٢/ ١٥٧.

١٠٣- نفسه، ١٦٠.

١٠٤- ديوانه ٢٧٨ الأغاني ٢/ ١٦٢.

١٠٥- ديوانه ٢٨٧.

رفع
المسهم

١٠٦- ديوانه/ ٢٧٣.

١٠٧- ديوانه ٢٧٦، الأغاني ٢/ ١٦٣.

١٠٨- نفسه ٢/ ١٥٩.

١٠٩- نفسه/ ٢٨٠ اللكاع: اللئيمة.

١١٠- الأغاني ٢/ ١٧٧، ديوانه ٢٨٠، والبيت الذي أشار إليه الحطيئة من مقدمة غزلية أجاد فيها.

١١١- الأغاني ٢/ ١٧٦.

١١٢- انظر تفصيلات أخباره وأشعاره في مقالنا الوجه الآخر للحطيئة مجلة كلية التربية العدد الأول. ١١٣-١١٧.

١١٣- ديوان الحطيئة ٢٠٨.

١١٤- نفسه ٢١٠ي.

١١٥- نفسه المقدمة.

١١٦- المرمل: الذي لا يملك شيئا من الزاد، العصب: اللي والشد، أي كأنه قد لوي بطنه لجوعه.

١١٧- البهم جمع بهمة، وهي أولاد يدفن.

١١٨- الملة: الرماد الحار الذي ليدفن فيه الخبز لينضج، وذلك من قلة الزاد.

١١٩- عانة: قطيع الحمر الوحشية، المسحل: الذي يتقدم القطيع.

١٢٠- النحوص: الإناث، وهي أنثى الحمار الوحشي.

١٢١- الكلم: الجرح.

١٢٢- الغرم والغرم: الخسارة.

١٢٣- انظر العصر الإسلامي/ شوقي ضيف ٩٦ ويذكر أن البيتين الذين ذكرا له في الردة ينسبان إلى أخيه.

١٢٤- ملحق ديوان الحطيئة بتحقيق نعمان أمين طه ٣٢٩.

١٢٥- الإصابة ٣/ ٣٤٠.

١٢٦- تراجع الفصيلات في كتابنا مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي: ٣٠ فما بعدها.

١٢٧- طبقات فحول الشعراء: ١٧٠

١٢٨- نفسه.
١٢٩- العقد الفريد ٣/ ٢٦٥.
١٣٠- الكامل للمبرد ٣/ ١٢٣٦.
١٣١- أسد الغابة ٤/ ٣٩٨.
١٣٢- نهاية الأرب ٥/ ١٧٧.
١٣٣- سرح العيون ٨٩.
١٣٤- الإصابة ٣/ ٢٤.
١٣٥- شرح شواهد المغني ٢/ ٥٦٩.
١٣٦- الطبقات الكبرى ج٣/ ق٢: ٢٧٥، الكامل للمبرد ٣/ ٢٤٢، الفاضل، ٦٢، الشعر والشعراء، ٢٥٥، أمالي اليزيدي، ٢٥، الأغاني ١٤/ ٦٤. حور العين: ١٣٢ الكامل، لابن الأثير ٢/ ١٥٠.
١٣٧- الكامل/ المبرد ٣/ ١٢٤٣، الفاضل، ٦٣.
١٣٨- انظر قصيدته اللامية، وتعليقنا على الأبيات، وتحقيق روايتها في كتابنا مالك ومتمم ١٣١.
١٣٩- انظر مثلا : الكامل للمبرد ٣/ ١١٩٨، الأمالي للزجاجي ٩١، معجم الشعراء ٤٣٣، ديوان الشريف الرضي ٢/ ٢٩٩.
١٤٠- انظر تخريج قصائده في كتابنا مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي.
١٤١- انظر طبقات فحول الشعراء: ٥٦.
١٤٢- ديوان النابغة الذبياني: ٣٨.
١٤٣- طبقات فحول الشعراء: ٥٦.
١٤٤- انظر تخريج القصيدة في كتابنا مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي ١٢٠-١٢٢.
١٤٥- معنى ومادهري: أي همي وعادتي، التأبين: الثناء على الشخص بعد موته، أي: إن همي وعادتي بعد مالك هي أن أبكيه وأرثيه، ولكنني لا أجزع مع عظيم مصيبتي به.
١٤٦- المنهال هو منهال بن عصمة، وهو رجل من بني يربوع، وهو الذي كفن مالكا ببرديه حين مر به وقيل: إن معناها تحت ردائه، لأن الرجل كان إذا قتل فارسا

رفع المسبهمل

مشهوراً وضع سيفه عليه ليعلم أنه قاتله، والأول أرجح لأن الروايات تؤكد أن ابن الأزور هو الذي قتل مالكا، وليس المنهال. وقوله غير مبطان العشيات أي: لا يعجل بالعشاء لانتظار الضيوف.

١٤٧- في التاج ٨/١٩٧، ١٠/٤٦٨ (إذا القشع من حس الشتاء)، وذلك أنه إذا ضربته الريح تقبض فإذا حرك تقعقعت أثناؤه أي نواحيه.. والبرم الذي لا يدخل في القوم في الميسر تهدي النساء أي أنه ليس من المقترين الذين تعطى نساء الحي زوجه لحما من شدة البرد.

١٤٨- الخصيب السخي الكريم، أوضع: أسرع يريد أنه عاقل حكيم وسخي إذا ما أتاه مجدب وجده خصيبا مريعا.

١٤٩- أراد بصدر السيف نفسه وأنه مثله بالشدة والصرامة.

١٥٠- كظك: أصابك غم شديد حتى قطعك عن الكلام. والخصم: العدو المخاصم. يقول إذا أصابك غم وكان من أنصارك مالك فإنك لا تضيع ولا تذل.

١٥١- القاذورة من الرجال هو الفاحش، والشرب: القوم يشربون، المتربع: المتكبر، ويقال هو المعربد يلقي الشرّ بين القوم، يريد أن الكأس إذا أديرت على القوم وشرب البخيل السيء الخلق، وأهان ماله فإن أخاه يبقى محافظاً على حسن خلقه.

١٥٢- ضرَّس: أثر وأجهد، والصدق: الصلب، والسميدع: الجميل الشجاع المديد القامة.

١٥٣- المدفع: الجبان الذي لا يرغب بحضوره. يقول: إذا أحجمت الخيل وجبن فرسانها عن اللقاء، فإنه لا يقف بل يهجم ويقاتل.

١٥٤- الكهام: الكال المتعب. والبز. السلاح، والمقنّع الذي عليه المغفر، والحاسر الذي لا سلاح ومغفر عليه.

١٥٥- أذرت: ألقتْ والكنيف: الحظيرة من شجر تجعل للابل تقيها البرد. والمرفع: المرفوع، وشدة الريح تذري وتقلع الكنيف المرفوع.

١٥٦- أظايف جبل لطي طويل. المفيض: الكثير العطاء. تقَفع: انقطع عن العطاء.

١٥٧- يريد بالبهمة الشجاع وهو مالك نفسه.

١٥٨- يقال أرغى الرجل إذا ضل طريقه، فحمل بعيره على الرغاء لتجيبه الإبل

رفع المسهم

بـرغائها أو تنـبح لرغائه الكلاب فيقصد الحي. والعاني: الأسير، والقد: القيد، وهو سير من الجلد، تكنع الأسير في قده: تقبض واجتمع. يريد أن هذا الأسير طالت مدة أسره حتى يبس القيد على جلده فقبض واجتمع.

١٥٩- المحثل: الصبي قد أسيء غذاؤه، وتصوع: تفرق شعره، شبه الصبي بفرخ الحباري لأنه قبيح المنظر منتف الريش.

١٦٠- الأيسار: إشراف الحي الذين ينحرون وقت الجدب ويطعمون بالميسر.

١٦١- الفرث: حشوة الكرش، يتمزع: يتوزع بمعنى واحد، يريد أنه يوزع اللحم لكرمه.

١٦٢- يقول: منعني عن الصبر آثار أخي وآياته التي أراها فتذكرني به .

١٦٣- الجذام: السريع، الداعي: المستصرخ الذي يطلب النجدة.

١٦٤- يصف رعاية أخيه له، ويشبهه بالجناح الذي يحمي الريش من أن ينتزع ويضيع.

١٦٥- نديما جذيمة هما مالك وعقيل ابنا فارج بن كعب بن بني القين، نادما الملك جذيمة بن الأبرش حين ردا عليه ابن أخته عمرو بن عدي ومكثا معه دهرا، حتى قتلهما يوما في حالة سكر شديد، ثم ندم على مقتلهما فكان إذا شرب أكفأ لهما كأسين، فلا يزال كذلك حتى يغور، ولم ينادمه غيرهما، وقد ضرب بهما المثل في طول الملازمة والاجتماع. وسارت أبيات متمم في الآفاق لهذا المعنى المشهور.

١٦٦- السنا: الضوء، الرباب: سحاب دون السحاب كالمتعلق بما فوقه، يسح يصب، وقوله تريه أي كثر حتى جاء وذهب.

١٦٧- الذهاب: جمع ذهبة وهي المطرة الغزيرة. الغوادي: التي تأتي بالمطر، المدجنات: السحاب التي تغطي السماء وتملؤها. أمرع: أخصب، يدعو للأرض التي حل فيها قبر أخيه مالك أن يصيبها مطر غزير فتخصب.

١٦٨- الاسدام جمع سدام: وهي المياه المتدفقة، شارع: جبل من جبال الدهناء، وضلفع والقريتان أسماء مواضع.

١٦٩- أسقى: أدعو بالسقيا، وهي عادة من عادات العرب أن يدعو للأرض التي فيها أحبتهم أن يصيبها الغيث لتمرع وتخضر.

١٧٠- نائيا: بعيدا وأرض بلقع خالية لا أحد فيها.
١٧١- والأفرع: الكثير شعر الرأس، أي أنها تسأله ما لك شاحبا متغيرا بعد أن كنت منذ قريب ناعم البال أفرع الرأس.
١٧٢- السفعة: سواد يضرب إلى الحمرة.
١٧٣- تداعوا تبع بعضهم بعضا، وخلافهم: بعدهم. الضرع: الذلة والاستكانة، يقول أنا صبور لا أستكين ولا أخضع، مع أن المصائب تداعت عليّ وافقدتني أخواني واحدا بعد آخر.
١٧٤- التكعكع الرجوع والنكوص.
١٧٥- هؤلاء قوم قتلهم الأسود بن المنذر يوم أورة، ومالك يعني به أخاه، وجزء هو ابن الرياحي، وقوله أي قضى عليهما. المعا أي المع بهم الموت وقال أبو عمرو أراد معا.*
١٧٦- غاله: ذهب به، وكان لمتمم نديم يقال له يزيد، تملَّيت: عشت معه ملاوة من الدهر وتمتعت به والملاوة: مدة العيش، بالأهل بدلا من أهلي ومالي.
١٧٧- البث: أشد الحزن، يقول لقد نزل بي من الحزن والأسى ما يغلب الصبر والتجلد يحمل صاحبه على البكاء، ولكنني أتجلد عليه وعلى أمثاله مخافة الشماتة.
١٧٨- يقول. إذا أصابتني مصيبة لم آت القرائب أخضع لهم حاجة مني إليهم، وذلا وفقرا لما عندهم، ولكنني أصبر وأتجلد على ما بي من الحزن والأسى.
١٧٩- قعيدك: قيل أنها يمين للعرب يقسمون بها، وقال ابن بري قعيدك وقعدك الله استعطاف وليس بقسم، والدليل على أنه ليس بقسم كونه لم يجب بجواب القسم.
١٨٠- قصرك: يكفيك لوماً.
١٨١- يريد أنه لا يبطر إذا فرح يوما، ولا يجزع، ولا يألم ألما يكسره إن إصابته مصيبة.
١٨٢- متالع وسلمى جبلان. تضعضع: تهدم وانهار.
١٨٣- الأظار: جمع ظأر وهي العاطفة على ولدها المرضعة له، الروائم: المحبات اللاتي يعطفن على الرضيع. الحوار: ولد الناقة.

١٨٤- الشارف: المسنة. والبرك: الألف من الجمال. وإنما خصت الشارف، لأنها أرق من الفتية لبعد الشارف عن الولد، لذلك تكون أكثر لهفة وحزناً عليه.

١٨٥- الوجد: شدة الحزن.

١٨٦- العبيط: الدم الطري. والمنقع: المجتمع.

١٨٧- تجرع: احتسى بمرارة وعلى مضض. يقول: لقد تحملت في مالك مصيبة لا تبلغها مصيبة أخرى، ولكنني تجرعتها على مضض وألم.

١٨٨- المحل هو ابن قدامة بن أسود، ويقال أنه مر بمالك وهو قتيل فلم يواره.

١٨٩- آثرت: فضلت، الهدم: الكساء الخلق، والسوية: كساء يحشى بثمام أو ليف ونحوه ثم يجعل على ظهر البعير، ثم يركب، وقزع مجفف وأراد بقوله وجئت به تعدو أي أنك تسعى بخبره، مسرعا كمجيئ البريد.

١٩٠- أراد بقوله: فلا تفرحن الدعاء عليه أي لا فرحت بنفسك. وقوله وقاعا: أي لا يفلت من الموت أحد، يقول: آثرت ثيابك ومركبك، فنجوت وجئت تعدو بشيرا ترى الناس أنك قد فزعت لمقتله، وإنما ذاك شماتة منك وسرور بقتله.

١٩١- الأجدع: المقطوع الأنف يراد به الذليل المستكين.

١٩٢- الممزع: المفرق المتناثر.

رفع المسيّهما

الفصل الثالث

أغراض الشعر الجديدة في عصر صدر الإسلام

١- شعر العقيدة والدعوة:

أ- التبرئة من عبادة الأصنام وإعلان الإسلام

ب- محاججة المشركين.

ج- مناقشة المرتدين.

د- البراءة من المشركين.

هـ- العودة إلى الإسلام.

٢- شعر الجهاد والفتوح الإسلامية.

أ- الثبات على العقيدة والمبدأ.

ب- الهجرة في سبيل الله.

ج- الجهاد في سبيل الله.

د- صور إنسانية في شعر الفتوح.

هـ- وصف المعارك.

و- وصف طبيعة البلاد المفتوحة.

ز- الرسائل الشعرية.

ح- الحنين إلى الوطن ورثاء النفس.

١- شعر المقعدين والشيوخ

٢- شعر الشباب والأبناء المجاهدين

رفع
المسهم

١ - شعر العقيدة والدعوة :

إن لفظ الدعوة الإسلامية مصطلح إسلامي يُطلق على ما دعَا إليه الرسول الكريمﷺ، وهو دخول دين الإسلام، من قوله جلَّ من قائل:﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾[النحل:١٢٥] والرسول ﷺ هو الداعي ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

وشعر الدعوة هو الشعر الذي دعا فيه الشعراء المسلمون المشركين إلى ترك عبادة الأصنام، والدخول في دين الله. وكان من الطبيعي أن نجد أشعاراً لكفار قريش أو لكفار القبائل العربية الأخرى يذكرون فيها أصنامهم وآلهتهم ويردون فيها على المسلمين، إلا أن هذه الأشعار قد ضاعت، ولم تصل إلينا مع ما ضاع من أشعار للأسباب التي ذكرناها سابقاً.

أما أشعار المسلمين في الدعوة فانها تظهر عند بعضهم في إعلانه تبرءته من عبادة الأصنام، وتسفيه آراء قومه فيها. وهي مقطوعات قالها أصحابها حين أعلنوا إسلامهم، وتبرأوا مما كانوا يعبدونه.

أ- التبرئة من عبادة الأصنام وإعلان الإسلام :

ومثل هذه الأشعار لم تتجاوز الأبيات المفردة التي تكاد أن تكون رسالة مباشرة، وقصيرة موجهة الى أبناء قبيلة الشاعر، أو معلنة اعلاناً عاماً ليبلغ به الرسول ﷺ أو أبناء قبيلته معاً، وهي غالباً أبيات خالية من الصنعة الفنية، أو من العاطفة التي نجدها في الأغراض والمعاني الأخرى، إلا أنها من ناحية أخرى تقدم صورة لطبيعة الحياة الدينية التي كان الجاهليون يحيونها من خلال رفض الشعراء عبادة ما كان آباؤهم يعبدونه.

فهذا ذباب بن الحارث السعدي التميمي أسلم، وحطّم صنم قومه، وأعلن ذلك شعراً بقوله :[١]

رفع المسيهم

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى   وخلَّفتُ فرّاضاً بدار هوان

وفراض هذا الذي ذكره هو صنم بني سعد من تميم كسره الشاعر بعد إيمانه:

شدَدتُ عليه شدةً فتركته   كأنْ لم يكنْ والدهرُ ذو حدثان
فلما رأيتُ الله أظهر دينَه   أجَبْتُ رسول الله حين دعاني
فأصبحتُ للاسلام ما عشتُ ناصراً   وألقيت فيها كَلْكلي وجِراني
فمنْ مبلغٌ سعدَ العشيرة إنَّني   شريتُ الذي يبقى بآخر فان

ويذكر شاعر آخر من بني طيّ وهو مازن بن الغضوية وثنا اسمه (باجر) كان لقومه، وكان هو سادنه، وكسره بعد أن أعلن اسلامه وتبرأته منه :

كسرتُ (باجَر) أجذاذاً وكان لنا   ربّا نطيف به ضلاً بتضلال
فالهاشميُّ هدانا من ضلالتنا   ولم يكن دينُه مني على بال
يا راكباً بلّغنْ عمراً وإخوتها   إني لمن قال ربي (باجر) قالِ[٢]

الشاعر هنا يشير الى تحطيمه ما كان يعبده ويطوف حوله، ليؤكد أن عبادته له كانت ضلالة.

وذكر الشاعر خزاعى بن عبد نهم المزني شعيرة أخرى من شعائر الجاهليين في عبادة الاوثان، وهي ذبحهم القرابين عندها. وقد أعلن أنه ذهب يوماً ليذبح عند صنمه (نهم) فتساءل مع نفسه السؤال الذي أثاره فيهم الإسلام، وهو لماذا الذبائح عند الحجارة الصُمّ التي لا تسمع ولا تضر ولا تنفع فقال :

ذهبتُ إلى نَهْم لأذبحَ عندَه   عتيرةَ نُسْكٍ كالذي كنتُ أفعلُ
فقلت لنفسي حين راجعتُ عقلَها   أهذا إلهٌ أبكمٌ ليس يعقلُ؟
أبيْتُ فديني اليومَ دينُ محمد   إلهُ السماءِ الماجدِ المتفضّلِ[٣]

ويدعو شاعر آخر قومه إلى ترك عبادة اللات، لأنها حجارة لا تستطيع ان تدفع الأذى عن نفسها، فكيف تستطيع أن تنصر من يعبدها، يقول شداد بن عارض :

رفع المسهم

لا تنصروا اللاتَ إن الله مهلكُها وكيف ينصر من هو ليس ينتصرُ
إن التي حُرِّقت بالسد فاشتعلتْ ولم تقاتل لدى أحجارها هَدَرُ[٤]

ويقال أن الرسول الكريم ﷺ لما بعث خالد بن الوليد ليكسر الأصنام في الكعبة ذهب الى صنم العزى، وكسره، وهو يرتجز مخالفا ما كان يسبح به المشركون أيام عبادتهم لها، فيقول :

يا عزّ كفرانكِ لا سبحانكْ إني رأيتُ اللهَ قد أهانكْ

ب- محاججة المشركين :

يقول بجير بن زهير، وهو أخو كعب بن زهير الذي أسلم قبل أخيه ودفعه حبه لأخيه إلى إرسال الأشعار والرسائل إليه يدعوه فيها الى الإيمان بالدين الإسلامي، فيقول في إحدى قصائده مخاطباً كعباً قبل ان يسلم، يدعوه الى توحيد الله لينجو من عذابه يوم القيامة :

إلى الله لا العُزّى ولا اللاتِ وحدَها فتنجو إذا كان النّجاءُ وتُنجمُ
لدى يوم لا ينجو وليس بمُفلتٍ من النارِ إلا طاهر القلبِ مُسلمُ
فدينُ زهيرٍ وهو لا شيء دينه ودينُ أبي سُلمى عليَّ محرّمُ[٥]

ويقول نوفل بن الحارث معلناً تبرأته من دين شيوخه الكافرين معلناً إسلامه وثباته على دينه، وأن النبي محمد ﷺ هو رسول أتى بالهدى من الله وانه ليس بشاعر كما يتهمه الكافرون المعاندون، وأنه مؤمن بالبعث والنشور:

لعمرُك ما ديني بشيء أبيعُه وما أنا إذ أسلمتُ يوماً بكافرِ
شهدتُ على أنّ النبيَّ محمداً أتى بالهدى من ربّه والبصائرِ
وأنَّ رسولَ الله يدعو إلى التقى وأنَّ رسول الله ليس بشاعرِ
على ذاك أحيا ثم أبعث موقناً وأثوي عليه ميتا في المقابر[٦]

رفع المسهم

ويسلم الشاعر الطفيل بن عمرو الدوسي فتهدده قريش، وتتوعده بالقتل، فلا يتراجع وإنما يعلن إسلامه بأبيات من الشعر يرسلها إليهم :-

ألا أبلغْ لديك بني لؤيٍ على الشَّنآنِ والغضبِ المُرّدِ
بأنَّ الله ربُّ الناس فردٌ تعالى جدُّه عن كل جَدّ
وأن محمداً عبدٌ رسولٌ دليلُ هدى وموضحُ كلَّ رشدِ
وأن الله جلَّله بهاءً وأعلى جدُّه في كلِّ جدِ[٧]

وهناك أشعار كثيرة وردت خلال قصائد الشعراء المسلمين حين يردون على شعراء المشركين، أو حين يذكرون الوقائع والفتوحات، فيصفون انتصار المسلمين وإيمانهم والتفافهم حول الرسول الكريم ﷺ، ويفخرون بإسلامهم وتوحيدهم لله عز وجل، لم نشأ أن نقتطع منها تلك الأبيات لنكتفي بالمقطوعات التي قالها اصحابها ليعلنوا إسلامهم وتوحيدهم لله تعالى.

ومما يتعلق بشعر الدعوة الى توحيد الله تلك الأبيات والقصائد التي قيلت في حروب الردة يناقش فيها الشعراء المسلمون المرتدين ويدعونهم إلى التعقل، وعدم الخروج على دين الله، واذا كان المرتدون قد قالوا هم أيضا أشعاراً كثيرة في هذا الشأن، فإن أشعار الجانبين أصابها الضياع والفقدان، نظراً للحروب الطاحنة التي شهدتها الأمة أيام حروب الردة من جهة، ولتحرج المسلمين من رواية الأشعار التي أعلن فيها المرتدون كفرهم، أو تراجعهم عن الإيمان بالدين الإسلامي.

إن ما وصل إلينا من هذا الشعر لا يتجاوز الأبيات والمقطوعات، ولعل لضراوة تلك الحروب أثراً كبيرا في انصراف الناس إلى القتال مرددين ما يقتضيه الموقف من أبيات قلائل، لأنَّ طول القصائد يحتاج إلى نفس طويل، والى فترة زمنية يعاود فيها الشاعر أفكاره وتأملاته، أمّا وهو في خضم تلك الحروب التي كانت تشكل للمسلمين مسألة البقاء أو الموت، البقاء للعقيدة، أو الفناء في سبيلها، فشغلهم الشاغل الاشتراك في ردع المرتدين وقتالهم.

رفع المسهم

جـ- مناقشة المرتدين:

إن الشعر الذي قيل في حروب الردة يسجل أكثر من ملاحظة، منها قلة هذا الشعر، وكون معظمه مجرد نظم لا يرقى إلى مستوى الشعر الجيد، ويبدو عليه الافتعال في نظم معان لا تمثل ظروفها، ولا قوة الحرب الطاحنة بين المسلمين والمرتدين، تلك الحروب التي لا تقل عن الحرب مع مشركي قريش أيام الدعوة الإسلامية. كما أن كثيراً من هذا الشعر مفتعل خال من العاطفة الدينية، أو حتى العاطفة القبلية، كما كثر فيه الشعر غير المنسوب، وهي ملاحظة يمكن أن تكون مقبولة لشدة انشغال المسلمين بالوقائع دون رواية الشعر وتوثيقه.

ونجد في بعض الأبيات القلائل التي صدرت عن قائليها في لحظات سريعة ومضات مشرقة تصور ثبات العقيدة في نفوس المسلمين ودفاعهم عنها.

فقد ذكر أن عبد الله بن مالك الأرحبي وقف ناصحاً قومه بني همدان حين أعلنوا ردتهم، ليعيد إليهم ثبات العقيدة منطلقا من الآية الكريمة ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وكان هذا الصحابي الجليل قد خاطب قومه قبل أن ينشدهم البيت بقوله: "يا معشر همدان إنكم لم تعبدوا محمداً، وإنما عبدتم رب محمد (وهو حي لا يموت)".

ويتألم شاعر آخر فينفث نفثة حسرة وهو يرى قبيلته مرتدة تتبع دعوة الدجال طلحة الكذاب فيقول :

لهفي على أسد أضل سبيلهم ... بعد النبي طليحة الكذاب[٨]

وقال الزبرقان بن بدر يردّ على قومه الذي رأوا منع الزكاة عن بيت مال المسلمين:

وقال رجال خلٌ عن صدقاتن ... فقلت: نعم تلك التي تورث العمى
أأقبضها لله ثم أردُّها ... إليكم جهلتم في المقال وبئسما
وإني لأستحيي لبدرٍ وشيخه ... على كل حالٍ أن يُذم ويشتما[٩]

والشاعر هنا يشير إلى منع الزكاة، ومعارضته لذلك، وإعلانه تأييد الخلافة.

رفع المسيهم

وهناك من أشار إلى تعطيل المرتدين ركناً من أركان الإسلام، وهو تركهم الصلاة وفي هذا يقول أحد الشعراء:

لعمري لئن أجمعت عامرٌ على كفرها بعد إسلامها
أضاع الصلاة بنو عامر وأهلكها منعُ أنعامها
وفي منعِها الحقَّ سفكُ الدماءِ ووصمُ النساء لأيتامها(١٠)

د- البراءة من المشركين :

يقول ضيف بن عمر في يوم القيامة - وهو من أيام حروب الردة - ذاكراً قتل أحد زعماء المرتدين، وهو محكم بن طفيل، معلناً بأن دينه دين الرسول (ﷺ) وأنه موحد يتمنى أن يموت، وهو ثابت اليقين والايمان بتوحيد الله:

أهلك القوم محكمُ بن طفيل ورجالٌ ليسوا لنا برجال
إنها يا سعاد من حدَثِ الدهر عليكم لفتنة الدجّال
إن تكن ميتتي على فطرة الله حنيفا فإنني لا أبالي(١١)

ويقول ثمامة بن أثال الثقفي مسفها دعوة مسيلمة الكذاب الذي ظن أن السجع في كلامه يعطيه سمة النبوة :

دعانا إلى ترك الديانة والهدى مسيلمةُ الكذّابُ إذْ جاء يسجعُ
فيا عجبا من معشر قد تتابعوا له في سبيل الغيّ والغيُّ أشنع(١٢)

وامرؤ القيس بن عابس شاعر ارتد قومه فخالفهم رأيه، وثبت على دينه وحاول أن يدعوهم إلى الرشاد فأبوا، فلم يجد بداً من إرسال شعر إلى الخليفة ابي بكر (رضي الله عنه) يعلن ثباته على دينه وعقيدته، وتبرئته من ردة قومه، ورحيله عنهم متخذاً أبيات الشعر وسيلة لإيصال رسالته :

رفع المسهم

الا بلغْ أبا بكر رسولا | وأبلغْها جميعَ المسلمينا
دعوتُ عشيرتي للسّلم حتى | رأيتُهم أغاروا مفسدينا
فليس مجاورا بيتي بيوتا | بما قال النبيُّ مُكذبينا
ولا متبدلاً بالله | ولا مبتدِّلا بالدين دينا
شأمتم قومَكم وشأمتمونا | وآخرُكم سيشأم آخرينا

هـ — العودة الى الإسلام مرة أخرى:

وهناك بعض المقطوعات التي أعلن فيها أصحابها توبتهم وعودتهم إلي الإسلام، وهي أشعار قليلة نظرا لكثرة القتلى في تلك الحروب الطاحنة بين المسلمين والمرتدين، يقول جندب بن سلمى :

قَدِمتُ وأيقنتُ الغداةَ بأنَّني | أتيتُ التي يبقى على المرء عارُها
شهدتُ بأنَّ الله لا شيء غيره | بني مدلج فاللّه ربّي وجارُها (١٣)

ويلاحظ أن معظم هذه الأشعار لا تتجاوز الأبيات المفردة، أو المقطوعات القصار وأصحابها لا يمكن أن يدرجوا ضمن الشعراء قدر كونهم مصورين لمواقف اقتضاها الثبات على العقيدة والدين، ويمكن أن يشكلوا مع شعراء الدعوة صورة لغرض جديد عرفه الشعر العربي صدر الآلام، وهو غرض العقيدة والثبات على الدين. ولن نطيل الوقوف في شعر الدعوة، لأن دراسة شعر حسان وعبد الله بن رواحة هي خير صورة لهذا الشعر، ومواكبته الأحداث وتفاعله مع تغيرات العصر ومتطلباته فكراً ولغة وأسلوباً.

رفع المسار

٢- شعر الجهاد والفتوح الإسلامية :

إن التغني بالبطولة والأمجاد ظاهرة أدبية موجودة في أدب ما قبل الإسلام، عرفناها في أدب الفروسية، وشعر أيام العرب، أو مفاخر الشعراء بقبيلتهم الذي يجعلهم يمجدون بطولات فرسانها، أو يشيدون ببطولاتهم بالذات، دفاعاً عن القبيلة أو أخذاً للثأر، وغير ذلك من المعاني التي دارت على ألسن الشعراء الفرسان عند عنترة بن شداد، وشعراء الصعاليك مثل عروة بن الورد والسُليك والشنفرى، وغيرهم، من الشعراء. إن شعر الفروسية هذا قد تطور في العصر الإسلامي، وقد دخلت فيه مفاهيم جديدة أغنته وأعطته طابعاً خاصاً حين ابتعد الشعراء الفرسان عن العصبية القبلية، أو الهوى الشخصي، واكتسبت أشعار البطولة عندهم طابعاً دينياً مبعثه العقيدة الراسخة والإيمان الذي لا يتزعزع، واذا بالشعراء المسلمين يتغنون بأبيات تثير حماسهم، وحماس من معهم، ويتخيلون الجنة وظلالها الوارفة، فتتحول السيوف المشرعة أمامهم إلى أغصان مورقة توصلهم إلى الجنة، وإذا بصليل تلك السيوف نغمات تطرب نفوسهم لها، لأنها تقربهم من الأمل المنشود، الشهادة في سبيل الله، أو النصر على الأعداء حيث الثواب والأجر.

أ- الثبات على العقيدة في مكة :

وقد ظهرت هذه الصورة منذ فجر عصر الدعوة الإسلامية، فمنذ أن ظهر الإسلام بمكة، وقريش والمشركون يحاولون أن يثنوا المسلمين عن الدين الجديد بشتى الطرق والوسائل، فلما أعياهم ذلك لجأوا الى القوة والبطش وتعذيب المسلمين. وقد وصلت بعض المقطوعات التي عبر فيها أصحابها عما يلاقونه من عذاب وهوْل على أيدي المشركين، فهذا خبيب بن عدي الأنصاري الذي قتله المشركون بمكة يدعو الله – قبل قتله – أن يصبره على تحمل أذى المشركين، وهو غير خائف من القتل، إنما هو خائف على عقيدته من أن تضعف، أو تهون بسبب تعذيب المشركين له، فيخاف على نفسه من عقاب الله في الآخرة. وقيل إنه قالها حين أسَرَهُ مشركو قريش في مكة وعذبوه:

فذو العرشِ صبّرْني على ما أصابني ... فقد بَضَعوا لحمي وقد ضَلَّ مطمعي
وما بي حذارَ الموتِ إني لميتٌ ... ولكن حذارِ حرِّ نارٍ ملفَّعِ
ولستُ بمبدٍ للعدو تخشُّعا ... ولا جزِعاً إنّي إلى الله مَرجعي
ولستُ أبالي حين أقتلُ مسلما ... على أي حال كان في الله مصرعي(١٤)

وحين عذّب المشركون عمار بن ياسر وأباه وأمه وعدداً من المسلمين، قال عمار قصيدة يعلن فيها صبره على الأذى وتشبثه بدين التوحيد، ويدعو الله أن ينجيه من أذى المشركين، ويذكر بلال بن رباح وأمه حمامة وأصحابه، وما كانوا فيه من البلاء، معلناً إيمانه بتوحيد الله، واعترافه بالأنبياء والرسل من خلال دعائه لرب الناس جميعاً، رب الأنبياء ابراهيم ويونس، وموسى، وعيسى :

جزى اللهُ خيرا عن بلال وصحبهِ ... عتيقاً وأخزى فاكهاً وأبا جهل
عشيةَ همّا من بلالٍ بسوءَةٍ ... ولم يحذرا ما يحذر المرءُ ذو العقل
بتوحيده ربَّ الأنام وقولِهِ ... شهدتُ بأنَّ الله ربي على مَهْلِ
فإن يقتلوني يقتلوني فلم أكنْ ... لأشركَ بالرحمن من خيفةِ القتل
فيا ربَّ إبراهيم والعبدِ يونسٍ ... وموسى وعيسى نجِّني ثمَّ لا تُبلي
لمن ضل يهوى الغي من آل غالب ... على غير برٍّ كان منه ولا عدل(١٥)

ب- الهجرة في سبيل الله :

وحين أذن الرسول الكريم (ﷺ) للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة، ووجد المسلمون هناك الأمن والطمانينة، بعث بعضهم رسائل شعرية إلى أخوانهم المسلمين يرغبونهم في الهجرة، فأرض الله واسعة، ويستطيع المسلم أن ينأى عن الذل والهوان، فيقول عبد الله بن الحارث :

يا راكباً بلِّغنْ عني مغلغلةً ... من كان يرجو بلاغَ اللهِ والدين
كلَّ امرئ من عبادِ اللهِ مضطهدٍ ... ببطنِ مكةَ مشهورٍ ومفتونِ
إنا وجدنا بلادَ الله واسعةً ... تُنجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذلِّ الحياةِ ولا ... خزي الممات وعيبٍ غيرِ مأمون
إنا تبعنا رسولَ الله فاطّرحوا ... قولَ النبي، وكالوا بالموازين
فاجعلْ عذابَكَ في القومِ الذين بَغوْا ... وعائذ بك أن يعلو فيطغوني(١٦)

لقد شاء الله أن يختبر صبر المسلمين، في تحملهم لأذى المشركين مرة، وتحمل فراق الأهل والديار والأحبة مرة أخرى. وتكون الهجرة هذه المرة الى المدينة، فيترك المسلمون ديارهم وأهليهم وأحباءهم مهاجرين بدينهم، ملتحقين بالنبي ﷺ.

رفع المسهم

قصيدة وتحليل

تستحق قصيدة أبي احمد بن جحش الوقوف عندها لما فيها من المعاني الإنسانية الرقيقة، والمبادىء الإسلامية التي تمثلها فكر الشاعر، ووعاها منذ وقت مبكر. لقد كان ابو احمد بن جحش من أوائل المهاجرين من مكة الى المدينة مع أخيه عبد الله بن جحش، وأهله يقول :

ولما رأتني أم أحمدَ غاديا ... بذمةِ من أخشى بغيب وأرهبُ
تقول فإمّا كنت لا بدَّ فاعلاً ... فيمِّمْ بنا البلدانَ، ولْتنأ يثربُ
فقلت لها: بل يثربُ اليومَ وجهُنا ... وما يشأِ الرحمنُ فالعبدُ يركبُ
إلى الله وجهي والرسولِ ومنْ يقم ... إلى الله يوماً وجهَه لا يُخيَّبُ
فكم قد تركنا من حبيبٍ مناصحٍ ... وناصحةٍ تبكي بدمعٍ وتندبُ
ترى أنَّ وِتراً نائياً عن بلادِنا ... ونحن نرى أنَّ الرغائبَ نطلبُ
دعوتُ بني غُنمٍ لحقنِ دمائِهم ... وللحق لما لاح للناس مَلْحَبُ
أجابوا بحمد الله لمّا دعاهم ... إلى الحقِّ داعٍ والنجاح فأوعبوا
وكنا وأصحاب لنا فارقوا الهدى ... أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا
كفوجين: إمّا منهم فموفَّق ... على الحق مهديٌّ وفوجٌ معذَّبُ
طغوا وتمنوا كذبةً وأزلّهمْ ... عن الحق إبليسٌ فخابوا وخيِّبوا
ورعنا إلى قولِ النبي محمدٍ ... فطابَ ولاةُ الحق منا وطيِّبوا
نمتُّ بأرحامٍ إليهم قريبةٍ ... ولا قربَ بالأرحام إذ لا تُقرَّبُ
فأي ابن أختٍ بعدنا يأفننّكم ... وأيةُ صهرٍ بعد صهري ترقَّبُ
ستعلم يوماً أيُّنا إذ تزايلوا ... وزُيِّل أمرُ الناس للحق أصوبُ(١٧)

أبو أحمد بن جحش، اسمه عبده بن جحش بن رباب الأسدي، أمه وأمُ أخيه عبدالله بن جحش أميمة بنت عبدالمطلب عمة الرسول ﷺ قيل عنه: أنه أول من خرج إلى المدينة مهاجرا من مكة من أصحاب رسول الله ﷺ مع أخيه عبدالله. توفي نحو ٢٠ هـ.(1)

(1) الإصابة، الترجمة المرقمة ٩٨، الطبقات الكبرى ٨/ ٤٦ أسد الغابة ٦/ ٧، مطبعة الشعب.

رفع المسهم

إن أبا أحمد هذا صحابي اسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وأم أحمد زوجه هي الفارعة بنت أبى سفيان هاجرت معه إلى المدينة. وإذا كنا لا نعده رائد الشعر الإسلامي لأنه بدأ بالدفاع عن الإسلام قبل حسان بن ثابت كما يرى الأستاذ الدقة(١٨)، فلأنَّ هناك من سبقه إلى الشعر الإسلامي الذي عبر فيه أصحابه عن صبرهم على العذاب في مكة قبل الهجرة إلى الحبشة أو المدينة، أو فيما أرسلوه من أشعار في هجرتهم الثانية إلى المدينة، كما مر بنا قبل قليل. إن أبا أحمد بن جحش يمكن أن يعد من أوائل الشعراء الذين آمنوا أيمانا قوياً بالإسلام ورسالته، وظهر هذا الإيمان في أشعارهم. فما أوردناه هنا ليس أبياتا مفردة، ولا نفثات متألم صابر فحسب، وإنما هي قصيدة متكاملة المعاني، سلسة الألفاظ، اعتمد فيها الشاعر على حواره مع زوجه، ليوصل الينا معاناته ومعاناتها وهما يقرران القرار الحاسم المصيري في ترك ديارهم والهجرة إلى المدينة حيث النبي ﷺ.

يجعل الشاعر قوام قصيدته ومطلعها حديثه عن أم احمد زوجه التي حاولت أن تغير وجهة هجرته إلى مدينة أخرى غير يثرب، ربما لتبعده عن المواجهة الصريحة مع المشركين وهم أهلها وذووها. والملاحظ أنه يسميها يثرب وليس المدينة، لأنها لم تشرَّف بهذا الاسم بعد. والقصيدة تحمل وحدة موضوعية بدءاً من المطلع حتى النهاية، ففكرتها الهجرة في سبيل الله، والإطار الذي يوحدها أن الشاعر يريد أن يتخلص من قبضة أهله وأحبائه الذين ما يزالون على شركهم، بادئاً بزوجته المسلمة، منهياً الحديث عن أصهاره الذي لم يرعوا صلة القرابة التي تربطهم به، فزوجته هي بنت أبى سفيان، وأمه بنت عبد المطلب... وهو حديث عن صلة القرابة التي لم تمنع المشركين من أذى قريبهم وحليفهم، ولم تحل هي نفسها دون مغادرتهم وهجرة مكة الى المدينة.

لقد حمل الشاعر لغة قصيدته مفردات وأفكاراً إسلامية شغلت معظم أبياتها، مما يدل على تأثر الشعراء بلغة القرآن منذ وقت مبكر :

- يحمل المطلع الفكرة الإسلامية التي دعته إلى الهجرة انه يخشى الله تعالى، ويريد أن يسافر في سبيله ويهاجر.

رفع المسهم

- هجرته الى يثرب، وتلك إرادة الله (وما يشأ الرحمن فالعبد يركب).
- هجرته الى الله ورسوله، ومن يتوجه إلى الله لا يخيب.
- - انه يرغب في ثواب الله، وان كانت مغادرة الديار فيها ظلم وأذى (ونحن نرى أن الرغائب نطلب).
- يحمد الله لأن هناك من أجاب داعي الله والرسول في الهجرة إلى المدينة.
- حين يصف الشاعر المشركين يصفهم بأنهم فارقوا الهدى، وانهم سيكونون معذبين مستخدماً لفظ فوج الواردة في القرآن في صفة أهل النار.
- وأخيراً يعلن استجابته، وأصحابه المسلمين إلى نداء النبي محمدﷺ. أما المشركون فقد أزلهم إبليس عن الهدى.
- في القصيدة خصوصية أخرى ربما انفرد بها، أو قلَّ ورودها عند غيره من الشعراء تلك هي حفاظه على تسمية من فارقهم من أهل مكة بالأصحاب، وينقل لنا مشاعره الصادقة إزاءهم. لقد هاجر إلى يثرب لأنه يلبي داعي الله، ولأنه يريد أن ينجو بدينه، أما الذين يتركهم فهم أصحابه، وأحباؤه. لقد ترك من يودهم ويودونه، ويقدمون له النصيحة (البيت الخامس)، فهم أصحاب ولكنهم فارقوا الهدى.

وفي البيت الثالث عشر والرابع عشر يذكر صلة الرحم التي تربطه بهم، والتي لم تعد تجدي شيئاً، لأنهم يحاربون من يهديه الله إلى الإسلام.

ويشير في البيت الرابع عشر خاصة إلى أبى لهب عبد العزى وأبي سفيان صخر بن حرب، إذ كانت أميمة بنت عبد المطلب أم الشاعر، والفارعة بنت ابي سفيان زوجه التي هاجرت معه(١٩)، إنها صلة رحم قوية يشدها وثاق آخر وهو الحلف، ومع ذلك لم يحفظوا ذمته، لأنهم أعلنوا الحرب على كل من دخل الإسلام.

ونعود إلى شعر هذا المجاهد وسيرته التي تعد أنموذجاً رائعاً للهجرة في سبيل الله، لقد هاجر أبو احمد وترك داره في مكة. وهنا يردنا خبر طريف جداً، وهو أن أبا سفيان باع دار صهره أبى احمد بعد أن هاجر إلى المدينة ويهتز الشاعر لنبأ بيع داره، فيخاطب

رفع المساهم

أبا سفيان، ويؤنبه على فعلته... وهو معنى من المعاني الجديدة التي انفرد بها أبو احمد بن جحش :

أبلـغ أبـا سـفيان عـن ... أمـرٍ عواقـبُه نَدامـهْ
دارُ ابـنِ عمّـك بعـتَها ... تقضـي بهـا عـنك الغـرامة
وحلـيفكم بـالله ربُّ الـناس ... مجـتهـد الإقامـة
اذهـبْ بهـا اذهـب بهـا ... طُوِّقـتها طـوق الحمامـة [٢٠]

إن تكرار فعل اذهب بها مرتين يدل على ألم الشاعر النفسي لضياع داره، وبيعها من قبل من تربطه به صلة قرابة قوية، انه والد زوجته فيحمل هذا التكرار ألم الشاعر من جهة، ودعاءه بالسوء عليه. لقد التفت السهيلي الى تعبير الشاعر في الشطر الثاني (طوقتها طوق الحمامة) ليقول انه منتزع من قول النبي ﷺ: من غصب شبراً من أرض طوَّقه يوم القيامة من سبع ارضين. وقال : طوق الحمامة لان طوقها لا يفارقها، ولا تلقيه عن نفسها أبداً كما يفعل من لبس طوقاً من الآدميين.[٢١] أيكون الشاعر قد تحدث عن بيع داره، وشكا الى الرسول ﷺ أمره فقال عليه السلام الحديث ؟ وحين نظم الشاعر قصيدته اقتبس معنى الحديث الشريف؟. أننا لا نملك الدليل على الوقت الذي قال فيه الرسول ﷺ الحديث ولا عن أسبابه، إلا انه يبقى اقتباساً جميلاً ومبكراً من قول الرسول الكريم. ويعلق جامع شعره على البيتين بقوله: (ما أرق طبع أبي احمد حين يستمد من أقوال النبي ﷺ شعراً رائعاً مبتكراً معانيه وصوره وألفاظه).[٢٢]

وحين يقيم الشاعر بعد هجرته في المدينة يأخذه الحنين الى مكة وواديها، فقد كان رحمه الله بصيراً، ولكنه حفظ طرق مكة وثناياها فكان يسير فيها بلا هادٍ ولا قائد، ويحن إليها لأنها الأرض التي تضم أهله وأحباءه فيقول :

يـا حـبَّذا مكـةُ مـن وادِ
أرضٌ بهـا أهلـي وعُـوّادي
إنّـي بهـا ترسـخُ أوتـادي
إنّـي بها أمشي بلا هادي [٢٣]

رفع المسهم

وقيل أن أبا بكر رضي الله عنه كان يمر بين يدي رسول الله ﷺ يوم فتح مكة ويرتجز بأبيات أبي احمد. (٢٤)

جـ- الجهاد في سبيل الله :-

لقد قيلت هذه الأشعار أول الدعوة الإسلامية حين كتب الله لدين الإسلام أن ينتشر، وأن يجد أنصاراً من أهل المدينة والمهاجرين، فأمرهم بالجهاد وأذن لهم في مقاتلة المشركين، وهنا تدخل أشعار الجهاد مرحلة جديدة تعطيها نفسا خاصاً حين يشجع المسلمون بعضهم بعضا على الثبات في المعارك، وهو معنى وارد في شعر ما قبل الإسلام، إلا أن الروح الإسلامية قد وجهته وجهة جديدة، فالشاعر المجاهد يدعو الى الصبر في القتال أو الموت في سبيل الله أملاً في الجنة وثواب الله فيها. فهذا عمر بن الحمام يرتجز يوم بدر ثم يستشهد في المعركة نفسها قائلاً قبل استشهاده :

ركضاً إلى الله بغير زاد
والصبر في الله على الجهاد
وكلُّ زاد عرضة النفاذ
إلا التُّقى وعمل المعاد
غير التقي والبر والرشاد (٢٥)

وقد مرّ بنا نموذج رائع من نماذج المجاهدين الذين استماتوا في القتال، وجاهدوا بروح مفعمة بالإيمان والصبر وتمني الشهادة في سبيل الله من خلال دراستنا التفصيلية للشاعر المجاهد عبد الله بن رواحة، والعودة إلى أشعار هذا الشاعر بين الفينة والأخرى يعيد الى الذاكرة صور أبطال وجهت مبادئ الإسلام تفكيرهم وسلوكهم فصاروا مشاعل تنير درب المجاهدين الصابرين مما قد مر بيانه من قبل، ولذلك نتابع روح الجهاد والصبر في شعر الشعراء الآخرين. فهذا مجاهد آخر يمتحن الله إيمانه في بدر فتقطع رجله، ويبقى مع ذلك صامدا ثابتا على دينه راغبا في الجهاد والقتال، فإن كانت رجله قد قطعت في سبيل الله، فسيكون جزاؤه الجنة ثوابا من الله تعالى، ونراه متمثلا فيها بآيات كريمة تصف الجنة، وما فيها من الحور العين والظلال الوارفة يقول:

رفع المسهم

فإنْ تقطعوا رجلي فإنيَ مسلمٌ أُرجَّى بها عيشاً من الله دانيا
مع الحورِ أمثالِ التماثيلِ أُخلِصتْ مع الجنة العليا لمن كان عاليا
وبعتُ بها عيشاً تعرَّقتُ صفوَه وعالجته حتى فقدت الأمانيا
فاكر مني الرحمن من فضل منّه بثوب من الإسلام غطّى المساويا(٢٦)

وشاعر آخر اسمه عبد الله بن سبرة الخرشي مجاهد آخر يبارز الروم في إحدى المعارك، فتقطع يده اليمنى فيفخر بهذا الوسام الذي ناله في شرف الجهاد في سبيل الله، ويفخر بأنه قد قطع بها أوصال ارطبون الروم، فلا يأسف لقطعها، لأنها أدت الرسالة، ويرى انه مازال فيها خير لأنه يستطيع أن يمسك بها رمحه ويقول:

يُمنى يديٍّ غدتْ منّي مفارقةً لم أستطعْ يوم فلطاسٍ لها تبعا
وقائلٍ غاب عن شأني وقائلةٍ الا اجتنبتَ عدوَّ الله إذ صرعا
وكيف أتركه يسعى بمنصلِه نحوي وأعجزُ عنه بعد ما وقعا
ما كان ذلك يومَ الروعِ من خُلُقي ولو تقاربَ مني الموتُ فاكتنعا
فإنْ يكنْ أطربونُ الرومِ قطّعها فقد تركتُ بها أوصاله قِطعا
وإنْ يكنْ أطربون الروم قطعها فإنَّ فيها بحمد الله منتفعا
بنانتين وجذمورا أقيم بها صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا(٢٧)

أما عروة بن زيد الخيل فانه سجل بطولاته في حروب المسلمين مع الفرس وهو وإنْ ذكر الجنة إلا انه تحدث عن العقيدة من جانب آخر، حين ذكر بأن نيته في الجهاد صادقة لا هدف له إلا الأجر، أما الثروة التي قد تخطر في بال كثير من الفرسان قبل الإسلام فهي متوافرة، ولا شأن له بها وهو زاهد فيها، ودافعه صدق العقيدة ليس إلا. وهذا هو الذي ميز شعر الجهاد عن شعر الحرب المعروف قبل الإسلام، كما أن قوله الذي سنورده بعد قليل رد على من حاول تفسير الفتوح الإسلامية تفسيرا ماديا، وأنه بسبب الحصول على الغنائم والأموال يقول عروة: (٢٨)

ولما دعوا يا عروة بن مهلهل ... ضربتُ جموعَ الفرسِ حتى تولَّتِ
دفعتُ إليهم رحلتي وفوارسي ... وجرَّدْتُ سيفي فيهمُ ثم آلتي
وكم من عدوٍ أشرس متمردٍ ... عليه بخيلي في الهياج أطلَّتِ
وقد أضحتِ الدنيا لديَّ ذميمةً ... وسلَّيتُ عنها النَّفسَ حتى تسلَّتِ
وأصبح همّي في الجهاد ونيّتي ... فلله نفسي أدبرتْ وتولَّتِ
فلا ثروة الدنيا نريد اكتسابَها ... ألا أنّها عن وفرها قد تجلَّتِ
وما ذا أرجّى من كنوز جمعتُها ... وهذي المنايا شرَّعاً قد أطلَّتِ

وإذا كان أدب البطولة معروفاً في الشعر الجاهلي، فان العقيدة بمفهومها الفكري لم يكن لها وجود، وإنما نشأت بظهور الإسلام ديناً ذا فكرة واضحة قائمة على التوحيد لتنظيم الحياة الدينية والدنيوية، أو علاقات الناس بعضهم ببعض، وعلاقاتهم بخالقهم، إلى غير ذلك مما يشكل العقيدة الإسلامية التي وجدت طريقها إلى لغة الشعر وأخيلته بعد أن استقرت في قلوب المسلمين. ومن الطبيعي أن يتجلى شعر العقيدة في أشعار الدعوة الإسلامية على لسان حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وآخرين غيرهم ممن تصدى للدفاع عن الدعوة الإسلامية، والذب عن المسلمين بوسيلة الشعر، لكننا سوف نتجاوز هذه الأشعار لنتحدث عن جوانب أخرى جدَّت فيما بعد، واستحدثت نتيجة للظروف الجديدة التي عاشها المجتمع العربي الإسلامي، حيث انتقل المسلمون من أرض بلاد العرب المعروفة إلى بلاد الله الواسعة، يحملون إليها راية العقيدة والإيمان بالدين الجديد، هذه الحركة الكبيرة التي كان لها أثرها في تغيير معالم المجتمع العربي والإسلامي، تركت آثاراً واضحة في الشعر.

د- صور إنسانية في شعر الفتوح:

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا بأننا نجد في الشعر الذي قيل في عصر الفتوحات الإسلامية أسمى العواطف الإنسانية في علاقة الأفراد بعضهم ببعض، وفي انفعالاتهم وهواجسهم، وتصوير ما يخالج نفوسهم من مشاعر الشوق والفرح والانفعال السريع بالانتصار، أو ربما ما يخالج نفوس بعضهم من خوف يعتريهم أو قلق على الأهل والأحبة.

رفع المسامهم

وقد اخترنا الحديث عن هذه الصور الإنسانية المشرقة التي وردت في شعر هذا العصر، ونستطيع أن نوزعها على مجموعتين :

١- شعر المقعدين والشيوخ :

وهي صور إنسانية رائعة لم ترد على لسان المجاهدين، وإنما قالها الشعراء المقعدون الذين قعدت بهم شيخوختهم عن الجهاد والمشاركة فيه، ولم يكتفوا بهذا، بل تجاوزوه الى المطالبة بالتشبث بأبنائهم لأن ضعفهم الجسدي أدى إلى ضعف إرادتهم وعدم قدرتهم على الصبر وتحمل الفراق، كما انه يصور من جانب آخر ثبات الأبناء على عقيدتهم، واندفاعهم إلى الجهاد مع علمهم برغبة آبائهم وأمهاتهم.

وإذا كانت هذه الحالة غير شاملة ولا يمكن أن تعمم على جميع الشيوخ، إلا أنها طبيعية وموجودة في المجتمعات الإنسانية على اختلاف الظروف والأزمان.

يقول المخبل السعدي مخاطبا ابنه الذي شارك في الفتوح الإسلامية واصفاً شيخوخته وخوفه وقلقه عليه إلى درجة تجعله يتصور بأنه يعاني الموت والهلاك كل ليلة، وكأنه يطبق المثل العربي المشهور (أن الشفيق بسوء ظن مولع)، فهذا الشيخ يدفعه حبه لابنه إلى القلق عليه إلى درجة تقض عليه المضاجع، وكأنه يشرف على الموت شفقا وخوفا :

أيهلكني شيبانُ في كلِّ ليلة ... لقلبيَ من خوفِ الفراق وجيبُ
ويخبرني شيبانُ أنْ لم يعقَّني ... تعقُّ إذا فارقتني وتحوبُ
فإنْ يكُ غصني أصبح اليومَ باليا ... وغصنُك من ماءِ الشباب رطيبُ
فإنّي حَنَت ظهري خطوبٌ تتابعت ... فمشيي ضعيف في الرجال دبيب
إذا قال صحبي يا ربيع ألا ترى ... أرى الشيء كالشيئين وهو قريب(٢٩)

فالشاعر هنا يرسم لنا صورة رائعة للأبوة المحبة الحانية، وكأنه يستعطف ابنه حين يذكره في البيت الثاني بأن انخراطه في جيش المجاهدين وابتعاده عنه إنما هو العقوق بعينه، وكأني أرى الابن وقد أعطى العهد لوالده أن يكون ملتزما بالتعاليم الإسلامية التي وضحتها الآية الكريمة ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ [الإسراء:٢٣]، أقول يخيل الي بأن الابن قطع عهدا على نفسه أن يكون باراً بأبيه، وألاّ يُعقه، فيؤكد الأب بأن تصرفه هذا هو العقوق بعينه مادام يجر الأذى والألم والعذاب له، ثم اكمل الصورة برسم معالم جسده المتعب الفاني الذي أنهكته الخطوب المتتابعة، وانحنى ظهره، وصار مشيه في الرجال دبيبا ضعيفا، فإن سأله أصحابه عن نظره أجابهم بأنه ضعيف يرى الشخص كالشخصين وهو قريب منه.

إنها صورة رائعة لملامح شيخوخة متعبة، حاول الشاعر أن يستعطف قلب ابنه، فيرده عن عزمه على الجهاد والمشاركة في الفتح.

وأمية بن الاسكر شاعر اسمه أمية بن حرثان بن الاسكر بن عبد الله سرابيل الموت، كان شاعراً سيداً. ذكره ابن سلام في الطبقة العاشرة من شعراء الجاهلية(٣٠)

وذكر عنه انه عمر في الجاهلية طويلا، وألفاه الإسلام هرماً (٣١) وهذا يعني انه كان شيخاً فانياً زمن الخليفة عمر بن الخطاب الذي قال في أيامه شعراً وصف فيه صورة إنسانية مماثلة لصورة المخبل السعدي، ولكنه أضاف إليها صورة الزوجة، فإذا باللوحة متكاملة العناصر، شيخان كبيران يناشدان ابنهما البقاء، ويذكرانه بكتاب الله، وكأن الابن وهو يطيع داعي الله لم يقرأ القرآن، والشاعر يشير الى آية واحدة بالذات من القرآن الكريم وهي التي أشرنا إليها من قبل والتي تأمر بالبر بالوالدين:

لمن شيخانِ قد نشدا كلابا ... كتابَ الله إنْ حفظَ الكتابا
أناديه فولاني قفاهُ ... فلا وأبي كلاب ما أصابا
إذا سجعتْ حمامةُ بطنِ وجٍ (٣٢) ... على بيضاتها أدعو كلابا
أتاه مهاجران تكنَّفاه ... عبادَ الله قد عقَّا وخابا (٣٣)

والشاعر هنا حين رسم صورة ابنه الذي ولاّه قفاه، والتحق بالمهاجرين بعد التحاقه هذا، وانه مجانب للصواب، ويبالغ أكثر بسبب الانفعال الشديد والحزن على فراقه، فيصف المهاجرين الفاضلين اللذين دلاّ ابنه على افضل الأعمال، يعدهما

عـاقين أيضـا، وقـد خابا في نصيحتهما، وما ذلك إلاّ بسبب عاطفة الأبوة التي ملكت نفس الشـاعر فـلم يعـد ينظر إلاّ بها، ثم يستمر برسم معالم الصورة بأن الابن ذهب وارتحل تاركـاً أباه مرتعشة يداه بسبب الشيخوخة والكبر، وأمه منغصة العيش حزينة لا يكـاد يسيغ لهما شراب، ثم تصل عواطفه ذروتها، فيخيل إليه بأن ابنه الذي التحق بصفوف المجاهدين طلبا للأجر والثواب، لن ينال هذا الآجر فهو مثل باغي الماء يرى السراب أمامه فيخيل إليه انه ماء :

تركـتَ أبـاكَ مرعشـةً يـداه ... وأمّـك مـا يسـيغُ لهـا شـرابا
فـإنك والـتماس الأجـرِ بعـدى ... كـباغي المـاءِ يتّـبع السـرابا (٣٤)

وحين لا يحفل كلاب برغبة أبيه في رده عن الجهاد يذهب الشيخ الضعيف الذي هـدَّه فـراق ولـده الى الخليفة عمر بن الخطاب ﵁ ويستعطفه أن يرد عليه ابنه بأبيات يخاطـب فـيها زوجـه، يظهـر مـن خلالها حنينه إلى ولده، ويختم أبياته بمخاطبة الخليفة الراشد بأنه يشكو أمره إلى الله أن لم يردد إليه ابنه :

أعـاذِلُ قـد عذلـتِ بغـير عـلمٍ ... ومـا تدريـنَ عـاذلُ مـا ألاقـي
فإمّـا كنـتِ عـاذلتي فـردِّي ... كلابـا إذ توجّـهَ للعـراق
ولم أقـضِ اللّـبانة مـن كـلاب ... غـداة غـدوا وآذن بالفـراق
فـتى الفتـيان في عُسْـرٍ ويُسْـرٍ ... شـديدُ الـركن في يـومِ الـتلاقي
فـلا وأبـيك مـا باليـتَ وجـدي ... ولاشَـغَفي علـيك ولا اشـتياقي
وإبقـائي علـيك إذا شـتونا ... وضـمكَ تحـت نحـري واعتـناقي
فلـو فلـقَ الفـؤادَ شـديدُ وَجْـدٍ ... لهـمَّ سـوادُ قلـبي بـانفلاق
سأسـتعدي عـلى الفـاروق ربّـا ... لـه عمـدَ الحجـيجُ إلى سـباق
وأدعـو الله محتسـبا علـيه ... بـبطنِ الأخشـبين إلى دِفـاق
إنِ الفـاروقُ لم يُـرْددْ كلابـا ... عـلى شـيخين هامُهمـا زواق

ويأمـر الخلـيفة عمـر (﵁) بإقفـال كـلاب وإعادتـه إلى أبيه (٣٥)، وهكذا يكمل الشـاعر معـالم لوحـة الأبوة والأمومة الحانية، وتبقى صورة الابن المجاهد الثابت على عقـيدته ومـبدئه واضحة من خلالها، لأنه لم تؤثر فيه كل هذه النداءات الموجهة إليه،

رفع المسامهم

ولأن نداء الله في وجوب الجهاد ورفع كلمة الله أقوى من نداء الآباء والأمهات.

وقد ذكر أن خراش بن ابي خراش الهذلي هاجر أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مع الجيوش المجاهدة، فقدم أبوه وكان شاعراً إلى المدينة وشكا إلى الخليفة شوقه إلى ولده، وحاجته إليه لكونه شيخاً عاجزاً، لا أهل له ولا أخوة يعينونه على قضاء حوائجه والأخذ بيده وأنشده قوله :

ألا من مبلغٍ عني خِراشاً ... وقد يأتيكَ بالخَيرِ البعيدُ
وقد يأتيكَ بالأخبار منْ لا ... تجهَّزُ بالحداءِ ولا تزيد
يناديه ليغبقَه كليب ... ولا يأتي، لقد سفِهَ الوليد
فردَّ إناءه لا شيءَ فيه ... كأنَّ دموعَ عينيه الفريدُ
وأصبحَ دون غابقِه وأمسى ... جبالٌ من حِرار الشام سودُ
ألا فاعلمْ خراشُ بأنَّ خير الـ ... مهاجرين بعد هجرته زهيد
رأيتُكَ وابتغاءَ البرّ دوي ... كمحصورِ اللّبان ولا يعيد(٣٦)

ويلاحظ هنا أن هجرة الابن وانخراطه مع المجاهدين بصدق عقيدة وإيمان، قد هز عواطف أبيه الشيخ الفاني، ولكنها عواطف نفس متعبة ضعيفة بسبب السن، لا فساد العقيدة، فهو ما يزال يتخيل ابنه صغيرا، لأنه لم يستجب لندائه، وكأنه ناداه حقا ليرعاه ويسقيه اللبن كعادته معه حين كان وليدا، ولما لم يجبه عدّه سفيها، ولكنه سرعان ما يتذكر أن ابنه صار رجلا فيتألم لفراقه، لأنه يعرف المسافة التي تبعده عنه، وهي ما بين المدينة والشام فتغرق عيناه بالدموع، ويذكر ابنه بأن جهاده الحقيقي يكون في رعايته لأبيه الضعيف، كأنه في هذا متأثر ببعض أقوال الرسول الكريم (ﷺ) التي أوصى فيها الأبناء بلزوم الوالدين، وعدّ هذا اللزوم جهاداً، إن لم يكن لهما من يرعى حقوقهما.

وتبقى إعادة الخليفة عمر رضي الله عنه لابن هذا الشيخ، صورة إنسانية رائعة لرعاية الشيخوخة والآباء، علما أن مثل هذه الصور الإنسانية لم تكن هي السائدة حقا، فلولا قوة إيمان المسلمين وعقيدتهم في الجهاد، وانخراطهم في صفوف الفاتحين لما

رفع المسـاهم

نشر الإسلام في بقاع الأرض الممتدة. وفي أخبار الفاتحين الكثير من الاقباس النيرة التي تصور انخراط الأبناء والاخوة والآباء معاً في صفوف المجاهدين غير مبالين بالأموال والأرواح راغبين في ثواب الله عز وجل.

٢- شعر الشباب والابناء المجاهدين :

إن روح الحماس التي طغت على الشباب جعلتهم ينضوون تحت راية الجهاد الأكبر تاركين حياة الاستقرار. ويجب أن نتذكر هنا أن طبيعة تكوين الجيوش آنذاك مختلفة كل الاختلاف عن حالتها في الوقت الحاضر، فقد كان الانضمام إليها تطوعاً لا إجبارا، ويكفي أن ينادي منادي الخليفة بأن الجيوش تتوجه إلى فتوح العراق، أو الشام أو بلاد فارس، حتى يسرع الرجال والمقاتلون بأسلحتهم، يدفعهم الإيمان بالله وطلب ثوابه. هذه الروح هي التي جعلتهم يتغاضون عن الانفعالات والعواطف القوية التي تربطهم بأهليهم وأحبائهم، فالنابغة الجعدي يصوّر في أبيات له زوجته المحبة التي ترغّبه في البقاء، وتذكره بالمودة التي تجمع بينهما، وتحاول ان تثنيه عن عزمه بدافع الحب، والخوف عليه خوف الشفيق الودود، او تذكره بالله ورسوله وتنهل دموعها، فيجيبها جواب العقيدة ويشير الى قوله تعالى:﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ (سورة البقرة الآية ٢١٦) وكيف ينثني عن عزمه وواجبه وهو ممن لم تستثنه الآيات الكريمة حين استثنت الاعمى والاعرج والمريض من فرض الجهاد ؟.

باتتْ تذكرني باللهِ قاعدةً — والدمعُ ينهَلُ من شأنيهما سُبُلاً
يا بنتَ عمّي كتابُ الله أخرجني — كُرْهاً وهل أمنَعنَّ اللهَ ما بذلا
فإنْ رجعتُ فربُّ الناس أرجعني — وإنْ لحقتُ بربّي فارتضى بدلاً
ما كنتُ أعرجَ أو أعمى فيعذرَني — أو ضارعاً من ضنى لم يستطع حولا

فهو يشير في البيت الأخير الى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الفتح:١٧].

أما الحتّات وهو أحد الشعراء المجاهدين الذين حاول آباؤهم الشيوخ أن يبقوهم الى جانبهم، ولكن عقيدته كانت أقوى من عاطفة بُنوّته، وأكبر من حبه لأبيه، فيقول في أبيات يخاطب بها اباه يعتذر بأنه إنما يجيب داعي الله وامر الله قبل أمر الوالدين يقول:

ألا من مبلغٍ عني دُريجا ... فإنّ الله بعدك قد دعاني
فإن تسألْ فإني مستفيدٌ ... وإنَّ الخيلَ قد عرفتْ مكاني (٣٨)

هـ- وصف المعارك :

واذا كان شعر الفتوح قد صور جانب العقيدة كما مر بنا، فان الشعراء استمروا على ما عرفه الشعر قبل الإسلام من وصف دقيق للمعارك والقتلى، مما يمكن أن يُعَد استمراراً له، مع ما وجد فيه من إشارات ذات طابع خاص. يقول ربيعة بن مقروم مفتخراً ببطولاته في المعركة دون ان يكون لفخره طابعا مميزاً اللهم إلا إشارات إلى معركة الفيلة التي اقترنت بفتوح العراق حيث استعملها الفرس في جيوشهم :

ودعوا نزالِ فكنت أوّل نازلٍ ... وعلامَ أركبه إذا لم أنزلِ
ولقد جمعتُ المالَ من جمع امرئٍ ... ورفعت نفسي عن لئيم المأكلِ
ودخلتُ أبنيةَ الملوكِ عليهم ... ولشرُّ قولِ المرءِ ما لمْ يفعلِ
وشهدتُ معركةَ الفيولِ وحولَها ... أبناءُ فارسَ بيضُها كالأعبل
متسربلي حَلَقِ الحديدِ كأنهم ... جُرْبٌ مقارفةٌ عنيةَ مهملِ

ووصف بسالة الأعداء مظهر من مظاهر شعر الفروسية في أدب ما قبل الإسلام ووجدنا صداه في الأدب الإسلامي حين حاول شعراء الفتوح أن يصفوا ضخامة جيش الفرس وشبهها بعضهم بالجبال، أما أصوات الزحف فهي أشبه ما تكون بالزفير العالي، كل ذلك ليصل الى بسالة جيش العرب المسلمين الذين استطاعوا أن ينتصروا على جيش هذه مقوماته، ولكنه يفتقد إلى أهم مقوم توافر في جيش المسلمين، وهو العقيدة، وصدق الدافع للقتال، يقول بشرين ربيعة الخثعمي:

أنختُ ببابِ القادسيةِ ناقتي ... وسعدُ بن وقاصٍ عليَّ أميرُ
وسعدٌ أميرٌ شرُّه دونَ خيرِه ... وخيرُ أميرٍ بالعراق جريرُ

رفع المسهم

(يريد بجرير: جرير بن عبد الله البجلي).

تذكَّرْ هداكَ اللهُ وقعَ سيوفِنا ... ببابِ قُديسٍ والمكرُّ عسيرُ
إذا ما فرغنا من قراعِ كتيبةٍ ... دَلَفنا لأخرى كالجبالِ تسيرُ
ترى القومَ فيها أجمعينَ كأنَّهم ... جِمالٌ بأحمالٍ لهنَّ زفيرُ
عشيةَ ودَّ القومُ لو أنَّ بعضهم ... يعارُ جناحيْ طائرٍ فيطيرُ

فالشاعر هنا يشبه جيش الأعداء بكثرته وضخامته بالجبال وقوتها، ثم انتقل من وصف ضخامة الجيش إلى وصف الأصوات التي تسمع من العدد الثقيلة المصاحبة للفرسان، وقراع السيوف وأصوات الأبطال يشبهها الشاعر بالجمال إذا حملت أثقالا كبيرة فتئن. وهو تصوير يحمل في ثناياه صورة بدوية اعتيادية قريبة من ذهن الشاعر إلا أنه تشبيه غير موفق، لأن أصوات الجيوش الجرارة لا يمكن أن تقارن بزفير الإبل المثقلة بالأحمال، ولكنه وفق في البيت الأخير في تصوير شدة المعارك حتى ود بعض القوم لو أنه يفر بنفسه لهولها، ولكنه لم يقل بأنهم فروا، وجعل القول في وصف هذه المعاناة عاما يشمل الفرس والمسلمين الذين استعدوا بكل قواهم لهذه الحرب، إلا أن النصر كان حليف العرب المسلمين إذ أباد الله جموع الفرس وبددها.

ويقول عروة بن زيد الخيل مسجلا انتصارات المثنى بن حارثة الشيباني في العراق، وما حققه من نصر على جيوش الفرس التي ولت هاربة :

وقد أرانا بها والشملُ مجتمعٌ ... إذ بالنخيلةِ قتلى جندِ مَهرانا
أيامَ سارَ المثنى بالجنود لهمْ ... فقتَّل القومَ من رَجْلٍ ورُكبانا
سما لأجنادِ مهرانٍ وشيعتِه ... حتى أبادَهُمُ مثنى ووِحدانا
ما إنْ رأينا أميرا بالعراق مضى ... مثلَ المثنى الذي من آل شيبانا(٣٩)

والقعقاع الفارس الشاعر الذي أشاد بشعره ببلائه وبلاء المسلمين في الفتوح الإسلامية، لا يجد غضاضة في الإشادة بقدرة أعدائه وبلائهم في القتال، فيصور شجاعتهم واستبسالهم وكثرتهم، كل ذلك يؤدي حتما إلى تصوير مواقف المسلمين الذين استطاعوا أن ينتصروا عليهم، وهم بهذه الصفة التي ذكرها :

رفع المسهم

لم أر قوما مثلَ قومٍ رأيتهُم ... على وَلَجاتِ البرّ أحمى وأنجبا
وأقتلَ للروّاسِ في كلّ مجمعٍ ... إذا ضعضعَ الدهرُ الجموعَ وكبكبا(٤٠)

أما شدة المعارك التي لم تكن في صالح المسلمين، فقد أشار إليها كثير من الشعراء في أبيات متفرقة. فهذا الاعور بن قطبة يذكر أخاه الذي قتل بعد أن قتل قائدا من قواد الفرس، فأي شعور يصوره هذا الشاعر المجاهد، وهو بين انفعالين الفرح بالنصر؛ لأن قائد الفرس قد قتل، والحزن والألم؛ لان أخاه قد قتل أيضا ؟

لم أر يوما كان أحلى وأمرْ ... من يوم أغواتَ إذا افترَّ الثغرْ
من غير ضحك كان أسوى وأبرْ (٤١)

ويذكر مالك بن الريب سعيد بن عثمان بيوم عصيب من أيام فتوح خراسان وكيف انه رأى الرعب والفزع في وجهه حتى كاد أو خيّل إليه بأن صاحبه سيعلن تنصره، يقصد رجوعه عن عقيدته ودينه الإسلامي لهول المعركة :

وما زلتَ يومَ السُغدِ ترعد واقفاً ... من الجبن حتى خفت أن تتنصرا(٤٢)

والبيت وان قيل في الهجاء إلا أنه يحمل صورة صادقة لشدة الحروب التي خاضها المسلمون، والمواقف الحاسمة التي تعرض لها جيش المسلمين في فتوح فارس فثبت على عقيدته وإيمانه، وإذا كان الشاعر يهجو فارساً خاض معه غمار الحرب، فإنه ينقل لنا هذه الصورة سواء طابقت مهجوه أو طابقت غيره، وأنه لم يرد بها أن يعلن المهجو تنصره حقيقة وإنما خيل إليه بسبب حالة الرعب التي رآها على وجهه بأنه سيعلن تراجعه عن عقيدته الإسلامية.

و- وصف طبيعة البلاد المفتوحة :

وهناك صور أخرى تتعلق بشعر الفتوحات الإسلامية وهي التي قيلت في الوصف، وأهميتها متأتية من أنها تمثل مادة جديدة أضيفت إلى فن الوصف الذي برع فيه شعراء ما قبل الإسلام وقامت قصائدهم عليه.

لقد اعتاد العربي في صحرائه أن يصف ما فيها من حيوان وطبيعة، فكان من بين الأوصاف الكثيرة وصف الفرس والناقة، لأنها أساس حياته وقوام معيشته ولا

رفع المسلم

عجب أن نجد وصف شعراء قبل الإسلام لفرسهم أو ناقتهم دقيقا رائعا يدل على معرفة تامة بهذين الحيوانين، وتأمل مستمر لأعضائهما وعاداتهما، حتى ليخيل إليك أن بين العربي وفرسه علاقة وثيقة جدا قد تقرب من العلاقة الإنسانية بين شخص وآخر في بعض الأحيان، فتقرأ شعرا لأحدهم يصور لك فيه شكوى جمله من متاعب السفر ليلا، ويجيبه الشاعر بأنهما متساويان في هذا البلاء وما عليهما إلا الصبر، وكأن هناك وحدة أحاسيس بينهما. وواقع الحال أن الشاعر أراد أن يعبر عن بلاء السفر الذي عاناه، فعبر عنه بهذا الأسلوب اللطيف :

شكى اليَّ جملي طولَ السُّرى　　　صبراً جميلا فكلانا مبتلى

وإذا أحس العربي بالتعب، وثقل الطريق وعنائه، فانه ينظر الى ناقته نظرة عطف ومشاركة لأنها صبرت معه طول هذه السفرة الطويلة لذا يبشرها بانتهاء الرحلة او الحصول على الماء.

تبشّري بالرفه والماء والرّوي　　　وفَرجٍ منك قريب قد أتيْ

وقد تفسر هذه المخاطبة بأنها وسيلة من وسائل التعبير عن النفس بطريق مخاطبة الناقة، ولكنها تبقى صورة رائعة لأحاسيس العربي، وإذا كان القعقاع بن عمر قد وصف الفيلة في شعره الذي قاله مفتخرا بسمله عيونها، فان هناك شاعرا آخر نقل لنا صورة طريفة للفيل صورت دهشته لرؤيته، وضخامة جسمه، وقوته حين يطأ الأرض فيحطم كل ما يمر فوقه، ولم يجد هذا الشاعر تشبيها يشبه به ضخامة جسم الفيل، وقوة وقع أقدامه إلا الأرحاء – جمع الرحى – فشبهه بمن يحمل أرحاء ثقيلة من الصخر، فتحطم كل ما تدوسه وتطأه. ووصف طول خرطومه، وعجب من رده في جوفه إذا أكل، كل ذلك في صورة بسيطة ولكنها مجسدة لمنظر الفيل الضخم الذي واجه العربي:

أجردُ أعلى الجسمِ منه أضخمْ
يجرُّ أرحاءَ ثقالا تحطمْ
ومشفرٌ حين يمدُّ سرطم
يردُّه في الجوف حين يطعم(٤٣)

ومع ورود ذكر الفيلة التي قادها ابرهة عام ولادة النبي محمد (ﷺ)،لم يرو شعر في وصفها من قبل، مما يجعلنا نقول بأن حروب فتح العراق قد عرفت أول مرة هذا العنصر من عناصر وصف الحيوان في أدبنا العربي، وشعور العربي بالغربة والفزع من هذا الحيوان يجعلنا نقرن بينه وبين وصفه الخيل المحببة إلى نفسه، صديقته في أسفاره وترحاله.

ومما يضاف إلى عناصر الوصف ما وجد من أشعار في وصف البحر في بداية عصر الفتوح الإسلامية، ذلك أن العرب اعتمدوا القوافل البرية في تجارتهم، والخيول في حروبهم، ولم يعرفوا ركوب البحر في عصر ما قبل الإسلام إلا في مناطق معروفة وأغراض محدودة.. فورد وصف البحر على سبيل التشبيه في شعر امرئ القيس، وورد وصف السفينة وربانها في شعر طرفة، لأنه كما قيل عاش في البحرين المطلة على الخليج العربي، أما ما سوى ذلك فلا نجد إلا تشبيهات أو إشارات. ونتيجة لفتوح العراق واجه العرب مشكلة عبور نهر دجلة لملاحقة أعدائهم الفرس، ولحقوهم فعلا تابعين فلولهم المهزومة، داحرين كبرياءهم وعنجهيتهم، ونرى الشاعر هنا يستعمل لفظ البحر ليدل به على النهر، ويشجع كتيبة الجنود على عبوره، ويعد أول عابر وقاطع له هو صاحب الأجر والثواب عند الله، لأنه يشجع الآخرين ويسهم في القضاء على أعدائه:

أمضوا فإنَّ البحرَ بحرٌ مأمورْ	والأوَّلُ القاطعُ منكم مأجورْ
قد خابَ كسرى وأبوه سابورْ	ما تفعلون والحديث مأثورْ [٤٤]

ومن العناصر الجديدة التي أضيفت إلى شعر الفتوح ما قيل من أوصاف في الطبيعة الغريبة التي وجد المسلمون أنفسهم بين أحضانها. لقد اعتادوا من قبل الحياة في الجزيرة العربية والعراق والشام ولكنهم لم يعتادوا الحياة في المناطق الجبلية لبرودة جوها وريحها الثلجية، ولم يعانوا في جزيرتهم من تراكم الثلوج، لذا نرى الشاعر مالك بن الريب يطلب من قائده الانسحاب من مدينة الترمذ، لا لشيء إلا لأنه وأصحابه معه لا يطيقون البرد الشديد، والثلج الذي تزيد الريح حدته:

رفع المسَاهِم

هبّتْ شمالا خريفٌ أسقطت ورقاً ... واصفرَّ بالقاع بعد الخضرة الشيحُ
فارحلْ فُديتَ ولا تجعلْ غنيمتَنا ... ثلجاً يُصفِّقه بالترمذِ الريحُ
إنَّ الشتاء عدوٌ ما نقاتلهُ ... فأقفل هديت وثوبُ الدقّ مطروحُ(٤٥)

إن صورة الصحراء ما زالت مالكة نفس الشاعر، فالأرض التي اصفرّ نباتها شتاء لا يسميه الشاعر إلاّ الشيحّ، وهو من النباتات الصحراوية ولا مكان له في المناطق الجبلية الباردة. ويرى أن البرد الشديد والثلج سيحولان دون النصر على الأعداء، بل إنه يبالغ أكثر، فيرى أن عدوهم لا يقاتل ولا يُغْلب، لأنه الشتاء والبرد وليس البشر!!

وهذا أحد الفاتحين يصف برودة الجو في مرو، ويعجب لمنظر الأرض التي تتابع ثلجها، ويشفق على أهلها الذين يقضون الشتاء مقرورين دائما محتمين بأثواب يدسون ايديهم فيها لشدة البرد كأنهم أسرى :

وأرى بمروِ الشاهجانِ تنكّرتْ ... أرضٌ تتابَع ثلجُها المذرورُ
إذ لا ترى ذا بزةٍ مشهورةٍ ... إلاّ تخالُ كأنّه مقرورُ
كلتا يديه لا تزايلُ ثوبَه ... كلَّ الشتاءِ كأنّه مأمورُ(٤٦)

نعم، عرف الشعر العربي من بعد وصف برد هذه البلاد وشتائها وثلجها، ولكن ذلك بعد ان استقرت القبائل العربية آنذاك، وربما ورد هذا الشعر عند من ولد في تلك البلاد وترعرع فيها فشعره يمثل وصفاً لبيئته، في حين أن هذه الأشعار القلائل التي تصف البرد والشتاء تمثل شعور المسلمين تجاه هذه البيئة الجديدة التي ما اعتادوا عليها من قبل، لذا جاءت أوصافهم مغايرة لما سيرد عند شعراء العصر العباسي من وصف لها، كما نجد ذلك عند بعض شعراء (يتيمة الدهر) أو في كتاب "التمثيل والمحاضرة" للثعالبي.

ولنا أن نتساءل ان الظروف الطبيعية القاسية التي واجهها المسلمون في بلاد فارس تكاد إن تكون الظروف القاسية نفسها في بلاد المغرب العربي فلم لم يصل الينا من شعر الفاتحين في المغرب العربي ما يصور هذه الحالة؟ أن تعليل هذه الظاهرة

بكون جل الفاتحين لهذه الميادين "كانوا من عرب اليمن الذين لم يرزقوا ما رزق العدنانيون من اقتدار على التعبير الشعري".(٤٧) هذا التعليل غير مقبول، لأنه كانت في جيوش الفتح في العراق قبائل يمانية، وكان لها نصيب وافر في الإسهام في الفتح، ونصيب وافر في الشعر المصور لهذه الأحداث، ويكفي أن يكون بين قواد فتح العراق جرير بن عبد الله البجلي، وبجيلة قبيلة من اليمن، وعمرو بن معد يكرب شاعر الفتوح هو زبيدي، وزبيد من اليمن أيضا.

إذن لا يبقي أمامنا من تعليل سوى الاعتراف بأن بعد المسافة بين المشرق والمغرب وكون العرب الفاتحين قد أقاموا واستوطنوا في بلاد المغرب العربي مما جعل أشعارهم نادرة الذكر في مؤلفات المؤرخين الذين نشطت حركتهم في الشرق وفي العراق بالذات، فاعتنى هؤلاء المؤرخون بذكر الوقائع والحوادث التي وعتها الذاكرة العربية دون الأشعار التي ضاع معظمها بعد وفاة أصحابها، وضاع القسم الآخر في طريقه إلى أفواه الرواة وذاكرة المؤرخين. أما في المشرق فالأمر مختلف تماما، لوجود مراكز الحضارة والحركة الفكرية المتمثلة بالتأليف، ولوجود مؤرخين تصدوا لتسجيل التاريخ الإسلامي من أهل هذه البلاد أصلا أو ممن سكن العراق فكانوا أقرب الى موارد المادة التاريخية التي يكتبون عنها، ووسائل نقلها متوافرة لديهم مثل البلاذري والواقدي والطبري والمسعودي وغيرهم ... أما رواة الأدب فمدارسهم لا تتجاوز مدرسة الكوفة والبصرة اللتين ينطبق عليهما ما ذكرناه أعلاه من بعد المسافة بينهما وبين المغرب العربي.

ز- الرسائل الشعرية :

ومن الميادين الطريفة التي استخدم فيها الشعر، إيصاله فكرة الشاعر على شكل رسالة شعرية يبعثها إلى من يريد إبلاغه بها. وقد مرت بنا أبيات الحتات التي تمثل رسالة مجاهد يخاطب بها أباه، ويبين له فيها ثباته على الجهاد ورغبته فيه، وأن شجاعته قد عرفها رفاقه المجاهدون، لذا سيبقى بينهم، لان الخيل وفرسانها قد عرفوا مكانته في القتال وأهميته. وقد كتب الجنود أبياتا من الشعر بعثوها إلى الخليفة أو إلى قائدهم،

رفع المسهم

مخبرين عن حالهم منبهين الخليفة الى حالة خلاف تحدث بينهم وبين قائدهم أو بين قائدين من قواد الفتوح، كما ذكر البلاذري في شأن الخلاف الذي حدث بين سلمان بن ربيعة الباهلي وحبيب بن مسلمة الفهري، وكانا قائدين اختلفا حتى تغالظ حبيب وسلمان في القول وتوعد بعض المسلمين سلمان بالقتل فقال الشاعر :

إن تقتلوا سلمان نقتل حبيبكم وإن ترحلوا نحو ابنِ عفّانَ نرحلِ(٤٨)

وكتب إلى عثمان بذلك.

إن الرسالة الشعرية كانت معروفة متداولة في شعر ما قبل الإسلام خاصة ما يتعلق بايام العرب وحروبها حين يقع الفرسان أسرى في أيدي أعدائهم ولا يجدون من يخبر قبيلتهم عن مكانهم او حالهم إلا أبيات الشعر ينشدونها، فينقلها بعضهم الى قومهم، وكانت هذه الأشعار رمزية غالباً قريبة الى التعمية والمغالطة، ليخفى شأنها على الأعداء، ولكنها كانت في شعر الفتوح واضحة في أفكارها وأسلوبها مصرحة عن قصد مرسلها. من ذلك قصيدة أبى المختار يزيد بن قيس الكلابي التي رفع فيها شكواه من عمال الاحواز وغيرهم الى عمر بن الخطاب (ﷺ)، واصفاً حالة بعضهم الذين استغلوا وظائفهم لجمع المال دون أن يفكروا في أنه مال بيت المسلمين، وأنهم عيَّنوا لرعايته وحفظه وتوزيعه كما أمر الله ورسوله:

أبلغْ أميرَ المؤمنين رسالةً فأنتَ أميرُ اللهِ في النهيِ والأمرِ
وأنتَ أمينُ اللهِ فينا ومن يكنْ أميناً لربٌ العرشِ يسلمْ له صدري

والشاعر هنا يشير إلى ثقته بالخليفة، تلك الثقة التي جعلته يكتب عن سيرة بعض عماله ويفضحهم، ثم يقول:

فلا تُدْعَنْ أهلَ الرساتيقِ والقرى يسيغون مالَ اللهِ في الأدم الوفر
فأرسِلْ إلى الحجَّاجِ واعرف حسابَه وأرسلْ إلى جزء وأرسلْ إلى بشر
ولا تنسينٌ النافعين كليهما ولا ابنَ غلابٍ من سراةِ بني نصر
وما عاصمٌ منها بصُفرٍ عيابَه وذاك الذي في السوق مولى بني بدر

ويستمر بذكر أسماء من يتهمهم بجمع المال، ويطالب الخليفة أن يردعهم

رفع المسيهم

ويحاسبهم، ويأخذ منهم نصف أموالهم، ويلتمس منه ألاّ يدعوه إلى الشهادة، لأنه يكفيه أن يعلم الخليفة بالأمر، وما على الخليفة إلا التحقق من الأمر ومحاسبة المقصرين:-

فقاسِمْهمُ نفسي فداؤك إنّهمْ ... سيرضون إنْ قاسمتَهم منكَ بالشَّطرِ
ولا تدعونّي للشهادة إنني ... أغيبُ ولكني أرى عجبَ الدهرِ
نؤوبُ إذا آبوا ونغزو إذا غزوْا ... فأنّى لهم وفرٌ ولسنا أولى وفرِ
إذا التاجرُ الداريّ جاء بفارةٍ ... من المسكِ راحت في مفارقِهم تجري(٤٩)

وإذا كانت الأبيات الأولى من هذه الرسالة لم ترق إلى المستوى الفني لاقتصارها على سرد الأسماء التي يتهمها الشاعر، فإن الأبيات الأخيرة تلمح فيها جانب الإجادة الفنية في تصوير استغلال بعضهم للمسؤولية الملقاة على عاتقهم، والثراء على حساب الآخرين، حتى ينقل لنا صورة تضمخهم بالعطر الغالي (المسك)، بينما الآخرون بعيدون عن هذا الثراء، وهم في الوقت نفسه قد شاركوا في الحرب، وقدموا ما عليهم من واجبات تؤهلهم للتمتع بالحقوق بعد ذلك.

إذا كان غرض الرسالة الشعرية هنا الشكوى من تضخم المال في أيدى القادة، وحرمان الجنود منها، فان هناك بعض الرسائل الشعرية التي لم يقصد فيها الشاعر الشكوى ضد قائد معين، وإنما أراد نقل وصف لحالة حربية يعيشونها، فأبو العيال يكتب قصيدة أتخذت شكل رسالة لأنه يفتتحها بقوله من (أبي العيال).

من أبى العيال أخي هذيل فاسمعوا ... قولي ولا تتجمَّحوا ما أُرسِلُ(٥٠)

والرسالة مرسلة إلى معاوية وكان والياً على الشام، والى عبد الله بن سعد بن أبى سرح وكان والياً كان على مصر، والى جميع المسلمين زمن عثمان، ويصرح بأنه إذا كان قد أخر ابن سعد في خطابه، فلأنه رآه غير عادل في القسمة، ومع ذلك تركه ولم يشك أمره الى الخليفة. وبعد أن يعدد أسماءهم يبلغه بفحوى رسالته التي لا يريد منها إلا شرح ما عاناه المسلمون الذين حاصرهم الروم تسعة اشهر فيقول :

رفع المستهام

إنّا لقينا بعدكُم بديارنا ... في جانبِ الامراج يوماً يسأل
أمراً تضيقُ به الصدورُ ودونَه ... مُهَجُ النفوسِ وليس عنه مَعْدَلُ
في كل معتركٍ ترى منّا فتى ... يهوي كعزلاء المزادة تزغل(٥١)
أو سيداً كهلا يمور دماغه ... أو جانحاً في صدرِ ريحٍ يسعلُ(٥٢)
حتى إذا رجَبُ تجلّى فانقضى ... وجماديان، وجاء شهر مقبل(٥٣)

ثم يصف التحام المعركة وكيف أن النبال كانت تتطاير بينهم، وكأنها السنابل في انتصابها وكثرتها، والرماح توغل في ضربها لهم، كما كانت توغل في صدور أعدائهم. واكتفى بهذا المعنى في رسالته، ولم يطلب ممن أرسل إليهم قصيدته شيئاً سواء ما يتوقع من طلب مساعدة عسكرية أو زيادة عطاء.

حـ- الحنين إلى الوطن ورثاء النفس:

من الموضوعات التي غذتها الفتوحات الإسلامية، واعطتها نكهة خاصة نتيجة البعد المكاني عن موطن الشاعر شعر الحنين وما قيل من قصائد في الحنين إلى الديار والأهل والأحبة، وقد ورد بعضه مصاحبا للغزل حين يتذكر الشاعر حبيبته، فتهيج عواطفه، وتتحرك صبابته، فيذكر دياره وبعده عنها، وقد ينتقل الشاعر بعدها للحديث عن بطولته. إن حديث الحنين صار جزءاً من المقدمة الغزلية يقول بشرين ربيعة بن عمرو الخثعمي ذاكرا خيال أميمة الذي راوده مع بعد المسافة بينه وبين الحجاز:

ألمّ خيالٌ من أميمةَ موهِناً ... وقد جعلتْ أولى النجومِ تغورُ
ونحن بصحراء العُذيبِ ودارُها ... حجازيةٌ إنّ المحلّ شطيرُ
ولا غروَ إلاّ جوبُها البيدَ في الدّجى ... ومن دوننا رعْنٌ أشمُّ وقور
تحنُّ ببابِ القادسية ناقتي ... وسعد بن وقاص على أمير(٥٤)

ونجد أروع أشعار الحنين في أشعار الشعراء الذين أحسوا بدنو أجلهم، فتذكروا أهلهم وأحباءهم وتشوقوا إليهم. ورثوا أنفسهم رثاءاً رائعاً زاخراً بالعاطفة الصادقة الجياشة، وتطل علينا قصيدتان رائعتان في رثاء النفس قصيدة كثير بن الغريرة النهشلي، وقصيدة مالك بن الريب. فالأول كان ضمن فتح جوزجان والطالقان.

والثاني صحب سعيد بن عثمان في فتح خراسان. أما كثير فقد تحركت شجونه حين استشهد بعض أصحابه، فرثاهم ببيتين فقط في مطلع القصيدة وانتقل بعدها إلى حديث الحنين حيث يبدأ بالبرق اليماني الذي يذكره بأهله، ولكنه يؤكد بان حنينه لم يكن جزعا بسبب استشهاد صحبه، ولا خوفا من الموت، ولكن لأن هذا البرق اليماني ذكّره بأهله الذين يتشوقون الى رؤيته، وينتظرون لقاءه الذي لن يكون :

سقى مُزَنَ السّحابِ إذا استقلّتْ   مصارعَ فتيةٍ بالجَوْزجانِ
إلى القصرينِ من رُستاقِ خوْط   أقادهُمُ هناك الأقرعانِ
وما بي أن أكونَ جزعتُ إلاّ   حنينَ القلبِ للبرق اليماني
ومحبورٍ لرؤيتنا يرجّى الـ   لقاء ولن أراه ولن يراني

ثم يبدأ بالفخر بنفسه وكيف أنه كان يلبي دعوة إخوانه إذا استنجدوا به، وإنه لم يكن في يوم من الأيام صدوفاً عن نجدتهم في الحرب.أما في أيام السلم فأنه الفتى الشهم الذي لا تسول له نفسه أن ينظر إلى زوجة جيرانه، أو أن يسيء إلى أبناء قومه بتصرف مشين، ثم يعود إلى تخيل ما سيتركه موته من اثر في نفوس أهله المنتظرين في العراق :

فلا تستبعدا يومي فإني   سأوشكُ مرةً أن تفقداني
وتبكيني نوائحُ معولاتٌ   تُركنَ بدار معتَركِ الزّمان
حبائسُ بالعراق منهناتٌ   سواجي الطرف كالبقر الهجان (٥٥)

قصيدة وتحليل

ولابد أن نقف عند قصيدة تعد من روائع قصائد رثاء الذات في أدبنا العربي، أنها قصيدة مالك بن الريب الشاعر البدوي الذي أحسَّ بدنو أجله وهو في جيش الفاتحين في إحدى قرى خراسان قال :

١- الا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً
بجنبِ الغَضا أُزجي القلاصَ النواجيا(٥٦)

٢- فليتَ الغضا لم يقطعِ الركبُ عرضَه
وليت الغضا ماشى الركابَ لياليا(٥٧)

٣- لقد كان في أهلِ الغضا لو دنا الغضا
مزارٌ و لكنَّ الغضا ليس دانيا

٤- الم ترني بعتُ الضلالَة بالهدى
وأصبحتُ في جيش ابنِ عفّانَ غازيا

٥- وأصبحتُ في أرضِ الأعاديَ بعدما
أراني عن أرض الأعاديّ قاصيا

٦- دعاني الهوى من أهل ودي وصحبتي
بذي الطَبسين فالتفتّ ورائيا (٥٨)

٧- أجبتُ الهوى لّما دعاني بزفرةٍ
تقنَّعتُ منها -أنْ ألام- ردائيا

٨- أقولُ وقد حالتْ قرى الكُردِ بيننا
جزى الله عَمرا خير ما كان جازيا

٩- إنِ الله يرجعْني من الغزو لا أرى
وإنْ قلَّ مالي طالباً ما ورائيا

١٠- تقولُ ابنتي لما رأتْ طولَ رحلتي
سفارُك هذا تاركي لا أبا لِيا

١١- لعمري لئن غالتْ خراسانُ هامتي
لقد كنتُ عن بابي خراسان نائيا (٥٩)

١٢- فإنْ أنجُ من بابي خراسان لا أعُدْ
إليها وإنْ منيّتموني الأمانيا

١٣- فلله درّي يومَ أترك طائعا
بنيَّ بأعلى الرقمتين وماليا

١٤- ودرّ الظباءِ السانحات عشيةً
يخبِّرْنَ أني هالكٌ من ورائيا (٦٠)

١٥- ودرُّ كبيريَّ اللذين كلاهما
عليَّ شفيقٌ ناصِحٌ لو نهانيا

١٦- ودرُّ الرجالِ الشاهدين تفتُّكي
بأمريَ إلاّ يقصروا من وثاقيا

١٧-ودرٌ الهوى من حيثُ يدعو صحابتي
ودرٌ لجاجاتي وَدُّر انتهائيا

١٨- تذكرت من يبكي عليَّ فلم اجد
سوى السيفِ والرمحِ الردينيِّ باكيا

١٩- واشقرَ محبوكٍ يجرُ عِنانه
إلى الماء لم يتركْ له الموتُ ساقيا (٦١)

٢٠- ولكنْ بأكنافِ السّمينةِ نسوةٌ
عزيزٌ عليهنَّ العشيةَ مابيا

٢١- صريعٌ على أيدي الرجالِ بقفرةٍ
يَسوُّون لحَدي حيثُ حمَّ قضائيا (٦٢)

٢٢- ولما تراءتْ عند مروٍ منيتي
وحلَّ بها جسمي وحانت وفاتيا(٦٣)

٢٣- أقولُ لأصحابي ارفعوني فإنّه
يقرُ بعيني أنْ سهيلٌ بدا ليا

٢٤- فيا صاحبي رَحليْ دنا الموتُ فانزِلا
برابية إنّي مقيمٌ لياليا

٢٥- أقيما عليَّ اليومَ أو بعضَ ليلةٍ
ولا تعجلاني قد تبيَّن ما بيا

رفع المسيّهم

٢٦- وقوما إذا ما استُلَّ روحي فهيئا
لي السدرَ والأكفانَ عند فنائيا

٢٧- وخُطّا بأطرافِ الأسنةِ مضجَعي
وردّا على عينيَّ فضلَ ردائيا

٢٨- خُذاني فجرّاني بثوبي إليكا
فقد كنتُ قبلَ اليومَ صعْبا قياديا

٢٩- وقد كنتُ عطّافا إذا الخيلُ أدبرتْ
سريعاً لدى الهيجا إلى مَنْ دعائيا

٣٠- وقد كنتُ صبّاراً على القَرنِ في الوغى
وعن شتمي ابنَ العمِ والجارَ وانيا[٦٤]

٣١- فطوراً تراني في ظلال ونعمة
وطورا تراني والعتاق ركابيا[٦٥]

٣٢- ويوماً تراني في رحىً مستديرةٍ
تخرّقُ أطرافُ الرماحِ ثيابيا[٦٦]

٣٣- وقُوما على بئرِ السمينة واسمعا
بها الغُرَّ والبيْضَ الحسانَ الروانيا

٣٤- بأنكما خلّقتماني بقفرةٍ
تَهيلُ عليَّ الريحُ فيها السوافيا

٣٥- ولا تنسيا عهدي خليليَّ بعدما
تقطَّع أوصالي وتبلى عظاميا

٣٦- ولن يعدم الوالون بثاً يصيبهم
ولن يعدم الميراثَ مني المواليا(٦٧)

٣٧- يقولون لا تبعدْ وهم يدفنوني
وأينَ مكانُ البعدِ إلاّ مكانيا

٣٨- غَداة غدٍ يالهفَ نفسي على غدٍ
إذا ادلجوا عني وأصبحتُ ثاويا(٦٨)

٣٩- وأصبَح مالي من طريفٍ وتالدٍ
لغيري وكان المالُ بالأمس ماليا

٤٠- فيا ليتَ شعري هل تغيَّرت الرَّحا
رحا المثل أو أمست بفَلجٍ كما هيا(٦٩)

٤١- إذا الحي خلوها جميعاً وأنزلوا
بها بقرا حمَّ العيون سواجيا(٧٠)

٤٢- رَعَيْنَ وقد كادَ الظلامُ يُجنُّها
يَسُفِنَ الخزامى مرة والاقاحيا

٤٣- وهل أتركُ العيسَ العواليَ بالضُّحى
بركبانها تعلو المتانَ الفيافيا(٧١)

٤٤- إذا عصبُ الركبانِ بين عنيزةٍ
ويولان عاجوا المبقياتِ النواجيا[٧٢]

٤٥- فيا ليتَ شعري هل بكتْ أمُّ مالكٍ
كما كنتُ لو عالوا نعيَّك باكيا

٤٦- إذا مِتُّ فاعتادى القبور وسلّمى
على الرّمس أسقيتِ السَّحاب الغواديا

٤٧- على جَدَثٍ قد جرَّتِ الريحُ فوقه
تراباً كسحق المرنبانيِّ هابيا[٧٣]

٤٨- رهينة أحجارٍ وتربٍ تضمنَّتْ
قراراتُها مني العظامَ البواليا

٤٩- فيا صاحباً إمّا عرضْتَ فبلِّغَنْ
بني مازنٍ والريب أنْ لا تلاقيا

٥٠- وعَزِّ قلوصي في الرّكابِ فإنها
ستفلقُ أكباداً وتُبكي بواكيا

٥١- وأبصرت نار المازنيات موهنا
بعلياء يثني دونها الطرفُ دانيا

٥٢- بعودِ النجوج قد أضاء وقودُها
مهاً في ظلالِ الدُرّ حوراً جوازيا

رفع المسهم

٥٣- غريبٌ بعيدُ الدارِ ثاوٍ بقفرةٍ
يد الدهر معروفا بأن لا تدانيا

٥٤- أقلّبُ طرفي حولَ رَحلي فلا أرى
به من عيونِ المؤنساتِ مُراعيا

٥٥- وبالرمل منا نسوةٌ لو شهدْنني
بكَينَ وفدّينَ الطبيبَ المداويا

٥٦- وما كانَ عهدُ الرّمل عندي وأهلُه
ذميماً ولا ودّعت بالرّمل قاليا

٥٧- فمنهنّ أمي وابنتايَ وخالتي
وباكيةٌ أخرى تُهيجُ البواكيا(٧٤)

التحليل :

قائل القصيدة هو الشاعر مالك بن الريب من بني مازن نشأ في بادية بني تميم بالبصرة، بدأ حياته مع الفتاك واللصوص، ثم مسك -كما قيل- فامنه بشر بن مروان، ولما رأه سعيد بن عثمان بن عفان أعجب به لمروءته وفروسيته، وينقل لنا القالي محاورة جرت بينهما:

قال له سعيد: ويحك مالك؟ ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العداء وقطع الطريق ؟

قال : أصلح الله الأمير، العجز عن مكافأة الأخوان .

قال : فإن أنا أغنيتك واستصحبتك ؟ أتكف عما تفعل وتتبعني ؟

قال : نعم، أصلح الله الامير، أكفُّ كأحسن ما كفّ أحد، فاستصحبه، وأجرى

عليه خمسمائة دينار في كل شهر، وتعد قصيدته اليائية هذه من روائع الشعر العربي، فهي أنموذج فني عال في رثاء النفس، وتصوير الأحاسيس بدنو الأجل.

وقد قيل إنه قالها حين حضرته الوفاة، وقيل انه قالها قبل موته بسنة [٧٥]، وفصَّل بعضهم في سبب وفاته. [٧٦] وذكر ابن عبد ربه إنه حين خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان، وكان يوما ببعض الطرق أراد أن يلبس خفه، فإذا بأفعى في داخلها فلسعته، فلما أحسّ بالموت استلقى على قفاه، ثم انشأ يقول [٧٧]. ويبقى المهم في هذه الروايات أن الشاعر قال القصيدة وقد أحسّ بدنو أجله.

الأبيات ١-٥

بدأ الشاعر قصيدته بالتشوق إلى ديار أهله وأحبته، وتمنى لو أنه يستطيع أن يبيت ليلة فيها، يمارس حياته الاعتيادية، يسوق الإبل، شأنه شأن فتيان قبيلته، ويشتد شوقه الى تلك الديار فيبرز اسمها 'الغضا' بشكل إيقاع مؤلم موجع من خلال تكرار اللفظ خمس مرات في الأبيات الثلاثة الأولى، وهو يتمنى أن يكون الغضا قريبا منه ليزوره، أو أنه لم يبرح الغضا، ولم تقطعه ركاب المسافرين، وحين يشعر إنها أمنية بعيدة يحاول اقناع نفسه وتذكيرها بأنه هو نفسه قد اختار البعد عن ديار أهله، حين اختار طريق الهداية، وانخرط مع جيش الفاتحين. وقد ترك تكرار الغضا ست مرات إيقاعاً مكثفاً لحالة الحزن والأسى وتذكر الديار.

وهنا يصور الشاعر الأبيات من ٦-٩ خلال لوحة فنية جميلة ما تركه تذكر أهله وحنينه إليهم من أثر في نفسه، لقد أثيرت عواطفه ودمعت عيناه، واستحيا من موقفه فحاول اخفاء دموعه بأن تقنع بثوبه، وصحب هذا المشهد تصاعد زفرة عالية تظهر حزنه وتشوقه. وحين يحس الشاعر بوطأة البعد والفرقة والغربة يعاهد نفسه إلا يغادر دياره إن سلم من هذه الرحلة، وانه سيقنع بالقليل الذي عنده.

الأبيات ١٠-١٧

إن من يكون في أرض غريبة بعيدة عن أهله، ويتشوق إليهم يتذكر في لحظات بعض مواقف الحب والمودة التي تربطه بهم، والتي بقيت راسخة في مخيلته، فابنته تحنن

قلبه لئلا يبعد عنهم، خشية أن يهلك ويتركها يتيمة، ويتعجب من نفسه كيف اختار بإرادته ترك دياره، كما يعجب من قدرته على مفارقة أبويه الكبيرين، ويتساءل بعد ذلك كيف استطاع البعد عن أهله وإخوانه ممن كانوا يشهدون أيامه ونشاطه. وهذه الأبيات صور رائعة للإحساس بالأبوة والبنوة معا والارتباط بالأهل والديار والحنين إليهم.

الأبيات ١٨ - ٣٣

هنا ينتقل الشاعر واصفاً حاله وهو يخشى دنو أجله، فإذا كانت صور أهله الجميلة وذكرياتهم تتراءى في ذهنه فانه سرعان ما يعود إلى الحديث عن غربته، ماذا يحدث له إنْ أجله حان فيها ؟ لن يبكي عليه أحد سوى سلاحيه اللذين لازماه دائما، سيفه ورمحه، وفي هذه الصورة إشارة رائعة إلى فروسيته وشجاعته، لا يبكي السيف إلا لفراق الفارس البطل، ويشاركهما في البكاء فرس أصيل كان رفيق الشاعر في المعارك وكان شاهدا على بطولته وبلائه، وإنه لن يجد نداً لمالك – بعد وفاته – يحل محله ويأخذ بعنانه الى الماء، فكيف بمن يصحبه في ساحة المعركة؟ أنه أسف البطل على مفارقة حياة البطولة والفروسية.

وقد أكد الشاعر هذه الصورة مرة أخرى حين خاطب صاحبيه في البيت ٢٨ بأن يحفرا قبره بأطراف الاسنة، مخالفاً ما هو معروف من حفر القبور بادوات الحفر المتداولة، لأنه فارس مقاتل، فقبره يجب أن يحفر بما يليق بمكانته وحياته، ومع هذا فإنّ ألمه على ما سيؤول إليه حاله إذا فارقت روحه الجسد كبيراً، هذا الألم يصور له حاله، وهو يجر إلى مثواه الأخير، فيذكّر صاحبيه بأنه كان في حياته أبياً صعب القياد، فارسا يكر على الخيل اذا أدبرت، ويسرع إلى الحرب إذا اشتدت. وبذا يعدد لنا مالك مآثره وبطولاته مما يبعد نفسه عن الجزع لدنو الأجل.

أما في ديار أهله فان الشاعر يسرح بمخيلته مصورا ما سيحدث حين يبلغ نعيه قومه، فتبكيه نسوة يعز عليهن فراقه.

لقد عُرف الرثاء على أنه تعداد لمآثر المرثي ومفاخره، ومالك هنا هو الراثي والمرثي معا لذا يعدد مآثر نفسه، فهو جَلْد في الحرب، عفيف في السلم، لا يشتم ابن

رفع المساهم

عمه ولا يؤذيه، وحياته بين يومين يوم يتنعم بالراحة مع صحبه وملاعبة خيله، ويوم يصول ويجول في ساحة الحرب.

الأبيات ٣٤ فما بعدها

يعود الشاعر إلى مخاطبة رفيقيه اللذين يتوقع أن يقوما بدفنه أو تبليغ خبره إلى أهله. فيوصيهما بأن يقفا عند بئر السمينة حيث مجتمع بنات قومه، لينبئهن بأنه مات غريبا، وقد أُهيل عليه التراب في أرض بعيدة مقفرة، فيتخيل حاله وهو مفرد غريب وحيد حين يتركه رفاقه، ليبلغوا خبر وفاته لأهله فيبكي على نفسه متذكرا مشاهد من حياته اليومية في ديار أهله، وكيف سيفتقدونه وأولهم أمه، ويتساءل تساؤل المقر بأنها ستبكي عليه كما أنها لو ماتت قبله لاشتد بكاؤه عليها. ويوصي أمه لتزور القبور وتذكر موته النائي الغريب.

ثم تلح عليه مرة أخرى صورة بلوغ خبر نعيه الى مسامع أهله، وكيف يصيبهم الحزن، فتنفلق أكبادهم، وتبكيه الباكيات، ويتخيل هذه الصورة فيرسمها ببعدين، بعد احبته وأهله، وقد بلغهم نعيه، ومع شدة حزنهم وبكائهم عليه تتمنى نسوة من أهله ان لو كن قريبات منه لفدّين الطبيب المداوي علته، ويتخيل بينهن وجه أمه وابنتيه وخالته، وامرأة رابعة لم يسمها وانما وصفها بانها تهيج البواكيا، وهذه قد تكون أي امراة من قومه أحزنها فقده وقد تكون زوجه، فهي تعول، وتبكي، وتهيج الباكيات إذا هدأ بكاؤهن. أما البعد الثاني للصورة فهو وصف قبره المفرد الغريب في أرض مقفرة موحشة غريبة.

وبعد، فإن هذه القصيدة وان كانت لا تصور أحداث الفتوح والجهاد إلا أنها منبثقة من ظروفها، إذ أن انخراط الشاعر في جيش سعيد بن عثمان بن عفان وسيره في أراض غريبة عن دياره أدخلت في نفسه مشاعر الشوق والحنين، وتجسدت أحاسيسه بشكل مثير للعاطفة، حين شعر بدنو أجله مصوراً لنا الغربة بكل الامها ووحشتها، وجسد لنا أيضا الحنين الى الأهل والديار بكل ما يحمله من مشاعر الرقة والحب والالفة، وعبر عن هذين الموقفين أروع تعبير، جعل القارىء يتخيل من خلال

القصيدة صورة الفارس البطل المقاتل، وصورة المحب المتشوق الى أهله وموطنه. ومع ذلك نلاحظ خلو القصيدة من كل ما يتعلق بمعاني الفتوح والجهاد، ولم يحاول الشاعر ان يسلي نفسه بالأجر والثواب كما يتوقع، وكما فعل المجاهدون، ولم ينقل لنا أمله في عده شهيداً، أو رغبته في الشهادة كما فعل عبد الله بن رواحة، لكن الملاحظة ليست غريبة كل الغرابة اذا تذكرنا شخصية مالك بن الريب قبل انخراطه في جيوش سعيد بن عثمان، اذ لم يكن له رابط ديني قوي بالجهاد، والمجاهدين، وكل ما حققه له نسكه وتوبته هو انخراطه في هذا الجيش، فهو يختلف عن حال المجاهد الذي صرف نفسه وحياته للجهاد بفكره وسلوكه.

وتبقى صورة مالك بن الريب الإنسان الذي أحس بدنوّ أجله، فصور مشاعره الرقيقة إزاء موطنه وحنينه إلى أهله وأحبته.

وقد سجل بعض الشعراء حنينهم إلى ربوعهم، وديارهم وقد أحسّوا ببعد المسافة الزمنية والمكانية، وعانوا من اختلاف البيئتين أرض نجد، والديار الغريبة التي حلوا بها مع الفتح. وقد صور أحد الفرسان تطلع روحه، وحيرة بصره، وهو ينظر صوب نجد، ويشعر في الوقت نفسه أن لا جدوى من النظر، لأنها بعيدة، لا يمكن رؤيتها والقرب منها، ولكنه إذ يتطلع صوب نجد تستشعر نفسه جمالها، وترتسم في ذهنه تداعيات تذكرة بها.

حبه لنجد يجعله يستدعي صورة جمالية مثلى لها، أرضها مليئة بأزهار الاقحوان التي تكسو الأرض فتجعلها كأنها برد موشى، وأما ترابها فليس كسائر تراب الأرض، إنه مضمخ بالعطر والمسك خاصة إذا بلله الندى، أو أمطرت السماء، هذه الصورة الجميلة التي يرسمها من خلال حاستي النظر والشمّ ما هي إلا مظهر من مظاهر حنين الشاعر وتشوقه لدياره. ثم يختم الأبيات بتوجه يتمنى من خلاله أن يستريح بدياره، بعد أن عانى من فراقها بسبب الحرب، والنزوح عنها:

رفع المسابهم

أكـرّرُ طـرفي نحـو نجـدٍ ولا أرى ... بـرغمي، وإن لم يدرك الطرف أنظرُ
حنيـــناً إلى ارضٍ كــأنّ تــرابها ... إذا أمطـرت عـودٌ ومسـكٌ وعنـبر
احـنُّ إلى أرضِ الحجـاز وحـاجتي ... خيام بـنجد دونهـا الطـرف يقصُرُ
ومـا نظـري (مـن) نحـو نجدٍ بنافعٍ ... اجـلْ، لا، ولكـني عـلى ذاك أنظـرُ
مـتى يسـتريح القلـب إمـا مجـاورٌ ... بحــربٍ وأمــا نــازح يـتذكرُ[1]

(1) معجم البلدان ٤/٧٤٧.

هوامش الفصل الثالث

١- الطبقات الكبرى ١/ ٣٨٢، الاصابة ١/ ٤٦٩، وشعر الدعوة الإسلامية ١/ ٤٢.

٢- البداية والنهاية ٢/ ٢٣٧، شعر الدعوة ١/ ٤٣، أجذاذاً : قطعاً. قالِ : مبغض.

٣- الأصنام لابن الكلبي ٤٠، الاصابة ١/ ٤٢٤، معجم البلدان : مادة (نهم) وقال ياقوت: نُهْم بضم النون وسكون الهاء صنم لبني مزينة، وبه سموا عبد نهم. وأن خزاعى قال الأبيات حين سمع بالدعوة وبالرسول (ﷺ)، وقام الى الصنم وكسره. والعتيرة الشاة يذبحونها للصنم.

٤- الأصنام ١٧، البداية والنهاية ٤/ ٤٣٦، شعر الدعوة ٣٦.

٥- ديولان كعب بن زهير ٤، الاستيعاب ١/ ١٤٩.

٦- الاصابة ٢/ ٢١٧، شعر الدعوة ٢.

٧- الاصابة ٣/ ٢٠٥، والشنان : البغض. الجَد بفتح الجيم : العظمة.

٨- الاصابة ٢/ ٦٣٧.

٩- كتاب الرّدة/ الواقدي ١٠٨.

١٠- الإصابة ٥/ ٦٨٧.

١١- الاصابة ١/ ٣٨١، ٣/ ١٢١، ونسب أيضا لعمير بن ضابئ اليشكري. أنظر شعر الدعوة ١/ ٨٣

١٢- الاستيعاب ١/ ٢١٦.

١٣- الحماسة الصغرى ٥٩.

١٤- الاستيعاب ١/ ١٦٧ (طبعة حيدر آباد)، السيرة النبوية ٢/ ١٧٦.

١٥- السيرة النبوية ١/ ١٧٠.

١٦- السيرة ١/ ٢٠٣، الاصابة ٢/ ٢٨٤، الروض الأنف ١/ ٢٨٨ مع اختلاف في الرواية.

١٧- السيرة النبوية ١/ ٤٧٢، وانظر مقال (أبو أحمد بن جحش، أخباره، وأشعاره)

رفع المسهم

للدكتور محمد علي دقة، مجلة الدعوة الإسلامية، العدد الثامن، ١٩٩١.

١٨- أنظر مقال (أبو أحمد بن جحش)، مجلة الدعوة ٤٦٤، العدد الثامن ١٩٩١.

١٩- نفسه.

٢٠- المنازل والديار ٢/ ١٤٢، الروض الانف ٢/ ٢٤٩.

٢١- الروض الانف ٢/ ٢٤٩.

٢٢- أبوحمد بن جحش، مجلة الدعوة الإسلامية ٤٦١.

٢٣- الاصابة ٤/ ٤، الاستيعاب ٢/ ٢٢٠، مجلة الدعوة، العدد الثامن، ٤٦٢.

٢٤- الاستيعاب ٢/ ٢٢٠، وأنظر (أبو أحمد بن جحش)، مجلة الدعوة، العدد الثامن ٤٦٣.

٢٥- البداية والنهاية ٣/ ٢٧٧، الاصابة ٣/ ٣١.

٢٦- السيرة النبوية ق ٢/ ٢٤، تعرقت صفوه : أخذت خلاصته.

٢٧- عيون الأخبار ٢/١٩٣، في أمالي القالي : أرطبون ١/ ٤٧ وكلاهما يؤدي معنى بطريق الروم. اكتنع : دنا، الجذمور : ما بقي في يده بعد قطعها.

٢٨- الأخبار الطوال ١٣٨ (طبعة الحلبي ١٩٦٠).

٢٩- الاصابة ٣/ ٢٢٧، وانظر شعر الفتوح ٢٨.

٣٠- طبقات فحول الشعراء ١/ ١٨٩.

٣١- نفسه، وانظر خزانة الأدب ٢/ ٥٠٦.

٣٢- وج : الطائف، وهي كثيرة الشجر، كثيرة الحمام.

٣٣- الاصابة ١/ ٦٥، أسد الغابة ١/ ١١٦، الأغاني ١٨/ ١٥٧، وانظر شعر الفتوح ٢٨.

٣٤- الاصابة ١/ ٦٥، أسد الغابة ١/ ١١٦، الأغاني ١٨/ ١٥٧، شعر الفتوح ٣٠.

٣٥- الاصابة ١/ ٦٦، الاغاني ٢١/ ١٣، خزانة الأدب ٢/ ٥٠٦ مع اختلاف في الرواية

٣٦- ديوان الهذليين ٢/ ١٧٠.

٣٧- الشعر والشعراء ١/ ٢٥١، والأبيات ضمن مقطوعة في شعر الجعدي، وضعها جامع الديوان ضمن مقطوعة اتفقت معها بالوزن والقافية، ولكنها لم تتفق معها

بالروح الشعرية.

٣٨- الاصابة ٢/ ١٨١.

٣٩- الأخبار الطوال ١١٠.

٤٠- شعر الفتوح : ٢٣٢ عن ياقوت في معجم البلدان ٢/ ٨٩٤ .

٤١- تاريخ الطبري ٤/ ٥٤٧.

٤٢- فتوح البلدان ٥٣٠.

٤٣- الحيوان ٧/ ٧٢.

٤٤- أسد الغابة ٤/ ٢٨٢. شعر الفتوح ٢٦٥.

٤٥- فتوح البلدان ٥٧٦.

٤٦- شعر الفتوح ٢٥٨.

٤٧- هذا رأي عبد المتعال نعمان القاضي في شعر الفتوح ١٦٨.

٤٨- فتوح البلدان ٢٧٩.

٤٩- فتوح البلدان ٢٧٩، الاصابة ١/ ٤١١، وذكرت كاملة في ٣/ ٦٣٦.

٥٠- الجمجمة : أن يردد الشئ في نفسه ولا يفهمه.

٥١- تزغل : تدفع بالدم.

٥٢- يمور : يذهب ويجيء، وجانح : داني الصدر في الارض، وقال يسعل لأنه يشرق بالدم.

٥٣- شرح أشعار الهذليين ١/ ٤٣٣.

٥٤- فتوح البلدان ٣١٥.

٥٥- الأغاني ١١/ ٢٧٨ - ٢٧٩، شعر الفتوح ٢٤.

٥٦- الغضا : شجر ينبت في الرمل، أزجي : أسوق، والقلاص جمع قلوص، وهي الناقة الشابة، والنواجي : صفة لها، وهي السريعة.

٥٧- الركاب : الابل.

٥٨- ذو الطبسين : موضع في خراسان.

٥٩- غالت : من قولهم غاله الشئ، واغتاله : اذا أخذه من حيث لم يدر.

رفع المسهم

٦٠- الظباء السانحات : من قولهم : سنحت له الظباء اذا مرت من جهة الشمال فيتطير منها.
٦١- الأشقر من الخيل : الذي لونه الشقرة، محبوك : موثق قوي.
٦٢- حُمّ : دنا أجلي.
٦٣- حلّ : ضعف واضطرب.
٦٤- القرن : الكفء في الشجاعة، الوغى : الحرب، الواني : المقصر، يريد أنه يحجم عن شتم أبناء عشيرته.
٦٥- ظلال : يريد بها النعمة والترف. العتاق : الخيل الكريمة.
٦٦- رحى مستديرة : يريد بها الحرب الشديدة كأنها الرحى.
٦٧- البث : الحزن، يريد أن وفاته ستحزن أهله وتبكيهم، فهو قد خلف فيهم مودته، كما خلف لهم إرثاً ومالاً.
٦٨- أدلجوا : ساروا ليلاً. ثاوياً : مقيما، يريد اذا خلفوه في قبره وارتحلوا.
٦٩- رحا المثل، وفلج : اسمان لموضعين.
٧٠- حم العيون : سود العيون، سواجي : سواكن.
٧١- المتان : جمع متن، وهو ما صلب من الاراضي. الفيافي جمع فيفاء : وهي الصحراء.
٧٢- المبقيات والنواجي : صفتان للنوق السريعة، وعنيزة وبولان : موضعان.
٧٣- المرنباني : ضرب من الثياب. هابيا : صفة للتراب المثار.
٧٤- ذيل الأمالي ٣/ ١٣٥، وانظر خزانة الأدب ١/ ٣٢١.
٧٥- الشعر والشعراء ١/ ٢٧٣.
٧٦- الأمالي لليزيدي ٤٢.
٧٧- العقد الفريد ٣/ ٢٤٥، وينظر تفصيل حياته في شعراء أمويون ١/ ١١ فما بعدها

الفصل الرابع

أغراض شعرية قديمة متطورة

١- المديح.

٢- الهجاء.

٣- الرثاء.

٤- الغزل.

٥- الحكمة.

رفع
المسابهم

إذا جاز لنا أن نسمي شعر الدعوة والجهاد وشعر الفتوحات الإسلامية أغراضاً شعرية جديدة فرضت معانيها على الشعراء، ليعبروا من خلالها عن واقع جديد، فإن هناك أغراضاً تقليدية عُرفت قبل الإسلام واستمر القول فيها قروناً طويلة امتدت حتى عصرنا هذا، لا لشيء الا أنها أغراض متعلقة بجوانب النفس الإنسانية، وما فيها من رغبة ونوازع مختلفة من حب ووفاء وكره وحكمة وتأمل ... يعبر عنها الإنسان بوسائل مختلفة، وأساليب متنوعة في كل زمان ومكان، لقد استمرت الأغراض الشعرية المعروفة من مديح وهجاء وغزل ورثاء بعد ظهور الإسلام، وسنحاول تتبعها لا من حيث معانيها التقليدية، وانما من حيث تتبع المعاني الجديدة والأفكار التي فرضها ظهور الإسلام بكونه ديناً ونظاماً للمجتمع العربي بأكمله. وسنجد أن تطورا كبيراً صاحب هذه الأغراض التي بدت متأثرة بالإسلام، وبما ورد في القران الكريم من معان وصور وأخيلة، مما يدلنا على أن أثر القران في الأدب لم يكن محصورا في الأغراض الجديدة أو المعاني المستحدثة، وإنما تجاوزها الى الأغراض التقليدية سواء في المفردات اللغوية المستخدمة أو المعاني التي أكدها الشعراء . وهذا أمر طبيعي ينسجم مع طبيعة المجتمع العربي الذي أصابه تطور جذري كبير وجديد في أفكار الناس وسلوكهم . فحريّ باللغة الشعرية أن ينالها جزء من هذا التطور يتمثل بدخول المعاني الإسلامية الجديدة الى صور الشعراء، وبروز ألفاظ جديدة ما عرفتها العربية قبل ظهور الإسلام بدلالتها المستعملة في القران الكريم، كألفاظ الجهاد والثواب والصوم والصلاة والزكاة[1] الى غير ذلك من مفردات وصور سترد في ثنايا عرض معاني الأغراض الشعرية.

١- المديح :

لقد مرَّ بنا توجيه الرسول ﷺ للشعراء، لتكون أشعارهم غير منافية لمبادئ الدين والأخلاق إن لم تكن مدافعة عن الدعوة واعية، لها فكل ما وافق الحق فهو حسن، ويندرج ضمن الحق كل شعر إنساني تغنّى به الشعراء بالمثل والأخلاق العليا بغض النظر عن زمن قائله أو مكانته، ونجد في الحديث الشريف ما يبين مكانة الشعر الجيد

رفع المسيهم

الهادف، فالشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في بواديها وتُسَلُّ به الضغائن من بينها [٢]، والمديح أحد وسائل التعبير عن حياة البدوي، كما أنه وسيلة خيرة اذا أحسن استخدامها لترقيق النفوس وتهذيبها، وإصلاح ذات البين بين أبناء القبيلة الواحدة أو القبائل المتنافرة. فمديح الشاعر غير التكسبي يكون وسيلة جادة لرفع الضغائن والأحقاد، ويدخل ضمن هذا مديح زهير بن ابي سلمى لهرم بن سنان، وتمجيده للدور الانساني الذي قام به هذا الممدوح في حقن دماء قبيلتين طال أمد تحاربهما وقتالهما .

وإعجاب الخليفة عمر بهذا الشاعر لا يتجاوز الإعجاب بدوافع القول الصادقة لديه، فزهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وهو مفضل عنده حتى في حالة أخذه العطاء من هرم، لأنه خلد مآثر الخير التي قام بها هرم، وخلد دوره الانساني في محاولته السلمية المشهورة. وبذا يكون المديح اذا صدقت نوايا الشاعر المادح وسيلة لتمجيد الأخلاق العليا، والمثل القويمة التي يرتضيها المجتمع، وبذا نجد هذا الغرض مستمراً في عصر صدر الإسلام خارجاً عن نطاق المديح الشخصي، أو التكسبي الى المديح الذي يجعل من الممدوح إطاراً لقضية عامة، وصفاته توكيداً لمبادىء يدعو اليها الممدوح، ويحاول الشاعر تثبيتها واشهارها .

ويدخل في هذا الاطار كل الشعر الذي قيل في مديح الرسولﷺ، فهو ليس مديحا لشخص الرسول ﷺ وذاته، قدر ما هو مديح لمكانته ونبوته وتوكيد للرسالة السماوية التي بعث لنشرها بين الناس، ولهذا أعجب الرسولﷺ يقول الشاعر :

فثبَّت الله ما أعطاك من حَسَنٍ   تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا [٣]

لأنه دعا له في اطار النبوة التي جاء بها الرسول الكريم أن يثبته الله على أعدائه، كما ثبت النبي عيسى ونصره على أعدائه، فالله سبحانه وتعالى هو مرسل الأنبياء، وهو مثبت أقدامهم على ما يدعون اليه من عبادة التوحيد. واذا كانت معاني الشعر في المديح قد أصابها التطور لما أضفاه عليها الإسلام من معان جديدة، فان المديح بكونه وسيلة من وسائل التعبير عن نفس الشاعر أو قبيلته حين نجح في عرض وساطته، وإثارة مشاعر المودة والعطف في نفس الرسول الكريم، استثار عطفه على

أسرى قبيلة هوازن بعد معركة حنين بشعر رقيق يستدر عفوه ورحمته، فيذكر الرسول ﷺ بأن مُرضِعته من بني سعد من هوازن، وأنها وأخواتها ينتظرن عفوه عن قومهن، فيعفو الرسولﷺ عن الأسرى ويحتذي المسلمون حذوه، بأن يردوا الغنائم التي غنموها في هذه المعركة الى أهلها.

إن حفظ الأشعار التي تتغنى بالخلق القويم يقوم النفس ويهذبها، ووجدنا مثل هذا التوجيه الذي يدعو إلى تربية النشئ في مقولة الخليفة عمر (ﷺ): أرووا من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أحسنه، ومن النسب ما تواصلون عليه وتعرفون به، فرب رحم مجهولة قد عرفت، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها.[٤] ونحن نعرف أن المديح أوسع أغراض الشعر العربي ما خلا منه عصر، وقلما خلا منه ديوان. وإذا كان هناك تغيير في هذا الغرض التقليدي في صدر الإسلام، فاننا نراه متمثلا في التوجيه العام الذي وجه إليه الشعراء بالالتزام في أشعارهم، فكان المديح جزءًا من هذا الشعر الملتزم وما عاد مديحا شخصيا قدر ما هو مديح لقضية الدعوة ومديح الرسولﷺ إعلاءً لقيم الرسالة السماوية، واذا كانت كذلك فقد ظل المديح سائداً في المجتمع العربي الإسلامي انطلاقا من قول الرسولﷺ : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . ومكارم الأخلاق التي ارتضاها العربي قبل الإسلام ظلت معظمها – مما لا يعارض مبادئ الإسلام – سائدة في المجتمع العربي مضافا اليها قيم جديدة هي مما أضفاه الدين الإسلامي على خلق العربي من سمات دينية كالتقوى، والإيمان الصادق، والعدل بين الرعية، وأداء الفرائض، وما الى ذلك من الصفات العليا التي حرص الشعراء المادحون على اضفائها على ممدوحيهم، ليكسبوهم سمات الشخصية المثلى التي تتوافر فيها صفات الخلق العربي القويم، وخلق الشخصية الملتزمة بالدين والأخلاق، ونجد هذا النفس الجديد في المديح منذ وقت مبكر من عصر صدر الإسلام حين آمن المسلمون، وقرنوا اعجابهم بالنبي محمدﷺ وبرسالته التي تنير لهم طريق الهدى. فالطفيل بن عمرو الدوسي يقول بعد أن هددته قريش لإسلامه معلنا ايمانه مادحا الرسول (ﷺ) بأنه رحمة للناس :

ألا أبلغ لديك بني لؤيّ / على الشنآن والغضبِ المُردّ
بأنّ الله ربٌّ الناسِ فردٌ / تعالى جَدُّه عن كل جَدّ
وإنّ محمداً عبدٌ رسولٌ / دليلُ هدى وموضحُ كلّ رشد(٥)

والملاحظ هنا أن تغييراً سريعا طرأ في لغة الشاعر إذ استعمل لفظ (عبد)، وما تحمله من دلالة الذلة والهوان في عصر ما قبل الإسلام، ليطلقها على مديح الرسول ﷺ لأنها حملت معاني إنسانية بعيدة عن معناها السابق، اذ لا عبودية إلا لله سبحانه وتعالى، ويستوي في ذلك البشر جميعا فمحمدﷺ عبد الله ورسوله .

ونجد هذه المعاني الجديدة كثيرة في شعر حسان بن ثابت معدداً صفات النبي ﷺ فهو خاتم الأنبياء، كرمه الله تعالى بالنبوة، وقرن اسمه باسمه حين جعل تمام إيمان المسلمين شهادة لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأنه بعثه هاديا لهذه الأمة فانذر الناس من مغبة الكفر، وخوفهم النار، ورغبهم بالإيمان، وبشرهم بالجنة . وهكذا يتحول مديح الرسولﷺ بيانا لمبادئ الإسلام التي جاء بها الممدوح، وهو النبي عليه الصلاة والسلام:-

أغرُّ عليه للنبوة خاتمٌ / من الله مشهودٌ يلوحُ ويشهدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبي إلى اسمه / إذ قال في الخمس المؤذنُ أشهدُ
وشقَّ له من اسمِه ليجلّه / فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ
نبيٌّ أتانا بعد يأسٍ وفترةٍ / من الرسل والأوثانُ في الأرض تعبد
فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً / يلوحُ كما لاح الصقيلُ المهنّد
وأنذرنا ناراً وبشّر جنة / وعلّمنا الإسلام فاللهَ نحمد(٦)

ولحسان قصيدة أخرى لم ترو في ديوانه يمدح بها الرسولﷺ جامعا فيها الأخلاق التي وردت في أماديح شعراء ما قبل الإسلام مع القيم الإسلامية الجديدة، لا لشيء إلا لأن هذه القيم إنسانية أقرها الإسلام والمجتمع الإسلامي وبقيت مثلا عليا، فالرسول الكريم موضع ثقة يعتمد عليه في الملمات، وهو ملاذ الخائفين والمحتاجين، يحافظ على الجار إذا جاوره كريم يفيض جوده كفيض البحر. بعد هذه الصفات

الخلقية التقليدية يضيف معاني إسلامية في مديحه، فهوﷺ المصطفى الذي اختاره الله تعالى لأداء رسالة الإسلام، وهيأ له من الملائكة ميكائيل وجبريل، لينصراه في الحرب مع المشركين يقول:

يا ركنَ معتمدٍ وعصمةَ لائذٍ   وملاذَ منتجعٍ وجارَ مُجاورِ
يا مَنْ تخيَّره الإلهُ لخَلْقِه   فحباه بالخُلُقِ الكريمِ الطاهرِ
أنتَ النبيُّ وخيرُ عصبةِ آدمٍ   يا منْ يجودُ كفيضِ بحرٍ زاخرِ
ميكالُ معْكَ وجبرئيلُ كلاهما   مَددٌ لنصرِكَ من عزيزٍ قادرِ (٧)

وسنستخدم من الشاعر كعب بن زهير أنموذجاً لشعر المديح في صدر الإسلام وقصيدته اللامية أشهر قصائد المديح النبوي، وأكثرها تأثيراً في تاريخ الأدب العربي من حيث كثرة شروحها واحتذاء الشعراء حذوها في المديح النبوي.

كعب بن زهير وقصيدته في مدح الرسول (ﷺ)

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني، أمه امرأة من بني عبد الله بن غطفان، يقال لها كبشة بنت عمار بن عدي، وهي أم سائر أولاد زهير .

وكعب من مخضرمي الجاهلية والإسلام . ويذكر اسمه إذا ذكر اسم أبيه، لأنه كان قد اخذ الشعر عنه، وكان أبوه أول أمره يمنعه عن قول الشعر مخافة أن يكون لم يستحكم شعره، فيروى له مالا خير فيه، ويبالغون في تصوير حرص زهير في أن يكون شعر ابنه كعب محكماً، فيروون أنه كان يضربه، واحياناً يحبسه، أو يشغله برعي الغنم، حتى اذا فاض الشعر على لسانه، يحاول أبوه سماعه، ويقول بيتاً من الشعر ويطلب من ابنه ان يجيزه، ويكرر المحاولة اكثر من مرة، حتى اذا تأكد من جودة شعر ابنه قال له: قد أذنت لك في الشعر يابني . فكانت أول قصيدة قالها حين انتهى الى أهله بعد رضا أبيه عنه :

أبيت فلا أهجو الصديق ومن يبع   بعرض أبيه في المعاشر ينفق (٨)

فكعب اذن امتداد لمدرسة زهير بن ابي سلمى . وقد ذكر ابن سلام ان الشعر في الجاهلية كان في ربيعة، أولهم المهلهل والمرقشان وسعد بن مالك وطرفة بن العبد . . .

ثـم تحـول الشعر من قيس، فمنهم النابغة الذبياني، وهم يعدون زهير بن ابي سلمى من عبد الله بن غطفان، وابنه كعبا، ولبيداً، والنابغة الجعدي والحطيئة والشماخ، وأخاه مزرداً .[٩]

ولمـا كـان كعـب بـن زهـير والحطيئة راويـتي شعر زهير وآل زهير، فقد قيل أن الحطيـئة قـدم عـلى كعب قائلاً : قد علمت روايتي لكم أهل البيت، وانقطاعي إليكم وقـد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك، وتضعني موضعاً بعدك، فإن الناس لأشعاركم أروى، واليها أسرع فقال كعب :

فمَـنْ للقوافي شأنها منْ يحوكها ... إذا ما ثوى كعبٌ وفوَّزَ جرولُ[١٠]
يقـولُ فلا يعيى بشيء يقوله ... ومـن قائليها مـن يسيء ويعمل
كفيـتُك لا تلقـى من الناس واحداً ... تنخَّل منها مثل ما يتنخل[١١]
يـثقفها حتى تلين متونهـا ... فيقصر عنها كل ما يتمثل[١٢]

أمـا قصـة إسـلامه فقـد ارتبطـت بإسلام أخيه بجير، وذلك أنهم ذكروا أن بجيراً وكعبا خرجا إلى رسول الله ﷺ فآثر كعب أن يتأخر عن أخيه، فيقيم في مكان بعيد عن المديـنة، ويذهـب اخـوه بجير، فلما قدم بجير على الرسولﷺ، وسمع منه اسلم، وبلغ ذلك كعبا فقال :

الا أبلغـا عـني بُجـيراً روايـةً ... فهـل لك فيما قلتَ ويحكَ هل لكا
وخالفـتَ أسـبابَ الهـدى وتبعتَه ... عـلى أيّ شيء ويبَ غيرك دلَّكا
عـلى خلق لم تلـف أمـاً ولا أبـا ... عليه، ولم تدركْ عليه أخاً لكا
شـربت مـع المـأمون كأسـاً رويَّـة ... فـانهلكَ المـأمـونُ منها وعلـكـا

وقـيل أن أبـياته هذه بلغت رسول ﷺ فأهدر دمه، فكتب إليه أخوه يخبره الخبر، وقـال له : أُنـج، ومـا أراك بمفلـت[١٣]، وقيل انه أرسل إليه : ويلك أن النبي أوعدك، وقـد أوعـد رجـالاً بمكة فقتلهم، وهو والله قاتلك، أو تأتيه وتسلم، فاستطير، ولفظته الأرض[١٤].

وقـيل ان كعـباً قـدم متنكراً فأتى أبا بكر فلما صلّى الرسول ﷺ الصبح أتى به، وهـو متلـثم بعمامـته. فقـال: يـا رسول الله رجل يبايعك على الإسلام، وبسط يده،

رفع المسهمـ

وحسر عن وجهه. وقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله، هذا مكان العائذ بك، انا كعب بن زهير، فآمنه الرسول ﷺ فانشده قصيدته المشهورة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيّم إثرها لم يفد مكبول [١٥]

وقيل أن الرسول ﷺ قد كساه بردته بعد أن انتهى من إنشاد القصيدة، وقد بنى الباحثون أحكاماً على هذا الحدث، فقيل إن إهداء البردة كان تقديراً لموهبة كعب[١٦]، أو موافقة الرسول ﷺ على ما في القصيدة من تقاليد فنية لما حققته من متعة فنية، وقيل انه يمكن ان يستدل بها على ذوق الرسول ﷺ الفني في الأدب ونقده[١٧]، وهي أقوال مبالغ فيها فذوقه ﷺ، وبلاغته وأدبه نجدها في جميع أقواله الشريفة. وإنما نفهم من الرواية موقف الرسول ﷺ، وهو القائد المحنك الذي أراد أن يعلن للناس عفوه عن كعب، ويرفع عنه ما أعلنه من هدر دمه، فإذا استمع إلى قصيدته دل سماعه على رضاه عنه وعفوه، وإذا ألقى عليه بردته أكرمه، وأعلن حمايته له . فاكساؤه البرده صلى الله عليه وسلم اشهار لهذا العفو، ولئلا يتوهم أحد من المسلمين بعد ان يخرج كعب من المسجد أن دمه ما يزال مهدوراً.

ويقال أن الأنصار تجهمت كعبا، أي لم تحسن استقباله، وغلظت عليه، لما ذكر به رسول الله ﷺ، وأن قريشا لانت وأحبّت إسلامه، فانشد قصيدته:

فلما بلغ إلى قوله:

لا يقع الطعن إلاّ في نحورهمُ ... وما لهم عن حياض الموت تهليل

نظر الرسول ﷺ إلى من حوله، كأنه يومي إليهم أنْ اسمعوا[١٨]، ولما وصل إلى قوله:

إنّ الرسول لسيف يستضاء بـه ... مهند من سيـــوف الله مسلول

رمى ﷺ بردته إليه[١٩].

قصيدة وتحليل [٢٠]

١- بانَتْ سُعادُ فقلْبي اليوْمَ مَتبولُ	مُتَيَّمُ إثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مكْبُولُ [٢١]
٢- ومَا سُعادُ غداةَ الْبَيْنِ إذْ رَحلُوا	إلاّ أغنُّ غضيضُ الطَّرْفِ مكْحولُ [٢٢]
٣- هَيْفاءُ مُقْبلة عَجْزاء مُدْبِرةٌ	لا يُشْتَكى قِصَرٌ مِنْها ولا طُولُ
٤- تجلو عوارض ذي ظَلْم إذا ابتسمت	كأنه منهلٌ بالرّاح معلول [٢٣]
٥- شُجَّتْ بذي شبمٍ من ماءِ محنيةٍ	صافٍ بأَبْطح أضحى وهو مشمول [٢٤]
٦- تنْفي الرّياحُ القذى عنه وأفْرطه	منْ صوْب ساريةٍ بيضٌ يَعاليل [٢٥]
٧- من اللواتي إذا ما خلّة صدقتْ	يشْفي مُضاجعَها شمٌّ وتقبيل
٨- أكْرِمْ بها خُلّة لوْ أنّها صدقتْ	مَوْعودَها أو لو أنّ النُصْح مقْبُول
٩- لكنها خُلّةٌ قدْ سِيطَ مِنْ دمِها	فجْعٌ وَوَلْعٌ وإخلاف وتبديل [٢٦]
١٠- فما تدوم على حال تكُونُ بها	كما تلوَّنُ في أثوابها الغُول
١١- ولا تمسُّك بالعهد الذي زعمتْ	إلا كما يُمسكُ الماءَ الغرابيل
١٢- فلا يغرَّنك ما منَّت وما وعدَتْ	إنّ الأمانيَّ والأحْلام تضليلُ
١٣- كانتْ مواعيدُ عُرقوبٍ لها مثلاً	وما مواعيدُها إلاّ الأباطيل [٢٧]
١٤- أرْجو وآملُ أنْ تدْنو مودتُها	وما إخالُ لدينا منك تنويل
١٥- أمستْ سعادُ بأرضٍ لا يبلّغُها	إلا العَتاقُ النجيباتُ المراسيل [٢٨]
١٦- ولنْ يبلّغها إلا عُذافِرة	فيها على الأيْنِ إرقال وتبغيل [٢٩]
١٧- منْ كلّ نضّاحةِ الذّفرى إذا عرقتْ	عُرضتُها طامسُ الأعلام مجْهولُ [٣٠]
١٨- ترْمي الغيوب بعيْني مفرد لهقٍ	إذا توقدت الحزّانُ والميلُ [٣١]
١٩- ضخْمٌ مقلّدُها، عبْلٌ مقيّدها	في خلقها عن بناتِ الفحْل تفضيلُ [٣٢]
٢٠- علْباءُ وجْناءُ عُلْكومٌ مذكرة	في دفّها سعةٌ قدّامُها ميلُ [٣٣]

٢١- وجِلْدُها من أطوم ما يؤيّسُهُ   طلحٌ بضاحية المتنين مهزولُ[٣٤]

٢٢- حرْفٌ أخوها أبوها من مهجّنةٍ   وعمّها خالُها قوداءُ شمْليلُ[٣٥]

٢٣- يمشي القُرادُ عليْها ثمّ يُزلِقُهُ   مِنها لبانٌ وأقْرابٌ زهاليلُ[٣٦]

٢٤- عيرانةٌ قُذِفتْ بالنّحْضِ عن عُرُضٍ   مِرفقها عن بنات الزّوْر مفتولُ[٣٧]

٢٥- كأنّ ما فاتَ عينيها ومذبَحَها   من خطمِها ومِنَ اللّحْيَيْن برْطيلُ[٣٨]

٢٦- تمرّ مثل عسيب النخلِ ذا خُصَلٍ   في غارزٍ لم تخوّنْهُ الأحاليلُ[٣٩]

٢٧- قنواء في حُرّتيها للبصير بها   عِتقٌ مبينٌ وفي الخدّيْن تسهيلُ[٤٠]

٢٨- تخدي على يسراتٍ وهي لاحِقةٌ   ذوابل مسُّهنّ الأرض تحْليلُ[٤١]

٢٩- سُمْرُ العُجاياتِ يترُكْنَ الحَصا زيَما   لم يقهنّ رُؤوسَ الأكْمِ تنْعيلُ[٤٢]

٣٠- كأنّ أوْبَ ذِراعيْها إذا عرِقتْ   وقدْ تلفّعَ بالقُورِ العساقيلُ[٤٣]

٣١- يوماً يظلُّ بهِ الحِرْباءُ مُصْطخِداً   كأنّ ضاحيهُ بالشّمْسِ مَمْلُولُ[٤٤]

٣٢- وقال للْقوْمِ حادِيهمْ وقدْ جعلتْ   وُرْقُ الجَنادِبِ يركُضْنَ الحصا قيلُوا[٤٥]

٣٣- شدَّ النّهارِ- ذراعا عَيْطلٍ نَصَفٍ   قامت فجاوبها نُكْدٌ مثاكيلُ[٤٦]

٣٤- نوّاحةٍ رخوة الضّبْعيْن ليْس لها   لما نعَى بكرها النّاعُون مَعْقُولُ

٣٥- تفْري اللّبانَ بكفيْها ومدْرعُها   مشقّقٌ عَنْ تراقيها رَعابيلُ[٤٧]

٣٦- تسْعى الوُشاةُ جنابَيْها وقولهم   إنّك يابْن أبي سُلْمى لَمَقْتُولُ

٣٧- وقال كُلّ خليلٍ كُنْتُ آملُهُ   لا ألْهينّك إني عنك مشغُولُ

٣٨- فقُلْتُ خَلُوا سبيلي لا أبالكُمو   فكُل ما قدَّرَ الرّحْمنُ مفعُولُ

٣٩- كلّ ابن أنْثى وإنْ طالتْ سلامتُهُ   يوماً على آلةٍ حدْباء محمولُ[٤٨]

٤٠- أنْبِئْتُ أنَّ رسول الله أوعدني   والعفْو عند رسول الله مأمولُ

٤١- مهلاً هداك الذي أعطاك نافِلَةَ الـ   قُرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ

٤٢- لا تأخُذنّي بأقْوال الوُشاةِ ولمْ   أذنبْ ولو كثُرتْ فيَّ الأقاويل

٤٣- لقدْ أقُوم مقاماً لو يقومُ به   أرى وأسْمع ما لو يسمعُ الفيلُ
٤٤- لظلّ يَرْعدُ إلا أنْ يكونَ لهُ   من الرسول بإذْنِ اللهِ تنْويلُ
٤٥- ما زلْتُ أقْتطعُ البَيْداء مُدّرعاً   جُنْحَ الظّلام وثوْبُ اللّيْل مسدولُ
٤٦- حتى وضعْتُ يميني ما أنازعُها   في كفّ ذي نقماتٍ قيله القيل
٤٧- لذاك أهيبُ عِنْدي إذْ أكلّمُهُ   في بطن عثّر غيلٍ دونه غِيل(٤٩)
٤٩- يغْدو فيلْحمُ ضِرْغامَيْن عيشُهُما   لحْمٌ من القومِ معْفورٌ خراديل(٥٠)
٥٠- إذا يُساوِرُ قِرْناً لا يحِل له   أنْ يتْرُكَ القِرْن إلاّ وهو مفلولُ(٥١)
٥١- مِنْهُ تظلُّ سباعُ الجو ضامزةً   ولا تُمَشّي بواديه الأراجيلُ(٥٢)
٥٢- ولا يزالُ بواديه أخو ثقةٍ   مُضرّجِ البزّ والدّرْسانِ مأكولُ(٥٣)
٥٣- إنّ الرّسولَ لسيفٌ يُستضاءُ بهِ   مُهنّدٌ من سُيُوفِ الله مسلُولُ
٥٤- في عُصْبَةٍ من قُريشٍ قال قائلُهُمْ   ببطنِ مكّةَ لَمّا أسلمُوا زُولُوا(٥٤)
٥٥-زالوا فما زال أنْكاسٌ ولا كُشُفٌ   عنْدَ اللقاءِ ولا ميلٌ معازيلُ(٥٥)
٥٦- شمُّ العرانين أبطالٌ لبُوسُهم   من نسج داود في الهيجا سرابيلُ(٥٦)
٥٧- بيضٌ سوابغُ قد شُكّتْ لها حلَقٌ   كأنها حلَقُ القَفْعاء مجْدُول(٥٧٤)
٥٨- لا يفْرحُون إذا نالتْ رماحُهُم   قوْماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلُوا
٥٩- يمْشونَ مشْى الجمال الزُّهْر يعْصمُهُم   ضربٌ إذا عرّد السُّودُ التنابيلُ(٥٨)
٦٠- لا يقع الطّعْن إلاّ في نُحُورهِمْ   وما لَهُمْ عنْ حياض المَوْتِ تهْليل

نالت قصيدة كعب بن زهير إعجاب الأدباء الرواة، وعنوا بها عناية كبيرة، ظهرت في كثرة شروحها، وتنوع اتجاهات الشراح، وأشار إليها الشعراء في أشعارهم، وتحدث عنها النقاد في حديثهم عن موقف الإسلام من الشعر(٥٩). كل هذه الموضوعات استوفاها الباحث السيد إبراهيم محمد في أطروحة كتبها بعنوان: أثر قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير، وأثرها في الشعرس، تحدث فيها عن اتجاهات

شراح القصيدة التي كانت بين شروح لغوية، وشروح صرفية، وأخرى أدبية، وأخيراً شروح صوفية.

لقد نالت هذه القصيدة إعجاب الأدباء، لأنها قيلت بين يدي الرسول ﷺ، وإن صاحبها نال شرف عفو الرسول ﷺ عنه، كما أنه شاعر عرف بتجويد شعره، وبكونه امتداداً لاتجاه زهير بن أبي سلمى الشعري، فقصيدته رائعة تستحق هذه العناية للسببين المذكورين.

بدأ الشاعر قصيدته بمقدمة غزلية لطيفة ليس فيها بكاء على الأطلال، أو مخاطبة الرفقة، وإنما بدأها بالغزل مباشرة حتى صار مطلعها مثلاً ورمزاً يشار إليه (بانت سعاد..). لم يخرج فيها كعب عن معاني الغزل في العصر الجاهلي، ولكنه وسمها بسماتٍ جمالية فنية تمثل أسلوبه المعتمد على اللغة الجزلة السلسلة والصور الجميلة، والإيقاع المتوازن المعتمد، ولكننا نجد في البيت السابع غزلاً حسّياً، مما لا يقبله الذوق الإسلامي من ذكره للمضاجعة والشم والتقبيل.. مع كونها قرأت بين يدي الرسول ﷺ، وعدم احتجاج الرسول ﷺ على هذا الضرب من الغزل نابع من فهمه عليه الصلاة والسلام لسنن الشعراء ومطالع قصائدهم مما يذكرنا بقصيدة حسان الهمزية.

لم ينتقل كعب من الغزل إلى الرحلة بحثاً عن السلوان عن الحبيبة، وإنما عطف بانتقالة لطيفة جميلة خالف فيها الشعراء في أنه تذكر هجر سعاد، وانها لم تف بوعدها، وإنها متقلبة المواقف وصلاً وهجراً، وبدلاً من وصفه رحلته أخذ يصف الناقة القوية التي يمكن أن تصل إلى ديار سعاد التي بعدت عنه، وهي أوصاف بدوية رسم فيها صوراً للناقة، دقيقة المعالم حافلة بالحركة والنشاط أخذت من القصيدة الأبيات ١٥-٣٦).

انتقل بعدها إلى تحذير الوشاة له بالقتل، وهنا يتناول كعب موضوعه بفكر يقارب الفكر الإسلامي، ولا عجب من ذلك فإنّ أخاه بجيراً لا بدَّ أن يكون قد ذكر له صفات النبي ﷺ وخلقه، كما أن سيرته ﷺ العطرة قد شاعت في بلاد العرب، فجاء وصف كعب له من خلال هذه السمعة.

ويقف كعب وقفة جميلة في وصفه للرسول ﷺ وهو وصف لا يشبه المديح

الجاهلي أو الإسلامي، لأنه لم يكن مديحاً شخصياً، وإنما وصف لهيبته ﷺ التي أخافت كعباً، ووصف رقته وعطفه اللذين جعلا كعبا يتجاوز ترهيب الآخرين له، ويقدم على الرسول ﷺ يطلب عفوه.

لقد وضع كعب الرسول ﷺ في إطار صورتين رائعتين فريدتين في الأدب العربي، كلاهما تحمل سمات الهيبة والمهابة، ويبدو فيها الشاعر ضعيفاً خائفاً مترقباً.

الصورة الأولى: أنه حضر مجلساً هائلاً، ورأى فيه أمراً عظيما وسمع فيه كلاماً عجيبا بشأن ما ذكروا من هدر الرسول ﷺ دمه، وأنه أوعده بالقتل، بحيث لو حضر الفيل ذلك المجلس، ورأى ما رأى، وسمع ما سمع لأصابته الرعدة، إلا أن تحفه العناية الإلهية **بتأمين** عفو الرسول ﷺ، فأخذ يقتطع الصحراء مدَّرعاً بالظلام، خائفاً من الناس، وليس من الرسول ﷺ، لأنه متيقن من عفوه، وقد أخذ وصفه لرحلته في الصحراء بيتاً واحداً، لأنه موضوع لا يشغل باله وانتقل مباشرة إلى الصورة الثانية.

أما **الصورة الثانية**، فهي وصفة لموقف مصافحته للرسول ﷺ، وطلبه العفو منه. وهنا يبرز لنا كعب الرسول ﷺ، واصفاً إياه بالقوة فعلاً وقولاً في إطار ما أحيط به الشاعر من أقوال نقلت عنه، وأشعار رويت عنه، وما بلغه من هدر الرسول ﷺ دمه. لقد أيقن كعب أن حياته متعلقة بعفو الرسول ﷺ عنه، فيصفه من خلال هذه الصورة وهي وصفه لأسد شديد الضراوة مقيم في أجمة كثيرة السباع يخرج أول النهار يلتمس لشبليه الفريسة ليطعمهما لحماً. ثم يفصل في جزئيات الصورة، فقوت الشبلين لحم بني آدم المقطع م\قطعاً صغاراً معفراً بالتراب. والأسد مساور مواثب لا يقاومه مقاوم . ومن خلال قوة هذا الأسد، ولحم بني آدم المقطع المعفر بين يدي الشبلين، يبدو الشاعر ضعيفاً خائفاً متربصاً لعفو الرسول ﷺ عنه.فهذا المشهد المثير للرعب والخوف لا يماثله خوف الشاعر وتهيبه للقاء الرسول ﷺ.

لقد بدأ الشاعر هذا المقطعَ بلفظ مهلاً بمعنى تمهل، ولم يأت بتتمة المعنى، وانما جاء بجملة اعتراضية طويلة اخذت البيت كله – هداك الذي أعطاك نافلة ... –وبهذا يمهد للمخاطب وللرسول ﷺ أن نداءه هذا ترفق، وانه صادر عن رجل مؤمن بما يدعو اليه الرسول ﷺ.

رفع المسـاهم

وحين أراد أن يصور خوفه من الموقف الذي لو وقف فيه الفيل لارتعد مع ضخامة جسمه، لم يأت بأداة تشبيه أو ما ينبىء بتشبيه وأورد حديثه عن صورة مباشرة : لقد أقوم مقاما...

وهذه الرعدة المخيفة التي سرعان ما تملأ مخيلة السامع، تهفت مباشرة حين يقابلها بقوله : ألا ان يكون له عفو من الرسولﷺ أو أمل بالعفو ... إن مديح كعب هنا نمط خاص، قلما جادت به قرائح الشعراء، نمط غير تقليدى وغير مباشر يبرز من خلاله الرسول ﷺ النبي المهيب الذي خافه الشاعر، والرحيم الرؤوف الذي ينتظر عفوه، ولم يلجأ فيه كعب الى صفات مباشرة للممدوح كما يفعل الشعراء.

وحين مدحه مديحاً مباشراً سرعان ما نقل صورة الرسولﷺ في اطار جماعته، ولم يجعله كسائر الممدوحين ينفرد بصفات مألوفة مكررة . أنه نبي، سيف سلَّه الله على الكافرين، وحوله المؤمنون الذين هجروا ديارهم وأهليهم :

إنَّ الرسول لنور يستضاء به ... مهنَّد من سيوف الله مسلول
في فتية من قريش قال قائلُهم ... ببطن مكة لما اسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُف ... يومَ اللقاء ولا سود معازيل
لا يقعِ الطعنُ إلاّ في نحورهم ... وما بهم عن حياض الموت تهليل

ويجدر بنا الوقوف على شرح الصوفية لهذه القصيدة لأنهم تجاوزا فيها دلالة المفردات اللغوية في معجم كعب وعصره، إلى دلالات جديدة أسقطوا فيها أفكار الصوفية على القصيدة ومعانيها.

ومن أهم شروح الصوفية لهذه القصيدة شرح الإسعاد في تحقيق بانت سعاد للشيخ العارف بالله محمد بن أحمد بدير بن القدسي[٦٠] الذي سلك فيه مسلكاً رمزيا، حتى يصح أن نجعل قراءته ضمن ما يسمى في النقد الحديث بالمستوى الإبداعي من مستويات التلقي الذي نجده عند صنف من القراء الذي (يصنعون المعاني، وأن لهم الحق في إضفاء أي معنى تلزمه حاجاتهم النفسية على نص معين)[٦١].

لقد شرح القدسي قصيدة كعب شرحاً صوفيا نحى بها منحى خاصاً

مخالفاً لكل الشراح والنقاد القدماء. فكل بيت من أبياتها يحوله الشارح في ذهنه إلى معانٍ وصور وأخيلة لا يدل عليها ظاهر الألفاظ، ولا تساير عقلية الشاعر في صدر الإسلام، وإنما هي إعادة لتشكيل صور كعب، لتكون معبرة عن عالم الشوق والحب الإلهي، وما يعانيه الصوفية من المكابدة في رياضة النفس، ودفع الهمة، والتسامي عن الملذات المادية.

إن كل بنية من قصيدة كعب اتخذت مساراً صوفيا في قراءة القدسي، وتحولت إلى رمز من رموزها.

سعاد التي تغزل بها كعب أول القصيدة هي السعادة التي ينالها العارف بالله بعد جهاده لنفسه، وهي بعيدة عمن لم تشمله العناية، ولم تسبق له الولاية، كما أنها تحتاج في الوصول إليها إلى همة عالية من عقال الهوى.

أما سعاد التي عاد إليها الشاعر مرة أخرى بالضمير (أكرم بها) فهي النفس الأمارة بالسوء، ولذلك وصفها بإخلاف الوعد والتبديل.

أما الناقه القوية والتي وصفها كعب التي يمكن أن توصله إلى سعاد، فهي رمز للهمة التي تتصف بها النفس المرضية الساعية إلى السعادة.

والطريق الذي تقطعه الناقة هو طريق أهل اليقظة الذين لهم مراتب في سفرهم يعرفها أهل النظر، فأول الأمر شوق شائق، ووجد صادق..

إما الراح التي ذكرها كعب، فهي ليست الخمرة المادية إنما هي الراحة العظمى التي يحسّها العارف بلقاء مفيض العوارف.

وهكذا يحول هذا الصوفي قصيدة كعب إلى صورة من صور الصوفية، فكل بيت منها يفسره بإسقاط معاني الصوفية عليه. حتى حولت القصيدة عن مسارها الذي أراده الشاعر. ويبقى هذا الشرح ممثلا لنمط من أنماط الشروح التي تمثل عناية القدماء بهذه القصيدة(٦٢).

أما مديح كعب للأنصار، فإنه كان مديحا في إطار الجماعة أيضاً:

من سرَّه كرمُ الحياةِ فلم يزلْ ... في مِقنبٍ من صالحي الأنصار[٦٣]
ورثوا المكارم كابراً عن كابرٍ ... إن الخيار همْ بنو الأنصار
المكرهين السمهري بأذرعٍ ... كسوالف الهندي غير قصار[٦٤]
والناظرين بأعيُنٍ محمَّرةٍ ... كالجَمْر غيرِ كليلةِ الأبصارِ
والبائعينَ نفوسَهم لنبيهم ... للموتِ يومَ تعانقٍ وكِرار
والذائدين الناس عن أديانهم ... بالمشرفي وبالقنا الخَطار[٦٥]
يتطهرون كأنه نسكٌ لهم ... بدماءِ من عَلِقوا من الكفّار[٦٦]
دربوا كما دربت ببطن خَفيّة ... غلبُ الرقابِ من الأسود ضواري[٦٧]
لو يعلمِ الأقوامُ عِلمي كلّه ... فيهم لصدَّقني الذين أماري[٦٨]
قومٌ إذا خوتِ النجومُ فإنهم ... للطارقين النازلين مقاري[٦٩]
في الغرّ من غسانَ من جرثومة ... أعيَت محافرُها على المنقارِ[٧٠]

إن كعب بن زهير في هذه القصيدة المادحة، جمع بين قيم المديح المعروفة في العصر الجاهلي وقيم المديح الإسلامية. ونقول قيم المديح المعروفة في العصر الجاهلي، ولا نريد بها الا القيم التي استمرت بعد ظهور الإسلام، لانها من مكارم الأخلاق. فمن يريد الحياة الكريمة فليلجأ للأنصار لأنهم الفرسان الشجعان الذين يحمون من يستجير بهم أو يعيش بينهم، ولعله بهذا يشير إلى مؤاخاتهم للمهاجرين، وبذا يقيم معادلة بين مسلمي قريش بانهم الذين ناصروا الرسولﷺ في مكة، وهاجروا معه، فإن الأنصار هم العزة والمنعة لمن يعيش بين ظهرانيهم، فهم أبطال، غضاب لله ورسوله أعينهم محمرة حماساً لا ضعفاً ولا مرضاً، الرماح تكل وتتعب ولكنهم يكرهونها على القتال بأيديهم التي شبهها في قوتها بالسيوف .. كل قوتهم قد سخروها دفاعاً عن النبي ﷺ، وقد استخدم كعب التطهر بمفهومه الإسلامي، ليصور تقربهم لله سبحانه بالجهاد في سبيله، فهم يعدون قتل الكفار قربة لله، وتنسكاً في الدين، وهو إذا كان يمدحهم فانما يمدحهم عن علم وبصيرة بخُلقهم ومكانتهم. وهنا يقف عند قيمتين من قيم المديح، أولاهما صفة الكرم فإذا كان الجدب والقحط فانهم ينصبون قدورهم للضيفان ويكرمونهم، وأما القيمة الثانية التي عاد إليها كعب، فهي وصف شرف

رفع المسهم

الأنصار بكرم أحسابهم وأنسابهم، ولكنه لم يقف مفصلا في هذا النسب، لئلاّ يقع فيما كان يقع فيه الجاهليون فيما كان بين الأوس والخزرج، فكفى بهما معاً أصالة نسب، أنهم من غسان.

فكعب هنا يجمع القيم العربية المادحة ويضمها في إطار إسلامي، يرفع الأنصار من المكانة القبلية المحدودة الى مصاف المجاهدين المتقين الذين يبحثون عن الأجر والثواب. وهو في هذه القصيدة غير ملتزم بالبنية الفنية التي التزم بها في قصائده الأخرى، لأنه بدأ بمديح الأنصار مباشرة ودون مقدمة غزليّة، ولعلها فعلاً جاءت استجابة لاعتراض مسلمي قريش من المهاجرين بأنه لم يمدح الأنصار.. فكانت هذه القصيدة جواباً صادقاً ومباشراً بوضع معادلة الإيمان بين هجرة المهاجرين ونصرة الأنصار. وأسلوب كعب فيها هو أسلوبه في سائر أشعاره الجاهلية والإسلامية: والصنعة الفنية الجميلة التي لا يبدو فيها أي أثر للتكلف أو الغرابة.

ويستمر هذا الأسلوب في المديح زمن الخلفاء الراشدين، إذ تبقى قيم المديح ملازمة للدين الإسلامي، أو ما يوافقه . فلا عجب أن نجد أبا محجن الثقفي يستقي من القرآن الكريم وصفاً لابي بكر ليتخذه مادة لمديحه. فقد وردت في القرآن الكريم آية تصف هجرة الرسول (ﷺ) مع ابي بكر بقوله تعالى : ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ [سورة التوبة ٩]. يستقي أبو محجن من هذه الآية وصف الصاحب ليمدح أبا بكر بعناصر إسلامية أخرى، فهو صديق، لأنه صدق دعوة الرسولﷺ، وهو الصاحب لأنه صحبه عليه الصلاة والسلام الى المدينة فيقول :

وسُميتَ صدّيقا وكلُّ مهاجر ... سواكَ يسمّى باسمه غير منكرِ
سبقتَ إلى الإسلام واللهُ شاهدٌ ... وكنتَ جليساً بالعريش المشهَّرِ
وبالغارِ إذ سُمّيتَ خِلا وصاحباً ... وكنتَ رفيقاً للنبي المطهَّرِ

ومما ذكر من شعر مُدح به الزبير بن العوام زمن الخليفة عمر بن الخطاب، أبيات شعر قالها حجية بن المضرب، وذلك انه كانت له امرأة اسمها زينب طلقها، فخرجت إلى المدينة، فأسلمت في خلافة عمر فقدم حجية المدينة وطالب بزينب وأراد أن يردها،

رفع المسهم

ويسمع الخليفة بالخبر، ويأتي الى الزبير قائلاً: لولا تحرّمه بالنزول عليك هممت به، أي لعاقبته لأنه يطالب برد امرأة مسلمة عن دينها (وكانت نصرانية) فيبلغ الزبير بن العوام الشاعر قول الخليفة عمر، فيقول مادحاً الزبير :

إنَّ الزبيرَ بنَ عوّامٍ تداركني ... منه بسيب كريم سيبُه عَمَمُ[٧١]
نفسي فداؤك مأخوذاً بحجزته[٧٢] ... إذ شاط لحمي وإذ زلت بي القدم
إذ لا يقوم بها إلاّ فتى أنِفٌ ... عاري الأشاجعِ في عِرنينِه شَمَمُ[٧٣]

وهي أبيات وإن صدرت عن عربي نصراني، إلا أنها لا تحمل إلا المثل العربية التي يعتز بها العربي أينما كان، وفي أي وقت كان، وبذا لم يأت الشاعر بمدحه للزبير بأي معنى يشم منه معارضة للإسلام، أو رفض لقيمة خلقية، لأنها تمجيد لموقف شخص نزل في حماه.

وهذا حجر بن عدي أحد أصحاب الإمام علي صحابي ناصره ولازمه في حروبه وعرف حقيقة المواقف السياسية التي جوبه بها الإمام أيام خلافته فيدعو الله أن ينصره، لأنه تقي مؤمن صادق في دعوته، وموقفه، وهو مديح إسلامي يمثل بداية المديح السياسي:

يا ربنا سَلِّمْ لنا علياً
المؤمن المسترشد المرضيا
واجعلْه هادي أمة مهديا
واحفظْه ربي حفظَك النبيا[٧٤]

٢- الهجاء :

الهجاء مثل المديح في تصويره لقيم المجتمع، فسلب المهجو منها، وسلخه من الشخصية التي يعتز بها أي فرد في المجتمع يعني أن هذه الصفات هي الروابط والعوامل المشتركة التي اتفق الناس على كونها مفتاح شخصية الرجل المثلى. من هنا لابد أن تدخل هذا الفن جملة تغييرات تشمل المعاني والأفكار والصور حين انضوى الشعراء تحت راية الإسلام، ولعل هذا الغرض أول الأغراض التقليدية التي طرأت عليها التغييرات منذ أن استخدم الشعر وسيلة من وسائل الدفاع عن الدين الإسلامي . فكما تصدى المشركون الى هجاء المسلمين والرسولﷺ، أمر النبي ﷺ شعراءه بالرد عليهم . ومن الطبيعي ان يكون هذا الرد فخراً بالدين الجديد، وذمًّا وهجاءً لجهل الكافرين . وكلمة الرسول (ﷺ) : (أهجهم وروح القدس معك) مشهورة تبين توجيه الهجاء وجهة جديدة .

ولعل قائلا يقول بأننا قلنا في حديثنا عن موقف الإسلام من الشعر بأن الرسول ﷺ نهى عن الشعر الذي يثلب الأعراض، ويهتك الأستار، فكيف نقول هنا بأنه أمر شعراءه بهجاء المشركين ... نقول ان لا تعارض بين القولين، فالمشركون أعلنوا على لسان شعرائهم حربا شعواء ضد المسلمين والرسول الكريم، فكان من الطبيعي ان يأمر الرسولﷺ شعراءه بالرد عليهم، ولكن ردود هؤلاء الشعراء المسلمين وأشعارهم بدت متفاوقة، فمنها ما تنقض أقوال المشركين وترد عليهم الشتائم والذم، ومنها ما جاء الهجاء فيه بصيغة جديدة حين هجا المسلمون المشركين بالضلالة وقصور التفكير والجهل .

ومن الهجاء السائر في ركاب جاهلي كثير من قصائد حسان التي هجا بها قريشا متبادلا مع شعرائها النقائض والمهاجاة، فهو يهجو الوليد بن المغيرة هجاءً معتمدا على أسس قبلية، لأنه من قريش معتد بنسبه، فما كان من حسان إلاّ أن يهجوه بأنه من بطون قريش التي لا قيمة ولا شأن لها، وإنْ هو إلاّ عبد في قريش التي يفخر بها فيقول :

متى تنسب قريش أو تحصل فما لك في أرومتها نصابُ
نفتك بنو هصيص عن أبيها لشَجْعٍ حيثُ يُسترَقُ العبابُ
وأنتَ ابنَ المغيرةِ عبدُ شَوْلٍ قد أندبَ حبلَ عاتِقك الوِطاب
إذا عُدّ الأطايبُ من قريشٍ تلاقتْ دون نسبتِكم كِلاب(٧٥)

وفي مقطوعة أخرى يهدد حسان المشركين بالحرب دون الاشارة الى حرب العقيدة والدين، ويخوفهم بأخذ الغنائم والأسلاب في معركة قادمة، ويذكر فيها غزوة المصطفى ﷺ لهم بسبب ذلك وهي المسماة بغزوة ذي قرد (٧٦)

ويهجو حسان حكيم بن حزام بن خويلد بالجبن في الحرب، ويذكره بأنه هرب يوم بدر وألقى سلاحه، ولعل استمرار حسان في مثل هذه المقطوعات بالهجاء على الطريقة الجاهلية، مردها إلى انه يخاطب أناسا مازالوا تاريخيا في فكر قبل الإسلام أو منتمين إلى عصره في قيمهم التي يعتدون بها أو في المعايب التي تثيرهم وتغيظهم، فكان هجاؤه قائما على عنصرين عنصر شتم قريش والمشركين بالمعايب التي تغض من شأنهم في عيون القبائل التي لم تسلم بعد، وعنصر آخر إسلامي يقابل الهجاء الجاهلي، وهو مقارنة حالة قريش والمشركين بحال المسلمين المؤمنين الذين يؤازرهم نصر الله والملائكة ويحيطهم النبي ﷺ بهدى الدين ونور النبوة وتحدوهم الرغبة في ثواب الله وطلب جنته، وبذا يخرج بالهجاء من منظوره الجاهلي الى منظور اسلامي:

لقد لعنَ الرحمنُ جَمْعا يقودُهم دعيٌّ بني شجع لحربِ محمد
مشومٌ لعينٌ كان قِدما مبغَّضا يبيِّنُ فيه اللؤم من كان يهتدي
فدلاهُم في الغيِّ حتى تهافتوا وكان مضلا أمرُه غيرَ مرشد
فأنزل ربي للنبي جنودَه وأيّده بالنصر في كل مشهد
وإنَّ ثواب الله كلٌّ موحد جنانٌ من الفردوس فيها يخلَّد(٧٧)

على أننا لانعدم في هجائه قيما اسلامية جديدة، وأساليب فرضت عليه وعلى غيره من شعراء الدعوة الإسلامية، حين هجوا المشركين بالضلالة العمياء والجهل عن حقيقة الدين، وتهديد المشركين من ثم بالعذاب في الدنيا والخزي والعقاب في الآخرة، لان هناك حسابا فثوابا وعقابا .

رفع المسابهم

ويهجو قريشا بأنها في استجابتها لدعوة أبي سفيان في حربه للرسولﷺ إنما تتبع الشيطان أما المسلمون جميعا فانهم يعبدون الرحمن الذي هو أعظم من أن يشرك به بعبادة وثن من الأوثان التي تعبدها قريش، وبذا يقوم هجاؤه على سبيل الموازنة بين عقيدة الدين وجهل الجاهلية :

طاوعوا الشيطان إذ أخزاهُمُ فاستبانَ الخزيُ منهم والفشلْ
حين صاحوا صيحةً واحدةً معْ أبي سفيان قالوا: أُعلُ هُبَلْ
فأجبناهم جميعاً كلُّنا ربُّنا الرحمنُ أعلى وأجلْ[٧٨]

على أن هذه القيم الإسلامية الجديدة التي دخلت في هجاء الشعراء في عصر الدعوة استمرت في عصر الخلفاء الراشدين، فهذا معاذ بن يزيد بن الصعق يهجو المرتدين بخروجهم على الدين الإسلامي، ويصفهم بالكذب والطمع، لانهم منعوا أداء الزكاة، الفرض الذي وضعه الله تعالى، وتركوا أداء الصلاة، فأي شيء بقي لهم من عقيدتهم:

بني عامر أينَ أينَ الفرارُ من اللهِ واللهُ لا يُغلَبُ
منعتم فرائضَ أموالِكم وتركُ صلاتِكُمْ أعجبُ
وكذّبتم الحقَّ فيما أتى وإنَّ المكذّب للأكذَبُ[٧٩]

ويقول عمارة بن قريط:

ثقلت صلاة المسلمين عليكم بني عامر والحقُّ جدُّ ثقيل
واتبعتموها بالزكاة وقلتمُ ألا لا تفرّوا منهما بفتيل
فلا يبعد الله المهيمن غيرَكم سبيلُكم في كل شر سبيلُ[٨٠]

ونجد استمرار هذه العناصر من الهجاء في عصر الراشدين، فيتغنى الشعراء بسلب مهجويهم من كل ما يرفع شأنهم في نظر الناس، أو على الأقل من عناصر الشخصية السوية في المجتمع المسلم . فالحطيئة يهجو الوليد بن عقبة والي الكوفة، ويستغل المبدأ الإسلامي الذي يجب توافره في شخصية ولاة الأمر، وهو التقوى، وأداء الفروض، فيحاول أن يسلب مهجوه منهما، فيتهمه بأنه يشرب الخمر وأي

رفع المسهم

شرب؟. إنه شرب مخالط لأداء الصلاة فهل يحق له بعد هذا ان يبقى واليا على الكوفة :

شهد الحطيئةُ حين يلقى ربَّه ... أن الوليدَ أحقُّ بالعُذرِ
نادى وقد قضَّوا صلائهم ... أأزيدُكم ثَمَلاً وما يدري[٨١]

وهناك موقفان رسميان إزاء الهجاء، يضافان الى توجيهات الرسولﷺ التي مرت بنا، وكلاهما حدثا زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وتم بسبب الهجاء حبس شاعر.

الأول : شكوى الزبرقان بن بدر للخليفة عمر بسبب هجاء الحطيئة له بقوله:

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتِها ... واقعدْ فإنَّكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي[٨٢]

ويتظاهر الخليفة بفهم البيت فهماً يبعده عن الهجاء فيقول له : اما يرضيك ان تكون طاعماً كاسيا ؟ ويصر الزبرقان على إنه هجاء . والواقع ان الخليفة يعرف حقاً أنه هجاء، ولكنه اراد تطبيق القاعدة (إدرأوا الحدود بالشبهات) وان لا يقضي على الشاعر بسبب أبيات من الشعر لا تحمل فحشا ولا فسقا . ولما كانت هذه شكوى فعلية مرفوعة الى الخليفة، وصاحبها مصر عليها، فإن الخليفة طلب شهادة حسان بن ثابت لعله يتعاطف مع المدعَّى عليه، ويدرء العقوبة عنه. فلما شهد حسان بأن ما يسمعه هو أشد الهجاء أمر الخليفة بسجن الحطيئة. ثم استعطفه الحطيئة بعد ذلك بأبيات رقيقة، وقيل إن الخليفة اشترى اعراض المسلمين من الحطيئة بمقدار من المال يكفيه حاجته، ولا يتعرض للهجاء . ويشبه هذا الموقف موافقة الخليفة عمر على زيادة أبي موس الأشعري عطاء الحطيئة بقوله : إني اشتريت عرضي منه، فيقول له الخليفة : ان كان هذا هكذا، وأنك حميت عرضك من لسانه، ولم تعطه للمدح والفخر فقد أحسنت.[٨٣]

أما الموقف الثاني، فهو موقف رسمي أيضا . اشتكى فيه بنو العجلان ضد الشاعر النجاشي عند الخليفة عمر بن الخطاب لأبيات شعرية قالها فيهم .وهي رواية طريفة جداً، لان الخليفة حاول في كل بيت من أبياتها أن يحول مفهوم الهجاء الوارد فيها الى مديح إسلامي وبهذا يضمن تخفيف أو حذف العقوبة عن الشاعر، وتوجيه

القوم والشاعر معاً وجهة إسلامية . حين سألهم الخليفة ما قال فيكم ؟ قالوا :

إذا اللهُ عـادى أهـلَ لـؤمٍ ورقـةٍ فعادى بني العجلانِ رهطَ ابنِ مقبل

حاول الخليفة ان يخفف حدة الهجاء بأن جعله مجرد دعاءً فان كان مظلوما استجيب له، وان كان ظالما لم يستجب له، فسكت القوم عن هذا البيت، لأن الذي بعده لا يمكن ان يفهم منه الا الهجاء، فقالوا : ولكنه قال :

قُبـيِّلةٌ لا يغـدرونَ بذمَّـةٍ ولا يظلمونَ الناسَ حبَّةَ خردلِ

فقال عمر : ليت آل الخطاب هكذا، محولاً صفة الضعف والذلة التي اراد الشاعر وصم القوم بهما من منطلق جاهلي إلى خلتين يعتد بهما المسلم ويتمنى ان يتصف بهما وهما أمانتهم وعدلهم، ولكن الشاعر ما أراد هذا المفهوم الإسلامي، وإنما أراد الهجاء بمفهوم الجاهليين . فقال القوم: وقد قال :

ولا يـردونَ المـاءَ إلاّ عشـيةً إذا صدرَ الورّادُ عن كلِّ منهلِ

وهنا يسمع الخليفة مفهوماً للهجاء كان سائداً قبل الإسلام وهو ان القبيلة الضعيفة تخاف القوية، والشاعر أراد أن يقول أن بني العجلان لضعفهم لا يجرأون على مزاحمة الناس في ورود الماء، وإنما ينتظرون حتى ينتهي الجميع، فيشرب الاقوياء الماء صافياً هم ودوابهم، ويشرب الضعاف الماء كدراً . يوضح هذا بيت عمرو بن كلثوم المشهور :

ونشـربُ إن شـربنا المـاءَ صـفواً ويشـربُ غيرُنـا كَـدَراً وطيـنا

حاول الخليفة عمر ان يوجه هذا المفهوم وجهة اسلامية بان يقول: ذلك أقل للسكاك - أي للزحام - فهذه القبيلة تحب لنفسها ما تحب لغيرها، ولا تزاحم الناس على ورود الماء إيثاراً لغيرهم . فقالوا : ولكنه قال:

تعاف الكلابُ الضارياتُ لحومَهم وتـأكلُ مـن كَعْـبٍ وعوفٍ ونهشلِ

فقال الخليفة : أجَنَّ القوم موتاهم، فلم يضيعوهم . وهنا نكون أمام بيت في الهجاء أراد الشاعر ان يصفهم بخبث النفوس، لذا تعاف الكلاب الضارية الجائعة

رفع المسهم

لحومهم لنتنها وقبحها، بينما حاول الخليفة عمر أن يحول معناه الى مفهوم إسلامي، أو الى مديح . فمن السنة النبوية ألاّ يترك القتيل في ساحة المعركة، وأن يُسرَع في دفن الجنازة اكراماً للميت والاحياء على حد سواء . قالوا: ولكنه قال :

وما سُميَ العجلانُ إلاّ لقيلِهم   خُذِ القعْبَ واحلِبْ أيُّها العبدُ واعجلِ

يريد الشاعر ان جدهم سمي بالعجلان، لأنه كان عبداً مأمورا يؤمر، وينهر، ويعجل، ويطلب منه الإسراع بحلب النوق . لكن الخليفة عمر أراد أن يوجه هذا المعنى الى مديح من مفهوم إسلامي أيضاً شهده المسلمون، وشجعهم الرسولﷺ، وهو ان العمل تشريف للإنسان، وان سيد القوم خادمهم. ولم يرض القوم بهذا التوجيه قائلين: ولكنه هجانا ... أي مهما حاولت توجيه الأبيات وجهة إسلامية لتكون مديحا فهي هجاء . وهنا يبعث الخليفة عمر الى الشاعر حسان بن ثابت فيقر بكونه هجاءً. فيهدد الخليفة النجاشي، ويمنعه من قول الهجاء بقوله: إن عدت قطعت لسانك[٨٤].

في هذين الموقفين نجد محاولة الخليفة الجادة في صرف الأنظار عن الهجاء، وتوجيه النفوس نحو الألفة والصفاء .

وتترسخ فكرة شكوى الناس لدى الخلفاء اذا هجوا هجاءاً مقذعاً، أو اذا شتموا شتما لاذعاً بعد الخليفة عمر، وكأن الحق العام في الشكوى من الهجاء يصير مشروعاً، ويصبح الخليفة مسؤولاً أمام المشتكين عن رد الظلم الواقع عليهم . وهكذا نجد خبراً عن الشاعر المزرد بن ضرار وأنه هجا قوماً أيام الخليفة عثمان بن عفان فاستعدوا عليه الخليفة فبعث إليه من يأتيه به، واعتذر الشاعر عما بدر منه، فقال له الخليفة: إياك وهجاء الناس، فاتعظ[٨٥] وهكذا يصبح الموقف من الهجاء في عصر الخلفاء الراشدين جزءً من الموقف العام ازاء الأغراض الشعرية التي لا تنسجم مع التعاليم الإسلامية والمبادئ التي وجه اليها المسلمون .

المسهم

٣- الرثـــاء :

يعد الرثاء من الأغراض التقليدية في الشعر العربي، لأنه مرتبط بالنفس الإنسانية والحقيقة الأزلية التي تتجلى في أن نهاية كل كائن حي هو الموت والزوال، مما جعل الشعراء يبكون على موتاهم أو قتلاهم، ويسجلون ذلك شعراً، إلا أن هذا البكاء فيه جانبان، الأول تسجيل مشاعر الراثي واظهار لوعة حزنه وفجيعته، والثاني بيان مكانة المرثي وتأبينه، أي ذكر خصال الخير التي عرف بها في زمانه . بمن هنا صور الرثاء عناصر الخير والمثل الأعلى في المجتمع فهو مثل المديح، إلاّ أنه يخص ممدوحا غائباً عن الوجود وهو المرثي، من هنا وجدنا الرثاء في العصر الإسلامي يصيبه تطور كبير في العنصرين اللذين يشكلان جوهر المرثية، ففيما يخص العنصر الاول وهو اظهار اللوعة والحزن والفجيعة وجدناه يتطور تطورا كبيرا عند شعراء الدعوة الإسلامية إذ تختفي معالم اليأس والحزن في رثاء الشهداء ويشير الشعراء الراثون الى ان هؤلاء الشهداء ما فقدوا الحياة الدنيا إلاّ ليهنأوا بالحياة الآخرة، حيث ثواب الله للمجاهدين والشهداء في الجنة، ومع أن الحزن على فقد الاحبة عاطفة إنسانية لا تختلف باختلاف العصور، إلا أنها كادت أن تبهت في فجر الدعوة الإسلامية، لتحل محلها صورة البشرى لتلقي الشهداء ثواب الله في الجنة. وهذا يواكب طبيعة الدعوة التي اقتضت من المسلمين أن يصبروا ويجاهدوا في سبيل الله، لا يثبط عزائمهم موت عزيز أو استشهاد قريب. ووجدناهم يتخذون من استشهاد المسلمين مادة ينطلقون منها لتثبيت نفوس المؤمنين على الإيمان، وتقوية عزائمهم، مع اقترانه في بعض الأحيان بالحزن – حزن النفس الإنسانية الطبيعي – فإذا أراد الشعراء بيان العنصر الثاني من عناصر المرثية وهو تعداد مناقب المرثي، ومدحه بما عرف به في حياته، وجدنا اثر الإسلام في هذه المناقب واضحا حين تقترن المناقب بسيرة المرثي الإسلامية، وبقربه من النبيﷺ وأدائه واجب الشهادة، والتزامه بمبادىء الدين الإسلامي الحنيف. وتظهر هذه المعاني في مراثي كثير من شعراء المسلمين لقتلاهم، فهذا حسان بن ثابت يرثي حمزة بن عبد المطلب وقد قدمت ابنته تسأل عن قبره، فيجيبها حسان بتأبين القتيل وذكر خصاله، وتكون البداية أقرب الى مراثي الجاهليين

رفع المسلم

في البيتين الأولين حين يصفه بأنه سيد قومه، شجاع مغوار في الحرب، وكريم يستبشر وجهه للعطاء، وهو ثابت الجنان صابر في المعارك:-

تُسائل عن قرمٍ هجانٍ سَمَيْدَعٍ ... لدى البأس مغوارِ الصباحِ جسورِ[٨٦]
أخي ثقةٍ يهتزُّ للعُرفِ والنّدى ... بعيدِ المدى في النائبات صبورِ

وإذا كان تعداد هذه الصفات على شاكلة رثاء الجاهليين، فلأنها صفات استمرت في العصر الإسلامي على أنها مثل عليا للرجولة والبطولة، ومع ذلك يتضح الاثر الإسلامي في الأبيات الأخرى التي تليها حين يذكّر البنت المفجوعة بأبيها بان الاستشهاد في سبيل الله راحة أبدية في الجنة، ويذكرها بصفات أبيها الإسلامية، ويصفه بأنه كان وزير رسول الله ﷺ، وانه أجاب دعوة الرسول وأجاب داعي الله في الجهاد، فلقي ما كان يرتجيه من شرف الاستشهاد في سبيل الله والعقيدة :

فقلت لها إن الشهادةَ راحةٌ ... ورضوانُ ربٍ يا أمامُ غفورُ
فإنَّ أباكِ الخيرَ حمزةَ فاعلمي ... وزيرَ رسولِ الله خيرُ وزيرِ
دعاه إلهُ الخلق ذو العرش دعوةً ... إلى جنةٍ يرضى بها وسرورِ[٨٧]

وبعد هذه الصفات الإسلامية التي يصف بها المرثي يعود الى إظهار حزنه وألمه لفراقه، ولكنه حزن مقترن بالاستشهاد والشهادة، ولم يستطع فيه حسان أن يرقى فنياً فهو أقرب إلى الكلام المنظوم منه الى الشعر العاطفي، خاصة أن الرثاء أقرب الأشعار الى صدق العاطفة التي تثير انفعال الشاعر، ومن ثم تهز السامعين، فيشاركونه احزانه على المرثي. بدت عاطفة حسان باهتة ضعيفة اذا قيست بشخصية حمزة الشهيد الذي هزَّ استشهاده المسلمين.

وفي قصيدة اخرى تنسب الى كعب بن مالك او عبد الله بن رواحة يذكر الشاعر حزنه ولوعته على فقد جعفر الشهيد، ولكنه يسلي نفسه بالدعاء له بالجنة، ويذكر المسلمين بوجوب الصبر، لأن الرسول ﷺ وهو أقرب الناس الى الشهيد صابر محتسب الأجر:

رفع المسيهم

عليكَ سلامُ ربِّك في جنانٍ يخالطُها نعيمٌ لا يزولُ
ألا يا هاشمَ الأخيارِ صبراً فكلُّ فعالِكم حَسَنٌ جميلُ
رسولُ اللهِ مصطبرٌ كريمٌ بأمرِ اللهِ ينطقُ إذْ يقولُ(٨٨)

ويقارن كعب بن مالك بين قتلى المشركين مقارنة قائمة على العقيدة الإسلامية، فيقول بعد ان ذكر شماتة قريش بمقتل حمزة، ويذكرهم بقتلاهم الذين قتلهم المسلمون ببدرُ يقارن بين قتلى الطرفين:

شتّانَ من هو في جهنَم ثاويـاً أبدا ومن هوْ في الجِنانِ مخلَّدُ (٨٩)

وتتكرر عناصر الرثاء الإسلامي في رثاء المسلمين للنبي ﷺ فقد ورد في معظم هذه المراثي ذكر صفاته الخلقية الزاكية، وتأكيد حزن الشاعر وألمه لفقد شخص الرسول ﷺ النبي الذي هدى الأمة الى طريق الخير، وعلمها الرسالة السماوية، أما تسلية الشعراء انفسهم فتظهر في تذكرهم ما أورده الله في كتابه الكريم من وجوب الموت، وان لكل انسان أجلا لا يتقدم ولا يتأخر، ولكن فراق النبيﷺ هو الذي يدعوهم الى البكاء وقد أشار أحد الشعراء الى انه حين يبكي الرسولﷺ، ويتذكر مصيبة المسلمين بفقده، يقول انا لله وانا إليه راجعون، لان الله تعالى ذكر في كتابه المحكم ﴿الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون﴾سورة البقرة ٢/ ١٥٦.

فلو ردّ ميِتٌ قتلَ نفسٍ قتلتها ولكنه لا يدفع الموتَ دافعُ
فآليت لا أثني على هُلكِ هالكٍ من الناس ما أوفى ثبيرٌ وفارعُ
ولكنني باكٍ عليه ومُتبعٍ مصيبتَه إني إلى الله راجعُ (٩٠)

وقد مر بنا أن حسان بن ثابت حين رثى الرسولﷺ حاول ان يبكي الديار على طريقة الجاهليين، ولكنه رآها دياراً مختلفة لم يمح رسمها، لان الرسولﷺ ترك بعده القرآن الكتاب الخالد، والمنبر الذي سيشهد استمرار الدعوة .

ثم وقف متذكرا خلق النبي ﷺ وصفاته، فيعددها واحدة بعد الآخر بنفس إسلامي ورؤية إسلامية فهو لا يرثيه لشخصه بقدر ما يرثيه بأنه نبي الأمة، هداها من الضلالة والجهل الى الهدى والنور والعقيدة، وأنه كان رؤوفا بالمسلمين، كثير العفو عن

رفع المسهم

الزلات، عطوفا على صغيرهم وكبيرهم، تحدوه رغبة كبيرة في اداء الرسالة السماوية، وهداية قومه الى الحق، وهو أطيب الناس خلقا، وأكرمهم أصلا وأدبا، لأن الذي أدبه هو الله تعالى حين أرسله نبياً. ويختم قصيدته بان يعزي نفسه، ويؤملها باللقاء القريب مع النبي محمد ﷺ في جنة الخلد (٩١).

هذه القيم الإسلامية التي دخلت في الرثاء تستمر في قصائد الشعراء في عصر صدر الإسلام ولكن نسبة ورودها تختلف باختلاف الشاعر، واختلاف المرثي فتتجلى هذه المعاني كلما كان المرثي مرتبطا بحدث سياسي أو ديني، متلازماً اسمه مع قضية من القضايا . وتظهر هذه المعاني إذا كان الشاعر متمثلا لها واعيا لأهميتها وتأثيرها في نفوس السامعين، وتخف في بعض القصائد إذا كان الشاعر يرثي شخصًا قلّ ارتباطه بالقيم التي كونت المجتمع العربي آنذاك، مثلما نراه في رثاء متمم بن نويرة لأخيه مالك.

وعلى أية حال فرثاء متمم بن نويرة لأخيه أو شعره عموما لا يقاس عليه، لأن العناصر الإسلامية والمثل الجديدة التي عرضناها من قبل استمرت في السيطرة على القصيدة الرثائية، مع المثل العليا التي كانت في الجاهلية، وأقرها الإسلام مثل الشجاعة والكرم والحياء .

واذا راجعنا مراثي الشعراء للخلفاء الراشدين وجدناها تدور حول المعاني الإسلامية والصفات الخلقية التي يتسمون بها، وتقترن بصفات إسلامية أمر القرآن الكريم بالتحلي بها، فالأبيات المشهورة التي قيلت في رثاء الخليفة عمر بن الخطاب تؤبنه من خلال وصفه بالإمام – إمام المسلمين – وإن الله هو الكفيل به، وهو الذي سيجازيه خيرا عن سيرته في حياته الدنيا، أما سيرته فهي العدل والبر والتقى، والحكم بين الناس بسنة الدين القويم :

رفع المسهم

جـزى الله خيرا من أمير وباركتْ يـدُ الله في ذاكَ الأديـمِ المـمزَّقِ
قضيتَ أمورا ثم غادرتَ بعدها بوائـقَ في أكمامهـا لم تُمَزَّقِ
أمين النبي في وحيه وصفيه كسـاه المليـكُ جبةً لم تُمـزَّقِ
مـن الدين والإسلام والعدل والتقى وبـابك مـن كـل الفواحـش مغلق[٩٣]

أمـا الخليـفة عـثمان فقـد أضيفت في رثائه معان أخرى غير التي ذكرت في رثاء الخليـفة عمـر رضـي الله عـنه، وهـي وصـفه بالشـهيد، وذكـر جهاده مع شيخوخته، ومدارسته لكتاب الله، يقول تميم بن مقبل:

ليبك بـنو عثمانَ ما دام جِذمُهم عليه بأصـلال[٩٤] تُعـرّى وتخشبُ
ليـبكوا عـلى خـيرِ البريةِ كلّها تخوَّنـه ريـبُ مـن الدهـرِ معطب
يدارسـهُم أمَّ الكـتابِ ونفسُـه تنازعه وثقى الخصال وينصبُ[٩٥]

ويـرثي أبو الاسود الدؤلي الامام علي بن أبي طالـب، ويبكيه من خلال صفات الإيمـان والإسـلام، فهـو أمير المؤمنين واقرب الناس إلى النبيﷺ وحبيبه وصفيه، أقام الحـق وكـان يقـرؤهم آيـات القـرآن، ويصـلي في النـاس احسن الصلاة، فيكون قدوة للمسلم التقي العادل، وفوق هذا وذاك قتله الخوارج في شهر الصيام :

ألا يـا عـينُ ويحـكِ أسـعدينا ألا تـبكي أمـيرَ المؤمنيـنا
وتـبكي أمُّ كلـثوم علـيه بعـبرتِها وقـد رأتِ اليقيـنا
ألا قُـلْ لـلخوارج حيـث كـانوا فـلا قـرَّتْ عـيونُ الحاسـدينا
أفي شـهر الصـيام فَجعـتُمونا بخـير الـنـاس طـرًّا أجمعيـنا
وكـنا قـبلَ مقـتلِـه بخـيرٍ نـرى مـولى رسـولِ الله فيـنا
يقـيمُ الحـقَّ لا يـرتاب فـيه ويعـدلُ في العـدى والأقربيـنا
ولـيس بكـاتمٍ عـلما لديـه ولم يخلـق مـن المتكـبرينا
ولا والله لا أنسـى عليـا وحسـن صـلاته في الراكعيـنا[٩٦]

لكـن قـراءة هذه المقطوعات تدلنا على نفسٍ قصير، يفتقد كثيراً إلى جمالية الفن، وحـلاوة التعـبير، ولا تعكـس انفعـالاً صـادقاً، أو قوة مشاعر قد يكون سببها سرعة

الحدث، الذي تبعه سرعة نظم الشاعر شعره. يصدق هذا على معظم مقطوعات الرثاء. فرثاء الشهداء لم يرق أيضاً في قوة التعبير عن الحزن أو الانفعال إلى مستوى التضحية التي قدمها أولئك الشهداء. هنا فقط ربما يكون العامل الفكري وهو أن الشهيد حي لا يموت، وراء ضعف شعر رثاء الشهداء في هذا العصر.

أما المراثي التي قيلت في الرسول ﷺ فإنها لم ترق إلى مستوى الحدث العظيم، فهل يكون هول المصيبة سبباً في عجز الشعراء عن تصوير صدق مشاعرهم وإحساسهم بالفجيعة؟! بينما وجدنا الجمال الفني، وصدق العاطفة في الرثاء الشخصي رثاء متمم لأخيه، أو رثاء أبي ذؤيب لأبنائه؟.

٤- الغزل :

إذا أردنا ان نقارن بين الغزل والأغراض الشعرية الأخرى في عصر صدر الإسلام وجدنا تفاوتا، ليس في المعاني الجديدة التي طرأت على الأغراض الشعرية، ولكن في مقدار الشعر الذي سجل في هذا العصر، ومن المعلوم أن الأغراض الشعرية التي عرضناها من قبل استطاعت أن تواكب الدعوة الإسلامية، وان تسخر كل غرض في خدمة الدين الجديد أو تصوير حدث من أحداث الدولة الجديدة. اما الغزل فما كان له أن يأخذ هذا الدور في الأدب الملتزم، أو الموجه لخدمة الدعوة، لطبيعة موضوعاته ومعانيه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان طبيعة موضوع الغزل في عصر ما قبل الإسلام، وكونه في الغالب جزءا من موضوعات متعددة تشتمل عليها القصيدة الجاهلية جعل تطوره في عصر الدعوة المبكرة محدودا . فكلنا نعرف أن معظم ما قيل من شعر الغزل في الجاهلية، قيل في المقدمات الغزلية التي ابتدأ بها الشعراء قصائدهم، وبقيت هذه البداية سمة فنية يتبعها الشعراء فيما بعد . فإذا أردنا تتبع أبيات الغزل في عصر الدعوة الإسلامية لم نجد فيها تطورا واضحا كالذي سنجده في العصر الأموي، لأن الشعراء وهم يبدأون قصائدهم بموضوع تقليدي أحسوا بأن هذه البداية لا تنسجم مع الموضوع المهم الذي وجهوا إليه أشعارهم، وهو موضوع الدعوة الإسلامية، وما يريد الشاعر أن يقول فيه مدحاً أو هجاءً أو فخراً، فجاء تطور

رفع المسهم

القصيدة أو المقدمة الغزلية من ناحية أخرى حين وجدنا نماذج لشعراء حاولوا أن يجتزؤا أبياتها، لينتقلوا عنها بسرعة الى موضوعهم الذي يشغلهم ويشغل المسلمين كافة، وهي بدايات لم يلتفت إليها .

ونجد في قصائد حسان الإسلامية التي التزم بها بالشكل الفني للقصيدة العربية لمحات خاطفة تشير الى شعوره بعدم جدوى هذه الافتتاحية مع تعوده عليها، والتزامه بها من قبل، فنراه يبدأ القصيدة ببيتين او ثلاثة سرعان ما يساوره شعور حاد بوجوب الالتزام بموضوعه الهادف، فيحيد عن المقدمة بأسلوب الردع الذي يستعمل فيهْ لفظه (دع) وقد مر بنا تفصيل ذلك في شعره.

أما قصيدة كعب بن زهير وافتتاحها بالغزل الذي اشتهرت القصيدة بتسميتها بالمطلع (بانت سعاد) فإن حصة الغزل فيها تنحصر بذكر حزن الشاعر على فراق سعاد التي لم تثبت على ود، وإن مواعيدها كانت مواعيد عرقوب في تسويفه تحقيق وعده، لينتقل بعدها مباشرة الى وصف رحلته ثم طلب العفو من رسول الله ﷺ. وقد مر بنا في تحليل قصيدته في غرض المديح، بأن هذا المطلع لا يمكن أن يُبنى عليه حكم نقدي أو فني، لكن القصيدة رائعة جداً بكل ما تحمله من معان أبدع الشاعر في تصويرها في وصف سعاد الى وصف مشاعر الخوف والذعر من الرسول ﷺ الى الأمل والاستبشار والثقة بعفوه عن الشاعر . وإذا كان هناك تعقيب على مقطع الغزل الوارد في قصيدة كعب فعلا فهو أن الرسول ﷺ لم يؤثر عنه انه منع الغزل، أو أبدى استياءه منه كما لم يمنع الخلفاء الراشدون شعر الغزل، وإنما حاولوا أحيانا توجيهه، وإذا كانوا قد ذكروا أن الشاعر سحيم عبد بني الحسحاس كان يذكر شريفات قريش في شعره، فإننا لم نسمع شكوى رفعت ضده إلى الخليفة، أما لأنهم تقصدوا تجاهله، أو أنهم لهم ثقة ببناتهم ما كانوا يعيرون شعره أي أهمية. ومثال توجيه الخليفة عمر لشعر سحيم انه حين انشده قوله:

عميرة ودّعْ إن تجهزتَ غاديا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال : لو قلت شعرك مثل هذا أعطيتك.[٩٧] وقيل أنه قال: لو قدمت الإسلام

رفع المسهم

على الشيب لأعطيتك . وواضح انه كان يريد من الشاعر أن يردعه الإسلام، لا كبر السن . او انه أراد أن يكون شعره على هذه الشاكلة، لا على شاكلة شعره الذي يتعرض فيه للنساء الشريفات .وفي رواية أخرى سمع الخليفة عمر أبيات غزل فاحش من سحيم فعلق عليه : ويلك، إنك مقتول [٩٨] .

أما الأبيات التي قتل بسببها فهي ليست في الغزل بشيء وانما تجاهر بانتهاك حرمة[٩٩] .

ومع ذلك فان الموقف من الغزل لم يكن موقف المعارض أو المانع، كما رأينا مع الهجاء، لان الأخير يفضح المهجويين، ويقلل من قدرهم بين القبائل . أما الغزل فلم يكن إزاءه موقف حاد، ولم نسمع بمن رفع شكوى إلى الخليفة بسبب أبيات غزل قيلت في إحدى النساء، أما لانهم لا يريدون الفضيحة، أو أنهم كانوا يعتقدون بأن الشعراء المتغزلين اذا لم يكونوا فاحشين، فانهم لا يسببون الأذى لهم أو لبناتهم.

٥- الحكمة:

الحكمة من المعاني الشعرية التي كانت معروفة في شعر ما قبل الإسلام؛ فقد كان الشاعر الجاهلي يتأمل حياته وواقعه، ويتفحص حال قبيلته، ووضع الإنسان فيها ويتأرجح رأيه ونظرته إلى الحياة، فهناك من رآها فانية، وتأمل الحروب فيها، فزادت نفسه رغبة في الحياة، وتحدى ظروف الموت القاهرة، فلجأ الى الخمرة والقيان مفلسفا هذا بنظرته الى الحياة التي لا دوام فيها ولا خلود لإنسان، سعدت حياته فيها، أو شقيت. وهكذا وجدنا طرفة بن العبد [١٠٠] ينقل لنا في أشعاره مسوغاته التي يقنع بها نفسه في سبب انغماره بالملذات، بينما وجدنا شاعرا آخر كزهير بن ابي سلمى ينظر إلى الأمور نظرة أخرى، فالمنايا تخبط خبط عشواء لا يفلت منها أحد، والحروب تفني وتبيد، والمستقبل المجهول مصير كل إنسان، توافيه منيته آخر المطاف، فما عليه إلا أن يعمل ما يخلد ذكره بين الناس . تجد كل هذه الأفكار والنظرات في معلقته التي امتدح بها هرم بن سنان ولم تعد فيها نظرته الى الحياة نابعة من حكمته وتجاربه فحسب، بل نجح في إبرازها لتكوّن حكمة الأمة نتيجة التجارب الطويلة التي تشهدها كل يوم. اما

رفع المسهم

الموت فقد حيَّر البشرية أمره، فنرى الشاعر قبل الإسلام يعزى نفسه بتأملات طويلة في عالم الأحياء، فيطوف في عوالم الحيوان الذي يعرفه في بيئته، حمار الوحش والظباء والكلاب، ويتأمل حياتها المنعزلة البعيدة عن الناس، وكيف يفاجؤها الصياد فيشتت شملها وجمعها [١٠١]. كما حاول بعضهم اللجوء الى التعاويذ والتمائم، كل ذلك يصور حيرة الإنسان في ذلك العصر ازاء ظاهرة الموت الأبدية، فيقف متأملاً ومفسرا وفق نظرته الخاصة الى الأمور، ولم تكن الحكمة غرضا قائما بذاته في الشعر العربي، وإنما ترد في ثنايا الأغراض الشعرية المعروفة قبل الإسلام، وعبر المعاني الشعرية المختلفة التي يعبر عنها الشاعر مدحا أو غزلا، فخرا أو هجاءا، وما ذلك إلا لكونها ممثلة لخلاصة تجارب الشاعر أو نظرته الى الحياة إزاء أي أمر من أمورها، وازاء أي موقف من مواقفها. من هنا تداخلت الحكمة ضمن الأغراض الشعرية الأخرى، وقد وجدنا من المؤلفين القدماء من جعلها ضمن باب من أبواب الشعر، كما وجدنا من جعلها مفردة بكونها معنى او غرضا قائما بذاته . فأبو تمام جعل الحكمة ضمن باب الادب فنجد معاني الحكمة متفرقة في أشعار الشعراء في هذا الباب [١٠٢]، بينما عدّ عبد الكريم النهشلي شيخ ابن رشيق الحكمة من أصناف الشعر، حين قال : (أصناف الشعر أربعة المديح والهجاء والحكمة واللهو .. ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ) [١٠٣].

وبغض النظر عن المؤثرات العامة التي قيلت بشأن وجود الحكمة في العصر الجاهلي، تبقى الحكمة وثيقة الصلة بالحياة الإنسانية عامة والعربية خاصة، فنظرة العربي الى الأمور لابد ان تحكمها تجاربه وأفكاره وبيئته، وما ينتج عن هذه النظرة من تأملات وأفكار يسميان حكمة .

فليس غريبا بعد هذا ان نقول باستمرار معاني الحكمة في العصر الإسلامي، خاصة إذا تذكرنا ما أثاره الإسلام من دعوة الى التفكير والتأمل في كثرة التساؤلات التي اثارتها الآيات الكريمة في نفس العربي المسلم عن أسرار خلق الله وعن حكمته في خلق السموات والأرض، تضاف إلى هذا دعوة الإنسان إلى أخذ العبرة والموعظة من تجارب الآخرين في آيات كثيرة تحدثت عن الأقوام والأمم البائدة، وما ارسل اليها من رسالات سماوية .

رفع المسا هما

لقد صارت الحكمة في عصر صدر الإسلام ضالة المؤمن، حيث ما وجدها فهو احق بها[١٠٤]، وما ذلك الا لكون الحكمة نظرة صادقة الى الحياة مستمدة من التجربة الانسانية، فما دامت الحكمة موافقة للحق، فهي ضالة المؤمن حيثما يجدها . وبذا يدرج الحديث الشريف "إنّ من الشعر لحكمة، ضمن الحديث عن الحكمة في هذا العصر.[١٠٥]

لقد ذهب بعض الباحثين الى القول بقلة شعر الحكمة في عصر صدر الإسلام، وان اغلبه مما صدر عن شعراء مخضرمين، وأن الحكمة في شعر حسان قليلة قلتها في شعر أهل عصر، لان حسانا في الجاهلية قد اتسع وقته لارسال النصائح والحكم والنظرات التأملية والكلام في اخلاق الناس[١٠٦] .

وذكر آخرون أن سبب قلة شعر الحكمة في عصر صدر الإسلام، هو القرآن الكريم الذي شغلت حكمته الشعراء وغير الشعراء، لان القيم الروحية والخلقية أغنت الشعراء من أن يقدموا حكمهم في أشعارهم، كما انهم راحوا يتأملون آياته، فشغل فكرهم وجعل تأملهم في الكون والحياة والإنسان تأملا موجها يسعى الى غاية معلومة وهدف سام[١٠٧]. ونرى إن هذين التعليلين غير كافيين، لان الواقع الإنساني والشعري يرفضان فكرة نضوب الحكمة في شعر صدر الإسلام، لان طبيعة الأحداث الحاسمة التي مر بها العربي تفرض عليه ان يقف متأملا مستخلصا أفكاره ونظراته للحياة مما يشهده في مجتمعه وبيئته الجديدة، واذا كان للقرآن أثر في معاني الحكمة، فهو اثر كبير لا في صرف الشعراء عنها، وإنما في توجيهها وجهة موافقة لما وجهت إليه أفكار الناس وسلوكهم في الحياة، فقد جاء الدين الإسلامي بفكر وجَّه حياة العربي، وأخذ به نحو العمل الجدي النافع لمجتمعه فلم تعد الحياة غير مجدية **(ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك)**، كما أنها ليست خالدة ولا مخلّدة لاحد، وإنما **(لكل اجل كتاب)**. كما أكدت الآيات أن سنة الله في خلقه تتجلى في قدرته على الخلق والممات والبعث والنشور، والحياة الدنيا ليست فانية فناء مطلقا فلا داعى لليأس والضياع، وإنما هناك الاخرة بما تحمله من معاني الخلود والبقاء للخير حيث الخلود في الجنة، والعذاب الشديد لكل من ينحرف عن جادة الخير والصواب في نار جهنم ..

رفع المسهم

وهكذا اتجهت افكار الشعراء لتصور ما استمدوه من حكمة من القرآن الكريم. وتفاوت ذكرها بتفاوت قدرة الشاعر على فهم نظرة الإسلام الى الحياة فهذا حسان بن ثابت يستمد معناه في بعض شعره من الاية الكريمة (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (سورة الزمر الآية ٩). فيقول ذاكرا هجرة الرسول(ﷺ) :

وهل يستوي ضُلّالُ قومٍ تسفَّهوا عمى وهداةُ يهتدون بمعتدِ
لقد نزلتْ منه على أهل يثربٍ ركابُ هدى حلّت عليهم بأسعدِ
نبيٌّ يرى ما لا يرى الناسُ حولَه ويتلو كتابَ الله في كلّ مسجدِ[١٠٨]

وعمر الإنسان محدود، وأجله مقدر، لذلك يرثي حسان بن ثابت الرسول ﷺ مؤكداً الفكرة نفسها:

فلم يتركِ الله فينا بعده ذكرا ولم يعش بعده أنثى ولا ذكراً
ذلّتْ رقاب بني النجار كلّهم وكان أمراً من أمرِ الله قد قُدرا[١٠٩]

وقد أكد الشعراء هذه الفكرة، واكثروا من ذكرها في مراثيهم في عصر صدر الإسلام، فلا داعي لتكرارها هنا. إنما نكتفي بالقول بان الإسلام زاد من ذكر الحكمة في ضرب المثل[١١٠] في أشعار الشعراء لكثرة ما ورد منها في القرآن الكريم، وللحصافة التي صار عليها العقل العربي في نظرته الى الحياة الدنيا والى تصاريف أمورها . كل هذا أجرى الحكمة على لسان الشاعر واحضر أمامه صورة الأمثال والعبر.[١١١] وقد وجدنا بعض الشعراء يوقفون قصائد في أشعارهم على التأمل متمثلين بعض معاني القرآن الكريم، ونضرب لهؤلاء مثلا النابغة الجعدي في قصيدته التي بدأها بقوله:

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

ويستمر في هذه القصيدة مثنيا على الله تعالى، مستمدا من كتابه الكريم معانيه وأفكاره متأملا قدرته، وتدبيره في خلقه، ويتطرق بعد هذا إلى سوق الحكمة والموعظة، فيذكر الناس بحال الأمم البائدة التي ذكرها الله في القرآن الكريم، أو الذين عرف الناس سلطانهم وجبروتهم ثم أذلّهم الموت والفناء:

يا أيُّها الناسُ هل ترونَ إلى ... فارسَ بادتْ وخدُّها رُغما
أمسوا عبيداً يرعون شاءكُمُ ... كأنما كان ملكهم حُلما
أو سبأ الحاضرين مأرب إذ ... يبنون من دون سيله العرما
فمزّقوا في البلاد واغترفوا الـ ... هون وذاقوا البأساءَ والعدما(١١٢)

أما أبو الأسود الدؤلي فهو من الشعراء الذين عاشوا في صدر الإسلام وزمنا من العصر الأموي (توفي ٦٩هـ) عرف بكونه غزير الحكمة وأوفرها، لكثرة تجاربه وتقيده باحكام دينه في سلوكه، ولاشتغاله بالعلم والفقه (١١٣). وقد عزا الدكتور فتحي الدجني كثرة الحكمة في شعره الى روحانية الإسلام التي تعمقت في نفسه فضلا عن ملازمته للإمام علي والى كونه قاضيا أحس بمشاكل الناس عن قرب بسبب اختلاطه بهم (١١٤).

ولأبي العيال الهذلي أبيات في الحكمة نظر فيها الى الحياة نظرة شاملة، وأن فيها الغث والسمين، ويمكن إصلاح بعضه ببعض . كما انه يدعو الى عدم التسرع في الأحكام، لأن كثيراً من الظنون قد لا تصدق عند الاختبار والتمحيص . أما الرجال أو الناس عامة فانهم ليسوا سواءً، ولا تدل مظاهرهم على ما يضمرون، فقد تكون دواخل نفوسهم خيراً أكثر مما يبدو على وجوههم، وشبه هذا بالماء الذي قد يبدو رائقاً ولكن المذاق هو الحكم في صفائه أو سوء مذاقه :

وبعضُ الأمر أصلِحه ببعضٍ ... فإنّ الغثّ يحملُه السمين
ولا تعجلْ بظنك قبلَ خُبرٍ ... فعندَ الخُبرِ تنقطعُ الظنونُ
ترى بين الرجال العينُ فضلا ... وفيما أضمروا الفضلُ المبينُ
كلون الماء مشتبها وليست ... تخبِّر عن مذاقته العيون(١١٥)

رفع المسابهم

هوامش الفصل الرابع

١- ينظر تفصيل هذا في كتاب أثر القرآن في الادب العربي في القرن الأول الهجري/ د. ابتسام مرهون الصفار .
٢- العمدة ١/ ٢٨ .
٣- ديوان عبدالله بن رواحة ١٩٤ .
٤- أنظر العمدة ١/ ٥٦، جمهرة أشعار العرب ٣٦، الإسلام والشعر ٧٢ .
٥- الاصابة ٣/ ٢٠٥، شعر الدعوة ١/ ٣٥ .
٦- ديوان حسان ٩٧ .
٧- شعر الدعوة ٣٥٣ عن الاصابة ١/ ٢٦٤ .
٨- ديوان كعب ٣ فما بعدها.
٩- طبقات فحول الشعراء ١/ ١٠٤ .
١٠- فوّز : هلك .
١١- تنخل الشئ : اختاره واصطفاه .
١٢- يريد أن الحطيئة يجود شعره، ويثقفه حتى يستوي فلا يبقى منه عوج ولا تعقيد .
١٣- ديوان كعب ص٣، السيرة النبوية ٤/ ١٤٤ – فما بعدها، الاغاني ١٨/ ٦٣٦٣ (تحقيق الابياري) .
١٤- طبقات فحول الشعراء ١/ ١٠٠ .
١٥- نفسه، الاغاني ١٨/ ٦٣٦٤ (تحقيق الابياري).
١٦- شعر العقيدة ٤٢ .
١٧- النظرية النقدية ٤٨، ٦٥ .
١٨- الاستيعاب ٣/ ١٣١٥.
١٩- الشعر والشعراء ١/ ١٠٦.
٢٠- قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير وأثرها في الأدب العربي، ٣٠، فما بعدها وفيه تخريج القصيدة، وهي من ديوانه: ٢٥.
٢١- بانت: بعدت، متبول: عاشق أخذ الحب بعقله، المتيم: الذي أسقمه الحب، والمكبول: المقيد المحبوس ولم يفد: أي لم يجد من يطلقه من إسار الحب.

رفع
المسـاهم

٢٢- الأغنّ: الذي في صوته غنّة، غضيض الطرف: فاتر الطرف، غداة البين: ساعة الرحيل.

٢٣- تجلو: تظهر، العوارض: الأسنان ما بين الثنية والضرس. والظلم: ماء الأسنان، المنهل. الذي ارتوى، الراح: الخمرة، المعلول: الذي سقى مرتين .

٢٤- شجت: خلطت ومزجت، الشبم: البارد، المحنية: ما انحنى وانعطف من الوادي، وخصّ ماء المحنية لأنه يكون أصفى وأبرد.

٢٥- البيض: السحاب، واليعاليل: التي تجيء مرة بعد مرة، وقيل اليعاليل: الجبال المرتفعة والقذى: البقع في العين أو الشراب، أفرطه: ملأه.

٢٦- الخلّة: العادة، سيط: خلط، الفجع: المصيبة، الولع: الكذب.

٢٧- عرقوب: يضرب به المثل في إخلاف الموعد.

٢٨- العتاق: الكريمة: الأصل، النجيبات: الكريمات، المراسيل: جمع مرسال وهي الناقة السريعة.

٢٩- العذافرة: الناقة الصلبة العظيمة الأين: الإعياء، الارقال: نوع من السير، التبغيل: ضرب من السير يشبه سير البغال.

٣٠- نضاحة: كثيرة النضح (العرق) الذفرى: النقرة التي خلف أذن الناقة والبعير، عرضتها: همتها، الأعلام : العلامات.

٣١- الغيوب: ما غاب عنك. المفرد: الثور الوحشي الذي تأخر عنه القطيع، اللهق: الشديد البياض، الحزان: ما غلظ من الأرض. الميل في الأرض: مد النظر.

٣٢- المقلد: موضع القلادة. العبل:الضخم الممتلئ، المقيد: موضع القيد، بنات الفحل: النوق.

٣٣- غلباء: غليظة الرقبة، وجناء: عظيمة الوجنتين، علكوم: شديدة، مذكرة: تشبه الذكر من الأباعر في عظم خلقها، الدف: الجنب، قدامها ميل: يصفها بالطول.

٣٤- الأطوم: الزرافة، وقيل السلحفاة البحرية، لا يؤيسه: لا يؤثر فيه، الطلح: القراد، ضاحية المتنين: ما برز من متنها للشمس.

٣٥- الحرف: الناقة، والمهجنة: الإبل الكريمة، القوداء: الطويلة العنق الشمليل: الخفيفة.

٣٦- القراد: حشرة صغيرة تتعلق بالدواب.

٣٧- عيرانة، تشبه البعير في صلابتها، النحض: اللحم، العرض: الجانب، الزور:

رفع عبد الرحمن الهجري
المسلمون

الصدر بنات الزور: ما حول الصدر من أضلاع. يعني لم تحلب، فهي تامة الخلق.

٣٨- مذبحها: موضع نحرها، خطمها: ما يقع عليه الخطام، اللحيان: العظمان اللذان تنبت عليهما اللحية، البرطيل حجر مستطيل.

٣٩- العسيب: جريد النخل لا خوص عليه، الغارز: الضرع، تخونه: تنقصه، الأحاليل: جمع إحليل وهو مخرج اللبن من الضرع يعني أنها حائل لا تحلب، وذلك أقوى لها على السير.

٤٠- قنواء من القنا وهو احديداب الأنف، الحرتان، الأذنان.

٤١- اليسرات: القوائم الخفاف، اللاحقة: الضامرة، يصفها بأنها سريعة نشيطة.

٤٢- العجيات: جمع عجايا، وهي عصب قوائم الإبل والخيل. الزيم: المتفرق، الأكم: جمع الإكام.

٤٣- الأوب: الرجع، والقور. جمع قارة وهي الجبل الصغير، العساقيل: قطع السراب.

٤٤- مصطخد، أي تصلّى بحر الشمس، الضاحي: ما برز منه للشمس، مملول: شوي بالنار أو شوي بالرماد.

٤٥- الورق: جمع أورق وهو الأخضر إلى السواد. الجنادب: ضرب من الجراد. يركضن:يدفعن.

٤٦- العيطل: الطويل: النصف: بين الشابة والكهلة، النكد: التي لا يعيش لها ولد.

٤٧- تفري: تقطع، اللبان: الصدر: مدرع المرأة: قميصها، التراقي: عظام الصدر التي تقع عليها القلادة، الرعابيل: القطع.

٤٨- الآلة : النعش، واحد الآل وهو الخشب، وذكر الشيخ محمود محمد شاكر أنهم سموا النعش آلة، لأنهم يضمون عوداً إلى عودٍ فيحمل عليه الميت، الحدباء: الغليظة.

٤٩- الضيغم: الأسد، ضراء الأرض: ما واراك من الشجر، مخدر الأسد: غابته، عثر: اسم موضع تنسب إليه الأسود، الغيل: الشجر الملتف.

٥٠- الضرغامان: شبلا الأسد، المعفور: المطروح في التراب، الخراديل: المقطع قطعا صغيرة.

٥١- المساورة: المواثبة، القرن: المساوي في الشجاعة.

٥٢- الجو: البر الواسع، ضامزة: لم تجتر ما في فمها، يقال: ضمز البعير إذا أمسك في فيه فلم يجترها. وكل ساكت فهو ضامز، الأراجيل جمع أرجال وهو جمع رجل.

رفع المسهم

٥٣- البز: السلاح، الدرسان: جمع دريس وهو الثوب الخلق.
٥٤- زالـوا: انـتقلوا، الأنكاس جمع نكس وهو الرجل الضعيف المهين. الكشف: جمع أكشـف وهـو الـذي لا ترس له في الحرب. الميل: جمع أميل وهو الذي لا سيف معه، أو هو الذي لا يحسن الركوب، ولا يستقيم على سرج
٥٥- المعازيل جمع معزال: وهو الذي لا سلاح معه.
٥٦- شم: جمع الأشم يريد به الكرام. اللباس: ما يلبس من السلاح، نسج داود: الدروع.
٥٧- البيض: الـدروع، شكت: أدخل بعضها في بعض، وهو صفة للدروع المضاعفة النسـيج، الحلـق: جمـع حلقـة، الفقعاء: شجر ينبسط على وجه الأرض مشبه به حلق الدرع. المجدول: المحكم.
٥٨- الجمـال الزهـر: الخالصـة اللـون الكـريمة أي هم سادة، وشبههم بالجمال الزهر لاطمئـنانهم في مشـيهم، وإشراف هاماتهم، وكأنها لا تحفل بشيء. عرّد: أحجم وانهزم، التنابيل: جمع تنبال وهو القصير.
٥٩- طبعت في المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦.
٦٠- نفسه ١٧٢ وكتاب القدسي هذا مخطوط اعتمد عليه المؤلف.
٦١- انظـر السـيمياء والـتأويل ص٣٢، ومجلـة جـذور العـدد الـثاني، النادي الأدب الـثقافي بجـدة، ص٢٨٩، مقـال: مسـتويات التلقي واختلاف القراءات في النقد القديم، ابتسام مرهون الصفار ٣٠٨، فما بعدها.
٦٢- يـراجع الشـرح فـيما عرضـه الدكتور السيد إبراهيم في كتابه قصيدة بانت سعاد ص ١٦١ فما بعدها.
٦٣- كرم الحياة: العزّ والشرف.
٦٤- السمهري: الرمح، وسوالف الهندي: يريد بها جانبي الرمح.
٦٥- المشرفي: السيف، القنا: الرمح.
٦٦- التطهر من الذنوب يكون بالتوبة والعمل الصالح، وتطهر الأنصار بقتل الكفار.
٦٧- بطن خفية : موضع تكثر فيه الأسود .
٦٨- أماري : أجادل .
٦٩- خوت النجوم : لم تمطر . الطارقون : جمع طارق، وهو الضيف الذي يطرق ليلاً. والمقاري : الجفان الضخمة .

رفع المسـتهم

٧٠- الجرثومة : الأصل، يريد أنهم من أصول وأحساب راسخة لا يستطيع أحد أن ينالها بسوء .
٧١- السيب: العطاء والكرم.
٧٢- الحُجزة بالضم موضع الازار، ويريد هنا أنه لائذ به .
٧٣- الاشاجع أصول الأصابع، لأنهم يقولون للأسد عاري الاشاجع، أي شجاع، وقد يريد به الكريم المبسوط الكف وهو الأرجح . الأنف : الأبي، والأبيات في الاغاني ٢٣/ ٨٠١٧، تحقيق الابيـاري .
٧٤- وقعة صفين ٢٢١، شعر الدعوة١٥٢.
٧٥- ديوان حسان ٥٩ .
٧٦- نفسه ١٠٩ .
٧٧- نفسه ٢٩٢ .
٧٨- شعر الدعوة ٣٣ .
٧٩- الإصابة ٣/ ٤٧٣، عن شعر الدعوة ٣٤٤ .
٨٠- نفسه ٣٤٥ .
٨١- ديوان الحطيئة ٢٣٣، وانظر أنساب الاشراف ٥/ ٢٣، مع خلاف في الرواية.
٨٢- راجع تفصيل الخبر في مقالنا (الوجه الآخر للحطيئة)، مجلة الاستاذ، العدد الأول، ١٩٨٧ .
٨٣- الاغاني ٢/ ١٧٥، وقد أشير الى أن قصيدة الحطيئة المذكورة في هذه الرواية موضوعة هي وخبرها، ومع افتراض وضعها تبقى دالة على محاولة الخليفة عمر إسكات صوت الهجاء .
٨٤- الشعر والشعراء ١/ ٢٩١، وانظر كتابنا محاضرات في تاريخ النقد عند العرب ٤٨ .
٨٥- شرح المفضليات لابن الانباري، ١٤٢ .
٨٦- القرم : السيد المعظم، الهجان : الكريم النسب، السميدع : الشجاع .
٨٧- ديوان حسان ١٠٥ .
٨٨- الاصابة ١/ ٣٥٢، الاستيعاب ١/ ٢٧٥، شعر الدعوة ٤٤٤ .
٨٩- ديوان كعب ١٩١ .
٩٠- الطبقات الكبرى ٢/ ٣٢٠، شعر الدعوة ٣٩٧ .

رفع المسهم

٩١- ديوانه ٨٩، وترجمة حسان فيما سبق (الفصل الثاني) .
٩٢- راجع تحليل القصيدة في الفصل الثاني .
٩٣- البيان والتبيين ٣/ ٣٦٣، الطبقات الكبرى ٣/ ٣٣٣، وشعر الدعوة ٤٣١ .
٩٤- الاصلال : السيوف البتر .
٩٥- ديوان تميم بن مقبل ١١ فما بعدها .
٩٦- ديوانه .
٩٧- طبقات فحول الشعراء ٨، ٧١ .
٩٨- نفسه ١/ ١٨٨ .
٩٩- نفسه .
١٠٠- انظر معلقته في شرح القصائد لابن الانباري ١٩٨ فما بعدها .
١٠١- نفسه ٢٣٧ .
١٠٢- حماسة ابي تمام ٢/ ٤، ٨/ ١١ .
١٠٣- العمدة ١/ ١٢١ .
١٠٤- سنن ابن ماجة ٢/ ٣٩٥، وانظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ١/ ٤٩١.
١٠٥-الحكمة في الشعر الأموي، رسالة ماجستير ص ٢٣ لمحمد حسين ابراهيم من كلية الآداب، بغداد .
١٠٦-حسان بن ثابت لمحمد طاهر درويش ٣٢٩ .
١٠٧-الحكمة في الشعر الأموي ٢٤ .
١٠٨-ديوان حسان بن ثابت .
١٠٩-نفسه ٩٣ .
١١٠-انظر الحكمة في شعر حسان في الصفحات : ٩٢، ٩٣، ٩٥، ١٠٥، ١١١، ١١٢، ١١٨، ١٢١، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧ ... وغيرها .
١١١-الأدب العربي : محمود مصطفى ٩٨ .
١١٢- شعر النابغة الجعدي ١٠٢، وانظر تحليل الأبيات في العصر الإسلامي، ص ١٠٣ .
١١٣-شعر الحكمة في العصر الأموي ٤٦ .
١١٤-نفسه .
١١٥-شرح ديوان الهذليين ١/ ٤٣٥ .

رفع المسلم

الفصل الخامس

النثر في صدر الإسلام

١- تطور الخطابة في عصر الرسول (ﷺ)

٢- الخطابة زمن الخلفاء الراشدين

أ- خطب البيعة والخلافة والولاية.

ب- خطب الوعظ والخطب الرسمية.

ج- خطب الوفود والرسل والمفاوضات.

د- خطب الفتن والأحداث.

٣- الرســـائل

رفع
المسهم

النثر في عصر صدر الإسلام:

النثر قسيم الشعر في الأدب العربي، وتتفاوت مكانته بتفاوت الازمان والظروف.

ولقد عرف العرب في العصر الجاهلي النثر متمثلاً بالخطابة بالدرجة الأولى، وبنمط آخر من أقوال تنسب الى الكهان، أدخلت ضمن النثر الفني، لأنهم كانوا يتقصدون فيها الصنعة متمثلة بالسجع المتكلف والرمزية. وأما الخطابة فان دواعي الحياة العربية آنذاك اقتضت وجودها، بتوافر دواعي نشاطها، متمثلة بكثرة الحروب والايام التي تقتضي أن يقف رؤساء القبائل محرضين قومهم على القتال واستمراره، ذكر منها خطبة هانيء الشيباني محرضاً قومه على قتال الفرس [١].

ولما كانت الأسواق العربية مكان تجمع للقبائل، فقد كانت القبائل توفد عنها كبار قومها من الشعراء والرؤساء ممن ينوبون عنها، فكان لهؤلاء مكانتهم فيما يخطبون في تلك المحافل، ويسهمون فيما عرف بالمنافرات والمفاخرات. وقد تتم المنافرات في غير الأسواق اذا اقتضى محفل ما أن يقوم خطيب، ليعدد مآثره ومآثر قومه. وتضاف إلى هذه الأنماط من الخطب خطب الإملاك، وهي مما عرفه العرب في المحافل التي يتقدمون فيها لخطبة فتاة فيعرضون طلبهم، وينوهون بمكانة الخاطب وقومه [٢].

هذه الخطب لا تشكل مادة علمية يمكن الوقوف عليها لمعرفة سماتها الفنية، لأن معظمها مما لا يمكن الوثوق بصحته، وهو أمر جعل طه حسين ينكر معرفة العرب للنثر الفني مدعياً ان النثر وليد العقل، والشعر وليد العاطفة، وأن العرب أمة شعر، ولم تعرف النثر الا بعد اطلاعها على الفكر اليوناني [٣]. وقد رد زكي مبارك على هذا الرأي ردوداً علمية منطقية. كان أهمها ان القرآن الكريم خير دليل على معرفة العرب للنثر الفني، لأنه نزل بلغة العرب وأساليبهم، يضاف الى هذا ان نشاط الخطابة والكتابة في العصر الإسلامي دليل على معرفة العرب لهما إلا أن ظهور الإسلام، ودواعي انتشاره أعانا على تطور هذين الفنين ونشاطهما [٤].

وسنجد أن هذا التطور قد شمل الأغراض التي استخدمت فيها الخطابة

رفع المسلم

والكتابة والمعاني الواردة فيهما، كما تشمل الأساليب البيانية فيهما. لقد شهد العصر تطوراً كبيراً في اللغة النثرية وأساليب إيرادها، مما جعلها فناً قائماً بذاته يختلف كثيراً عما نقل من نصوص نثرية في العصر الجاهلي.

١ - تطور الخطابة في عصر الرسول ﷺ :

حين أذن الله ان يبعث محمداً ﷺ نبياً ليدعو قومه الى عبادة الله الواحد الأحد، وقفت قريش معارضة لهذه الدعوة فبدأت باللين أولاً، ثم بالقوة والبطش ثانياً، فكان ان عرضت على الرسول الكريم المال والجاه، فأباهما، وكانت إجابته الخالدة الموجزة المعبرة: (**والله لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر أبدا، حتى انفذه أو أهلك في طلبه**). [٥]عند ذلك يئس كفار قريش من ردع محمد ﷺ، وحاولوا أن يحولوا بينه وبين الناس، وهددوه وآذوا من تبعه، ولم يكن للرسول ﷺ إلاّ وسيلة الإقناع والإرشاد، يقنع من يراه بمبادئ الدين الإسلامي. وكان الشعر والخطابة الوسيلتين الوحيدتين اللتين يمكن للمرء أن يعبر بهما عن آرائه بين الناس. أما الشعر فقد نزه الله تعالى الرسول عنه – كما مر بنا – فلم يبق إلاّ الخطابة الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يجمع بها الناس حولهم، ليفهمهم مبادىء الدين الذي يدعو اليه. ويعرض عليهم أمره. وقد استفاد الرسولﷺ منها منذ فجر الدعوة الإسلامية حين خطب في مكة وقريش وقتذاك لم تؤمن بعد يدعوها الى دينه[٦].

وحين هاجر عليه الصلاة والسلام الى المدينة، حيث المرتع الخصب الذي انطلقت منه الدعوة الإسلامية إلى نطاق واسع كانت أول خطبة خطبها الرسول ﷺ في المدينة، في أول جمعة فيها بدأها بعد الحمد بقوله :

(أما بعد، أيها الناس فقدّموا لأنفسكم، تعلمنَّ والله، ليُصَعقَن أحدكم، ثم ليدَعَنَّ غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولن له ربُّه وليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك؟ وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك؟، فما قدمتَ لنفسك ؟ فينظُرَنَّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم...) [٧].

هكذا بدأ الرسول الكريم دعوته في المدينة موجهاً الى تعاليم الدين، واعظاً الناس

ويلاحظ في هذه الخطبة انهﷺ اتبع فيها أسلوب الترهيب واصفاً حال الإنسان يوم القيامة حيث يحشر مع أعماله التي يحاسب عليها، وهو الأسلوب نفسه الذي نجده في الآيات والسور المكية.

وفي الخطبة الثانية التي خطبها الرسولﷺ في المدينة دعا الناس فيها الى حب قراءة القرآن الكريم، فهو أحسن الحديث، وذكره وقراءته ذكر لله تعالى الخالق سبحانه الذي أمنوا به وعبدوه. يقول :

(إنّ أحسن الحديث كتاب الله - تبارك وتعالى -، قد أفلحَ من زيَّنه اللهُ في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس. انه أحسن الحديث، وأبلَغه. أحبُّوا ما أحبَّ الله، أحبُّوا الله من كل قلوبكم، ولا تملُّوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم...)[٨]

ولما كان ذكر الموت مدعاة لإثارة الخشية في النفوس المؤمنة، فان الرسولﷺ كان يخطب في الناس ليحرضهم على الثبات على الايمان، والعمل الصالح، وتذكر الموت الذي لابد منه والحساب الذي يواجهه الانسان يوم القيامة. خطب رسول اللهﷺ فقال :

(أيها الناس كأنَّ الموتَ فيها على غيرنا قد كُتِبَ، وكأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا قد وَجَب، وكأنَّ الذين نشيِّع من الأموات سفرٌ عما قليل راجعون، نبوؤهم أجداثهم ونأكل من تراثهم كأنا مخلدون بعدهم، قد نسينا كلَّ واعظة، وأمّنا كلَّ جائحة. طوبى لمن شغله عيبُه عن عيب غيرِه، وأنفقَ من مال كسبه من غيرِ معصية. ورحم أهل الدين والمسكنة، وخالط أهلَ الفكرِ والحكمة.)[٩]

ولم تكن مهمة الخطابة الوعظ والإرشاد فحسب، بل كانت وسيلة لتبليغ المسلمين الأوامر والمبادئ الإسلامية التي ينزل بها الوحي على الرسولﷺ، فيعرضها الرسول ﷺ على المسلمين فاذا نزلت الآيات الكريمة، وفيها أمر أو واجب يقتضي التزام المسلمين به، جمعهم الرسول ﷺ وخطب فيهم. ففي السنة الثانية للهجرة أمر الرسول ﷺ بإخراج زكاة الفطر. وقيل إنه خطب الناس قبل عيد الفطر بيوم أو يومين، وأمرهم بذلك[١٠].. وخطب مرة أخرى وبين للناس أن الله قد افترض عليهم

رفع المسهم

الجمعـة وانه من تركها وله إمام فلا جمع الله له شمله، ولا بارك له في أمره، ولا حج، ولا صلاة، ولا زكاة له.. [١١]

وقد تؤدي الخطبة ما يؤديه البيان الرسمي من إعلان أمر يشمل الأمة، أو يشمل جماعة كبيرة، وليس أدلّ على هذا من خطبته عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة حين صدق الله وعده بنصر المؤمنين، وقف الرسول ﷺ على باب الكعبة ثم قال :

(لا اله الا الله، وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحـده. الا كـل مأثـرة أو دمٍ أو مالٍ يُدّعى، فهو تحت قدميَّ هاتين إلاّ سدانة البيت، وسـقاية الحـاج ... الـناس مـن آدم، وآدم خلـق مـن تـراب. ثم تلا "يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ...)[١٢]

واطمأنـت نفـوس الـناس حـين سمعـوا خطبة الرسول (ﷺ) وما ذكره من مثل سـامية فلما سألهم : يامعشر قريش، ما ترون اني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً، أخٌ كريم وابـن اخ كـريم. قـال : اذهبوا فأنتم الطلقاء[١٣]. وقيل : انه قال لهم : أقول لكم كما قال اخي يوسف ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢] [١٤].

وإذا كـنا قـد قلـنا إن هـذه الخطـبة أدت ما يؤديه البيان الرسمي، فلأنها أعلنت العفـو عـن المشـركين، وأسقطت ما يمكن أن يحاسبوا عليه، إلا أنها تختلف عن البيان بكونهـا تخاطـب العقـول والقلـوب، فـالحوار الـذي تخلـلها يدخل الطمأنينة في نفس السـامعين، ولا يكـتفي بـإعلان العفو. وهو خطاب يحتاج إليه مشركو قريش، ليعالج الرسولﷺ به ما كان من ضغائن وعداوات بسبب حربهم لله ولرسوله.

وفي السـنة العاشـرة لـلهجرة خطـب الرسولﷺ خطبته المشهوره بخطبة الوداع، وفـيها بـيَّن للـناس مناسـكهم، وأعلمهم سنن حجهم، ولخص لهم مبادئ دينهم، وما عليهم من واجبات وحقوق، وأنه عليه الصلاة والسلام شعر بدنو اجله، وقرب نهايته فـرأى أن يوصـي الناس فلم يجد أحسن من موسم الحج موسماً لتجمع اكبر عدد من المسـلمين. وقـد كـرر الرسـولﷺ في خطبـته عـبارة بين فقرة وأخرى، ألا هل بلغت، فيقول الناس: نعم، فيقول : اللهم اشهد [١٥].

رفع المساهم

واستحدث الرسولﷺ نوعاً من الخطب، وان لم يصل الينا منها إلا القليل، وهي خطب التولية والتأمير، وذلك انه أمَّر أسامة بن زيد بن حارثة على الجيش الذي بعثه إلى الروم، قائلاً له: (**سر الى مقتل أبيك، فاوطئهم الخيل فقد وليتك على هذا الجيش، وان أظفرك الله بالعدو، فأقلِل اللبثَ، وبثَّ العيون، وقدِّم الطلائع**). وقيل انه لم يبق احد في وجوه المهاجرين والأنصار إلا كان في ذلك الجيش، فتكلم قوم، وقالوا: يستعمل هذا الغلام على جلّة المهاجرين والأنصار، فغضب الرسولﷺ، وخرج الى المسجد، وصعد المنبر، وعاتب الناس على مقالتهم قائلاً :

(**أيها الناس : ما مقالةٌ بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ لئن طعنتم في تأميري أسامة، فقد طعنتم في تأميري أباه من قبله. وأيم الله، إن كان لخليقا بالإمارة، وابنه من بعده لخليق بها، وانهما لمن احب الناس الي، فاستوصوا به خيراً، فانه من خياركم**). ثم نزل ودخل بيته، وجاء المسلمون يودعونه، ويمضون الى عسكر أسامة[١٦].

إن هذه النماذج من خطب الرسولﷺ تؤكد نشاط الخطابة في العصر الإسلامي ومواكبتها للأحداث، وملاءمتها لما تقتضيه الظروف من مواجهة القائد لأمته، ولم يكن سائر العرب بمنأى عن الدعوة الإسلامية. فقد كان الرسولﷺ يبعث رجالاً من المسلمين الى القبائل العربية يدعون الناس إلى الإسلام، أو يؤمِّرُ أحد رجال الوفود الوافدين عليه، فيكون فقيه القوم ومعلمهم ومبلغهم مبادئ الإسلام، وهو أمر ذكرته المصادر القديمة، لكنها لم تذكر نماذج لخطب هؤلاء الأمراء. أما وفود القبائل التي كانت تقدم على الرسولﷺ فقد كان خطباؤهم يخطبون أمامه، كما كان شعراؤه ينشدون الشعر مفاخرين بأمجاد قومهم وقبيلتهم. وقد ينتدب الرسول ﷺ أحد رجاله ليرد على خطبة خطيب الوفد كما حدث مع وفد بني تميم حين وفدوا على النبيﷺ وطلبوا منه أن ينادي خطيبه ليخطب فيهم، وشاعره لينشدهم شعراً. وكان خطيب وفدهم عطارد بن حاجب بن زرارة الذي افتخر بقومه بأنهم اكثر الناس عدداً، وأحسنهم وجوهاً، وان منهم رؤوس الناس وأشرافها، وان من يفاخرهم عليه أن يعدد مثل ما ذكر من المفاخر. ولم يفاخر خطيب المسلمين تميماً بمثل ما فاخر خطيبهم، وانما كانت خطبته منسجمة مع الدعوة الإسلامية إذ أنه حمد الله الذي خلق السموات

رفع المسيهم

والأرض، وقضى فيهن أمره، وانه قد اختار من خيرة خلقه رسولاً اصطفاه على العالمين. ثم ذكر كيف استجاب المهاجرون لدعوة الرسولﷺ وجندوا انفسهم لخدمة الرسالة السماوية، يقاتلون في سبيل الله حتى يؤمن الناس. فمن آمن منع الرسول ﷺ ماله ودمه وأهله، ومن كفر جاهدوه في الله وكان قتله يسيراً.

وهكذا خرج خطيب المسلمين بالخطابة من إطارها القبلي إلى أفق الإسلام الواسع، فلا فخر بالأنساب والأحساب، وإنما فخر بالالتفاف حول النبيﷺ، والدفاع عنه، والإيمان بمبادئه.

وإذا كان عام الوفود هو العام التاسع بعد الهجرة، فلا بد ان تكون هناك خطب قد قيلت، خطب الرسول ﷺ، أو أحد أصحابه، وخطب الوافدين معلنين إسلامهم وطاعتهم للرسولﷺ.

رفع المسـاهم

خطبة النبي ﷺ في حجّة الوداع

قال ﷺ:

(الحمـد لله، نحمَـدُه ونسـتعينه، ونستَغْفِرُهُ، ونَـتُوبُ إلـيه؛ ونَعُوذُ بالله من شُرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. مَنْ يهدِ اللهُ فلا مُضِلّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له.

واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، واستفْتحُ بالذي هو خيرٌ.

أمَّا بعـد؛ أيها الناس: اسمعوا مني أبين لكم. فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيّها الناس: إنَّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم إلى أن تلْقَوْا ربّكم كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

الا هل بلّغت؟ اللهم اشهد!

فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدّها إلى الذي ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع؛ وإنّ دمـاءَ الجاهلـية موضـوعة؛ وإنّ أول دم نـبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عـبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السّدانة والسقاية. والعَمْدُ قَوَدٌ، وشبه العَمْد ما قُتل بالعصا والحجر، وفيه مئة بعير، فمَن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيهـا الـناس: إن الشيطان قد يَئِس أن يُعبدَ في أرضكُمْ هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيهـا الـناس: إن النسـيء زيـادة في الكفـر يُضَـلُّ بـه الذين كفروا، يحلونه عاماً، ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عِدَّة ما حرّم الله، فيحلوا ما حرم الله.

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرضَ. وإنَّ عِدةَ الشهور عـند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرضَ. منها أربعة حرم: ثلاثـة متوالـيات، وواحـد فـرد. ذو القعـدة، وذو الحجـة، والمحرم، ورجَبُ الذي بين جمادى وشعبان.

الا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

رفع المسهم

أيها الناس: إنّ لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق. لكم عليهن ألا يُوطِئْنَ فُرشَكم غيرَكم، وألا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة. فإن فعلن، فإنّ الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهنّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضربا غير مبرّح. فإن انتهين وأطعنكم، فعليكم رزقهنّ، وكسوتُهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلاّ عن طيب نفس منه.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

فلا ترجعُنّ بعدي كفاراً يضرب بعضُكم رقابَ بعض، فإني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم. إنّ الله عليم خبير. وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصيةٌ في أكثر من الثلث. والولد للفراش، وللعاهر الحجرُ. مَنْ ادّعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبلُ منه صرف ولا عدلٌ).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رفع عبد الرحمن المسيّبي

سمات خطب الرسول ﷺ

من هنا يتبين لنا ان الخطابة نشطت نشاطاً كبيراً منذ فجر الدعوة الإسلامية، وأن الرسول ﷺ أبلغ الخطباء قد استخدمها وسيلة لتبليغ مبادىء الدين الإسلامي وفرض التعاليم والاوامر الإسلامية، وترسيخ المعاني التي جاء بها القرآن الكريم بأسلوب بليغ فصيح مؤثر في النفوس، مصاحبٍ لأحداث الدعوة الإسلامية. وقد وصف عليه الصلاة والسلام نفسه بأنه أفصح العرب:**(أنا أفصح العرب بيد أني من قريش)**(١٧).

ووصف ابن الأثير بلاغته عليه الصلاة والسلام بقوله: كان أفصح العرب لساناً، وأوضحهم بياناً، وأعذبهم نطقا، وأشدهم لفظاً، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طرق الصواب.(١٨) إنّ دراسة خطب الرسول ﷺ توصلنا إلى ما يأتي :

- قلة الخطب الكاملة التي وصلت الينا عن الرسولﷺ، وهي قليلة جداً اذا قيست بالمدة الطويلة التي قضاها الرسول ﷺ بين المسلمين، فهل يعقل انه لم يخطب الا اثنتي عشرة خطبة، هي التي وصلت إلينا ؟

- لقد كان من الطبيعي أن يخطب الرسولﷺ في جماعته المسلمة، يفقههم في الدين، ويحثهم على الصبر لقتال الأعداء، خاصة في غزواته. فأين هذه الخطب؟ لابدَّ من القول إن الرسولﷺ قد خطب خطباً كثيرة إلا أنها ضاعت، ولم تصل الينا، يقول زكي مبارك: (بل اني لأذهب أبعد من ذلك فاقرر بان الحركة الأدبية، والسياسية والاجتماعية في عهد النبي لم تصور إلى الآن بصورتها الحقيقية. فهذا رجل غيَّر أمة كاملة في عشرين عاماً، ولقيت دعوته آلاف المصاعب. أفيمكن حقاً الاقتناع بأنه لم يقل اكثر من عشر خطب، وأن أنصاره لم يقولوا في الخطابة والرسائل ما نقله عنهم الطبري وغيره من المؤرخين)(١٩) ؟.

- أما سبب ضياع خطب الرسولﷺ، وعدم وصولها إلينا، فيعلله شوقي ضيف بقوله : (وأكبر الظن أن خطبه أصابها ما أصاب خطب الجاهليين، فإنها لم تدون لحينها، وبعد العهد بين عصرها وعصر تدوينها، ومع ذلك فقد احتفظت ذاكرة الرواة ببقايا منها تحمل خصائصها)(٢٠).

- ويمكننا أن نضيف سبباً مهماً لقلة وصول خطبه عليه الصلاة والسلام إلينا كاملة وهو إن معظم خطبه نقلت في كتب الأحاديث على انها أقوال نقلت عنه ﷺ(٢١). ولم تنقل هذه الكتب خطباً كاملة، وانما اوردت جملاً وعبارات وزعتها كلاً في بابها، (٢٢) ونقل البعض الآخر في كتب الامثال حين اختيرت من أقوالهﷺ جمل جرت مجرى الامثال (٢٣). على حين نجد ان الصوفية في كتبهم نقلوا من أقوال الرسول ﷺ وخطبه ما يتعلق بالزهد والموعظة (٢٤).

لقد وصف أبو سعيد الخدري خطبة للرسول ﷺ خطبها يوماً بعد صلاة العصر إلى المغرب وهذا يعني أنها كانت طويلة جداً إلا أنه قال: بأنه حفظها من حفظها، ونسيها من نسيها. وكان فيما قال: إنّ الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون (٢٠أ).

- اتخذت الخطابة العربية في صدر الإسلام ممثلة بخطب الرسول ﷺ سمة خاصة احتذى حذوها الخطباء فيما بعد، وهي افتتاحها بالتحميد والتمجيد لذات الله سبحانه وتعالى. وأول خطبة ورد فيها التحميد كاملاً خطبته التي خطبها في المدينة. أما ما قبلها فاكتفى الرواة بقولهم: قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه. ولعل سبب تركهم لذكر التحميد أنه صار فيما بعد سنة نبوية، أما التحميد الوارد في خطبة ﷺ فهو:

أن الحمد لله أحمده، وأستعينه، نعوذ بالله من شرور انفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا اله الا الله، وحده لا شريك له) (٢٦).

وهو تحميد مستمد من القرآن الكريم من سورة الفاتحة. وأما قولهﷺ: من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، فإنه اقتباس من الآية (٣٣) من سورة الرعد. وكذا الشهادة التي هي أساس إيمان المؤمن وردت في القران الكريم أكثر من مرة (٢٧). وقولهﷺ: وحده لا شريك له هو من الآية(١٦٢) من سورة الأعراف وقد تكرر هذا التحميد في خطبة الوداع مع تغيير طفيف بالحديث بضمير الجماعة بدلاً من ضمير المتكلم: الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونعوذ بالله. كما أضاف ﷺ عبارة ونتوب

رفع المسهم

إليه بعد عبارة ونستعينه. وهناك عبارة قرآنية وردت في خطبه عليه الصلاة والسلام وهي ما ختم به بعض خطبه[٢٨] بقوله: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ ﴾ [النساء:٣٦]. وهو من الآية (٣٦) من سورة النساء وقوله (ﷺ) : واتقوه حق تقاته عبارة قرآينة ايضاً من قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته**﴾ سورة عمران (١٠٢). وهي عبارات اصبحت مكررة على ألسنة الخطباء فيما بعد.

وقد ذكر ابن قتيبة بأنه تتبع اكثر خطبه (ﷺ) فوجد أوائلها: الحمد لله نحمده، ونتوكل عليه، ونستغفره، ونتوب اليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له)[٢٩]. وقال ايضاً ووجدت في بعضها : أوصيكم عباد الله بتقوى الله، واحثكم على طاعته. وهي العبارة التي أضيفت إلى التحميد في خطبة الوداع مع عبارة أخرى تفيد الاستفتاح بالله سبحانه وتعالى: أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير. ووازن بين خطبه عليه الصلاة والسلام العامة وخطب العيد فقال (وجدت كل خطبة مفتاحها الحمد إلاّ خطبة العيد فإنّ مفتاحها التكبير)[٣٠].

- أما تزيين خطبهﷺ بالقرآن الكريم، فذلك أمر طبيعي، فاما ان تكون عباراته أساساً من نص القرآن الكريم، أو يتمثل بالآيات الكريمة. وقد احتذى الخطباء بعده حذوه فوشحوا خطبهم بآي من القرآن الكريم، فسموا الخطبة التي لم توشح بالقرآن، وتزين بالصلاة على النبي بالشوهاء[٣١]. وسميت خطبة زياد بن أبيه فيما بعد بالبتراء. لأنه لم يفتتحها بالحمد والتمجيد[٣٢]. ويروي الجاحظ أن أعرابيا خطب، فلما أعجله بعض الأمر عن التصدير والتحميد والاستفتاح بالتحميد قال: أما بعد، بغير ملالة لذكر الله، ولا إيثار غيره عليه، فانا نقول كذا، وكذا. فراراً من ان تكون خطبته بتراء او شوهاء[٣٣].

- ومن سمات خطب الرسولﷺ العبارة البليغة الفصيحة، والألفاظ السهلة المونقة، البعيدة عن الغرابة والثقل، ولا عجب في ذلك، فقد كانﷺ، أفصح العرب،

المسهم

لقد قال عليه السلام: أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً،وكلامه بعد القرآن الكريم بلاغة وجمالاً. ومن الطبيعي أن يخلو كلامه من التكلف والصنعة، لأنه ﷺ نهى عن التشادق، وهو التكلف في الحديث والخطابة بقوله : (إياي والتشادق) كما نهى عن التفيهق، وهو التكلف باظهار القول وادعاء البلاغة : (ابغضكم اليّ الثرثارون المتفيهقون [٣٤]).

- ويلاحظ أن خطب الرسول ﷺ لم يرد فيها السجع إلا عفوياً، وغير متكلف يتسق في عبارتين، ثم تتغير السجعة إلى ترسل، وقد تأتي بعدها عبارتان فيها سجع مثل قوله : كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ... نبوؤهم أجداثهم، ونأكل من تراثهم، كأنّا مخلدون بعدهم ...

وقد تحل الفاصلة بدل السجعة مثل قولهﷺ في الخطبة السابقة : قد نسينا كل واعظة، وأمِنا كل جائحة. طوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره، وأنفق من مال كسبه من غير معصية. فالفواصل هنا تتسم بالإيقاع متمثلا في واعظة، وجائحة، وفي الإيقاع الهادىء الذي بدأت به عبارة طوبى ...

- ولما كانت خطب الرسولﷺ تقصد بالدرجة الأولى إلى التأثير في نفوس السامعين، ليرتدعوا عن غيهم، ويلتزموا بالدين الإسلامي، فإن الرسولﷺ وشح خطبه بما يؤكد كلامه. ففي اول جمعة خطب فيها المسلمين في المدينة ورد التوكيد بعد النداء (أيها الناس) الذي يشد اليه الاسماع بقولهﷺ: فقدموا لأنفسكم تعلمن، والله، ليصعقن احدكم، ثم ليدعن غنمه. فالتوكيد هنا بتكرار نون التوكيد في تعلمن ويصعقن، ويدعن، مع اقتران الفعلين السابقين بلام التوكيد، وتوشيح الجملة بالقسم باسم الجلالة الذي يزيد الحديث ترهيبا وتخويفا. ويترك تكرار النون وقعاً مهيباً في النفس يعضد الصورة الرهيبة التي يخوف بها النبي الناس من المعصية.

ومن أنواع التكرار الوارد في خطب الرسول ﷺ تكرار الفعل كقوله ﷺ أحبوا ما أحب الله، أحبّوا الله من كل قلوبكم، فتكرار الفعل (أحبوا) ثلاث مرات مقترناً بلفظ الجلالة، لترسيخ محبة العمل الصالح الذي يحبه الله سبحانه وتعالى.

رفع المسبهم

وتكررت جملة واحدة في خطبة الوداع وردت على صيغة سؤال: ألا هل بلغت؟ وهو استفهام تقريري لم يحتج فيه النبي ﷺ أن يسمع جواب الناس الذين احتشدوا لسماع خطبته، فهو عليه الصلاة والسلام يكرر بعد هذا الاستفهام عبارة: اللهم اشهد. وقد ورد هذا التكرار بعد كل فقرة ينتهي فيها الرسول ﷺ من بيان حكم من الأحكام التي يوصي بها المسلمين باتباعها، فيحقق التكرار هدفين مهمين: الأول شد انتباه الناس إلى الفقرة أو الفكرة الأخرى التي تلي الفكرة التي انتهى منها، كما منح التكرار دفعاً إيمانياً لا بد أن يرسخ في نفوس المسلمين، بأن كل ما يسمعونه في الخطبة هو أمر من أوامر الله تعالى، وإنه جزء من الرسالة السماوية التي كرس لها الرسول ﷺ حياته لأدائها.

- ورود الاستفهام الذي يراد به الترهيب والتخويف أيضاً في الخطبة السابقة بقوله ﷺ: ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان، ولا صاحب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ؟ وأتيتك مالاً وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟.

- وتبرز سمة اخرى في خطب الرسولﷺ والخطبة السابقة نفسها، وهي ورود الصورة الفنية الرائعة دون اللجوء الى التشبيه أو التمثيل. فبعد الاستفهام الذي أثار الهيبة في نفوس السامعين، وبعد التوكيد الذي يرسخ معنى يوم القيامة والحساب، يورد الرسول ﷺ جواباً من خلال صورة ختم بها خطبته (فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه، فلا يرى غير جهنم) [٣٥].وهي صورة للحيرة لا يملك القارئ إلا أن يتابع الصورة الحركية يمينا وشمالاً.

- ومن سمات خطب الرسولﷺ البليغة وجود المزاوجة في المعاني فيورد عليه الصلاة والسلام عبارتين تؤديان المعنى نفسه كقوله حاثاً على تعلم القرآن وقراءته :

(قد افلح من زينه الله في قلبه)، والمعنى هو نفسه الذي تؤديه عبارة (أدخله في الإسلام بعد الكفر)، لأن من زين الله في قلبه حب القرآن معناه أنه آمن، وخرج من الكفر. ولكن تكرار المعنى بهاتين العبارتين له وقع جميل في النفس، وتأثير كبير.

ونلاحظ في افتتاحية خطبة الوداع أنه عليه الصلاة والسلام قد بدأها بمقدمة

رفع المسهم

وجيزة تختلف عن باقي خطبه، وذلك أنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا.

فهذه المقدمة تنبه الناس، وتستثيرهم للاستماع ليس لأمر هام فحسب، بل لما ذكره عليه الصلاة والسلام من توقعه أن يكون لقاءه بهم آخر لقاء. فهل بعد هذا التوقع من مدعاة لإثارة الانتباه؟ (سوف يصغي الناس بكل طاقة السمع فيهم. ولولا هذا، لولا أنه لفت الأنظار إلى معنى الرحيل من هذه الدنيا لكان من الممكن أن تقل نسبة الانتباه).[٣٦]

٢- الخطابة زمن الخلفاء الراشدين :

يمكن أن تدرَس الخطابة في زمن الخلفاء الراشدين من خلال المحاور الاتية :-

أ- خطب البيعة والخلافة والولاية.

ب- خطب الوعظ والخطب الرسمية.

ج- خطب الوفود والرسل والمفاوضات.

د- خطب الاحـــداث.

وهي محاور مرت بنا في خطب الرسولﷺ، ولم يستجد منها إلا خطب البيعة.

أ- خطب البيعة والخلافة والولاية :

من خطب البيعة والخلافة ما ذكرته المصادر القديمة من اجتماع المسلمين في سقيفة بني ساعدة، وكيف وقف خطيب كل جماعة ترشح صاحبها للخلافة معتمداً على حجج مقنعة منطلقة من مبادئ الإسلام، بان مرشحه قدم خدمات للإسلام، وان الرسولﷺ مات وهو راضٍ عنه. حتى إذا انتهى الأمر بإعلان خلافة أبي بكر ﷺ ظهر لأول مرة نوع من الخطب صار من مراسيم إعلان خلافة أي خليفة في الدولة الإسلامية، ولكن مادتها اختلفت باختلاف شخصية الخليفة، وظروفه وظروف الأمة. وقف أبو بكر خطيبا فقال بعد ان حمد الله وشكره :

(أيها الناس، إني قد وُليتُ عليكم، ولستُ بخيرِكم، فإنْ رأيتموني على حق

فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. الا إن أقواكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحقَّ منه. أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم(٣٦).

وخطب الخليفة عمر ﷺ بعد توليه الخلافة بان دعا الله أن يوفقه ويهديه إلى الحكم العادل بين الرعية (٣٧)، وكذلك كانت خطبة الخليفة عثمان بن عفان إذ، عاهد الناس على الحكم العادل، واتباع منهج القرآن والسنة النبوية (٣٨).

أما خطبة الإمام علي، فقد اختلفت عن سابقاتها نظراً للأحداث الجسمية التي هزت المجتمع العربي الإسلامي بمقتل الخليفة عثمان، واضطراب الأمر في المدينة والأمصار الإسلامية. لذلك لم يكتف بمعاهدة الناس على الحكم العادل، وإنما بدأ بتقريعهم لانغمارهم في الفتنة، وخوضهم غمارها قائلاً :

إن الله قد داوى هذه الأمة بدوائين السيف والسوط، فلا هوادة عند الامام فيهما. استتروا في بيوتكم، وأصلحوا فيما بينكم، والتوبة من ورائكم.. ثم يقول: انظروا فإن أنكرتم فأنكروا، وإن عرفتم فآزروا. حق وباطل، ولكل أهل(٣٩).

وتضاف الى خطب البيعة خطب الولاية، ذلك أن الولاة إذا قدموا على المدينة التي ولوا عليها يقف الواحد منهم خطيباً، ليبين نهجه في حكمهم، أو نهج الخليفة الذي ولاّه. فسعيد بن العاص خطب في الناس سنة ٣١هـ في الكوفة بعد أن عزل الخليفة عثمان واليها السابق لما ارجفوا الناس بسيرته، واتهموه بشرب الخمر، فقال:

(والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره، ولكنيّ لم أجدْ بُدّاً إذا أمرت أن أئتمر. الا ان الفتنة قد اضلعت خطمها وعينها، والله لأضربن وجهها حتى اقمعها أو تعينوني، واني لرائد نفسي اليوم) (٤٠). ثم نزل.

ويلاحظ في خطب البيعة أنها اتسمت بالقصر والبلاغة، وتواصلها مع الروح الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف الذي يأمر بالعدل واقامته في الرعية. وقد وصف الجاحظ الخلفاء الراشدين، بالخطباء وعدَّهم من ضمن الخطباء البلغاء حين قال : كان

أبو بكر خطيبا وكان عمر خطيبا، وكان عثمان خطيبا، وكان علي أخطبهم [٤١].

ومع ذلك فان خطبة الخليفة أبى بكر ﷺ لم يرد فيها لفظ قرآني الا ما ختم به خطبته وهو قوله (أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم). أما خطبة عمر بن الخطاب ﷺ فليس فيها ألا لفظ القرآن حين أوصى الناس بقراءته. وأما خطبة عثمان ﷺ حين بايعه أهل الشورى فإنه استمد موعظته من القرآن الكريم بقوله (إلا وان الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور). فالعبارة الأخيرة مقتطعة من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان:٣٣]. ثم أوصاهم بالعمل الصالح متمثلاً بآية قرآنية هي ٤٥ من سورة الكهف ختم بها خطبته.

وأما خطبة الإمام علي فقد وردت فيها الفاظ الجنة والنار، والكتاب والسنة، وآثار النبوة والحق والباطل متمثلاً بالآية الكريمة عفا الله عما سلف (المائدة ٩٥)

(وقد كانت لكم أمور ملتم علي فيها ميلة لم تكونوا عندي فيها بمحمودين ولا مصيبين. اما اني لو أشاء لقلت عفا الله عما سلف)[٤٢].

أما وصايا الخلفاء لقادة الجيش حين يعقدون لهم الامارة، فقد اتسمت في هذا العصر بالتزامها بمبادئ الإسلام من خلال ما يوصي به الخليفة قائده، وقد يتمثلون بآيات من الذكر الحكيم لتوكيد الامر الذي يريدون تنفيذه مثل وصية الخليفة ابي بكر للجيش الذي بعثه الى الشام التي يقول فيها :

اذكر الله عند كل مصعد، ومهبط، ولا تقتلوا امرأة ولا صبياً صغيراً ولا شيخاً كبيراً، ولا تقعروا نخلاً، ولا تحرقوها.. (ولينصرن الله من ينصره، ان الله لقوي عزيز)[٤٣]. والعبارة الاخيرة من سورة الحج الآية (٤٠) ثم رفع يده الى السماء وبعد ان استقبل القبلة قال: اللهم انك خلقتنا ولم نك شيئاً مذكورا، ثم بعثت الينا رسولك محمداً بشيراً ونذيراً، فهديتنا به، وكنا ضُلالاً، وحبّبت الينا الإيمان وكنا كفّاراً، وقويتنا به

رفع المسهم

وكـنّا ضعافا، وجمعتنا به وكنا اشتاتاً، فأمرتنا ان نقاتل المشركين حتى يقولوا لا إله إلا الله، أو يعطـوا الجـزية عن يد وهم صاغرون)(٤٠) والعبارة الأخيرة من سورة التوبة الآية (٢٩).

كمـا كـان الخلفـاء يوصـون الأمـراء والولاة الذين يبعثونهم الى الأمصار عمالاً للصدقات[٤٤] بوصايا لم يصل إلينا منها شيء.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عند عقد الالوية :

باسـم الله وبـالله، وعـلى عـونِ الله، امضـوا بتأيـيد الله، وبلـزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفَر بالله، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقـاء، ولا تُمـثّلوا عـند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرِما ولا امرأة ولا ولـيدا، وتوقّوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شن الغارات، وابشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم، وذلك هو الفوز العظيم[٤٥].

ب- خطب الوعظ والخطب الرسمية :

مـن الطبـيعي أن تـندرج كـثير مـن خطـب الخلفـاء الراشدين، والصحابة ضمن الخطـب الوعظـية، لأنهـم كانوا يعظون الناس في كل موقف يخطبون فيه سواء كانت خطبـاً رسمـية، أو خطـب تولـية وبـيعة، أو خطباً إثر حدث من الأحداث، لان هذه الخطـب جمـيعا لابـد أن تـنطلق من مفاهيم الإسلام لتؤثر في النفوس. وكلما ركست الأمة بالفتنة والاضطراب احتاجت الى الموعظة والتذكير، وما ذلك الا لتنبيه المسلمين عما هم فيه، ولئلا يخوضوا في الفتنة والاضطراب. يقول الإمام علي :

(عبادَ الله الموتُ ليس منه مفرّ، إن أقمتم له أخذكم، وإنْ هربتمْ منه أدرككَم. ألا وإنّ القبرَ روضةٌ من رياض الجنة، او حفرةٌ من حفر النار. ألا وإن وراءه (يوماً يجعل الولـدان شـيبا) و (تذهـل كـل مرضـعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وتـرى الـناس سـكارى، ومـا هم بسكارى ولكن عذاب الله الشديد)، ألا وإن وراء ذلـك نـارٌ حرُّها شديد، وقعرُها بعيد، ليس لله فيه رحمة. فارتفعت أصوات من حوله بالبكاء. فقال إلا إن وراءها جنة (كعرض السموات والأرض، أعدت للمتقين)[٤٣].

لقد اعتمدت هذه الخطبة على الجمل القصار الموجزة المؤثرة في النفس من خلال انسجام إيقاع السجع مع معناها. يظهر هذا في أخذكم، وأدرككم. ومن خلال التنقل السريع بين نتيجتين تنتظران الإنسان يوم القيامة رسمهما بصورتين؛ روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار..

ويزيد الخطبة قوة وتأثيراً تمثلها بآية من القرآن الكريم (سورة الحج الآية ٢) تصور الموقف الرهيب الذي يقفه الإنسان يوم القيامة، وآية من سورة ال عمران في وصف الجنة الآية ١٣٣.

والخطب الرسمية تتمثل بخطب يوم الجمعة والعيدين. ويجب في خطبة يوم الجمعة أن يحمد الخطيب الله تعالى، ويصلي على النبي، وخطبة الجمعة خطبتان. ينبغي أن يقرأ الخطيب في الأولى شيئاً من القرآن. وسنّتها أن يقف على المنبر، أو موضع عال، وان يسلم على الناس إذا اقبل عليهم، وأن يعتمد على قوس أو عصا، وأن يقصر الخطبة عملاً بقول الرسول ﷺ: (اطيلوا الصلاة، واقصروا الخطبة) (٤٧)، وتقترن فيها الحمدلة بالشهادة.

وخطبة العيد خطبتان ايضاً يستفتح الخطيب الاولى بتسع تكبيرات، والثانية بسبع تكبيرات. وذكر ابن قتيبة ان كل خطبة مفتاحها الحمد إلاّ خطبة العيد فإن أغلب مفتاحها التكبير (٤٨).

ويذكر الجاحظ انهم كانوا يستحسنون ان يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع (٤٩).

جـ- خطب الوفود والرسل والمفاوضات :

ذكرنا من قبل خطبة خطيب وفد بني تميم، ورد خطيب المسلمين عليه زمن الرسول (ﷺ). وقد ذكر أن وفوداً قدمت على الخليفة عمر بن الخطاب، وقام رؤساؤهم يخطبون بين يديه فقام هلال بن وكيع، والاحنف بن قيس، وزيد بن جبلة فقال هلال بن وكيع :

رفع المسلم

(يا أمير المؤمنين : إنا لباب مَنْ خلفنا من قومنا، وعزةُ من ورائنا من أهل مصرنا، وانك ان تصرفنا بالزيادة في أعطياتنا، والفرائض لعيالاتنا، يزد ذلك الشريف منا تأميلا، وتكن لذوي الأحساب أباً وصولا).(٥٠)

وقام الخطباء الآخرون، ولم يذكروا في خطبهم إلاّ حاجتهم الى المال وزيادة اعطياتهم.

ومن خطب الوفود خطب المسلمين أمام كسرى أو قادته، فقد ذكر أن رستم قائد جيش الفرس بعث الى سعد بن أبي وقاص: أن ابعث الينا رجلا نكلمه، ويكلمنا، فبعث إليه ربعي بن عامر، فلما انتهى إليه. قال له الترجمان: ما جاء بكم؟

فقام ربعي خطيبا وذكر في خطبته: **(أن الله أرسلَ رسولَه رحمةً للخلق، يهديهم سواء السبيل، وأنهم قد قدموا لنشر هذا الدين، فمن قبله منهم تركوه، ومن أبى قاتلوه ابداً حتى (نفضي الى موعود الله). وقيل إن الترجمان سأله : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي)**(٥١).

ومنها خطب المسلمين أمام قيصر ملك الروم، وفي كل هذه الخطب تلحظ قوة الخطيب، ومقارعته العدو باللسن والبيان كمقارعته بالسيوف، مما يزيد من مهابة جيش المسلمين من جهة، ويوضح لكسرى او لقيصر معنى الجهاد وغاية المسلمين من حربهم.

وفي حرب الجمل كان القعقاع بن عمر رسول الإمام علي الى أهل البصرة، وكاد الصلح ان يتم بخطبته التي خطبها أمام طلحة والزبير والسيدة عائشة (٥٢) لولا مكيدة دبرت، وأثارت الحرب مرة ثانية.

ثم كانت الحروب والمفاوضات بين الإمام علي ومعاوية قبل يوم صفين، فلما كانت سنة ٣٧هـ توادعا على ترك الحرب رغبة بالصلح، واختلفت فيما بينهم الرسل دون جدوى، فبعث الإمام علي عدي بن حاتم، ويزيد بن خصفة الى معاوية وخطب كل منهم خطبة، وكان معاوية بدوره يرد عليهم. ثم بعث معاوية الى الامام علي ثلاثة رسل هم حبيب بن مسلمة الفهري، وشرحبيل بن السمط، ومعن بن يزيد بن الاخنس فدخلوا عليه، وخطب كل منهم خطبة، ورد عليهم الإمام علي أيضاً(٥٣).

رفع المسبهم

وأدت الخطابة في هذه المفاوضات مهمات كبيرة، فنشطت نشاطاً واضحاً واعتمد أصحابها على الحجج والبراهين، وعلى محاولات الإقناع والتأثير لتنفيد آراء الخصوم، والإقناع بوجهات نظرهم. وقد اتسمت هذه الخطب بالوضوح، وقصر العبارات، والتمثل بالآيات القرآنية الكريمة، وأحيانا بالشعر العربي. ودراستها توصلنا إلى فهم طبيعة الفكر الإسلامي آنذاك، فضلاً عن اعطائنا صورة بينة عن تطور الخطابة أسلوبا أدبياً وفنياً خدم الفكر والسياسة معا.

د- خطب الفتن والاحداث :

بدت الخطابة نشيطة حافلة في خضم الأحداث التي حدثت بعد رسولﷺ. وكان من أول هذه الفتن التي هزت أركان الدولة الفتية، وذهبت برجال عظام جندوا انفسهم للدفاع عن الدين الإسلامي، هذه الفتن هي حروب الردة. ومع أننا لم تصل الينا من هذه الخطب إلا القليل إلا أن مجريات الأحداث تقتضي ان تكون للخليفة أو الصحابة، أو قادة الجيوش خطب يحثون فيها على الجهاد، وأن يكون في الفريق لثاني من المرتدين خطباء يبينون أسباب الردة، ويمنعون قبائلهم عن الخروج على الدين والدولة. وقد وردت بعضها متفرقة في كتب التاريخ والادب. فكتب الامثال تشير الى مثل مشهور تناقلته العرب وهو قولهم : (ويل للشجي من الخلي)، ويذكرون ان قائله هو أكثم بن صيفي وذلك أنه خطب قومه خطبة وصفت بانها طويلة ودعاهم ان يعودوا الى الإسلام لان فيه صلاحهم. فقال له مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم فقال أكثم : ويل للشجي في الخلي (٥٤).

ونشطت الخطابة بشكل واضح ايام الخليفة عثمان حين اشتد الخلاف بينه وبين مناوئيه. وقد سجلت لنا المصادر العربية أحداث هذه الفتنة في الخطب التي خطبها الخليفة المأخوذ على أمره وخطب مناوئيه. حين قدمت وفود من أهل الأمصار يشتكون الى عثمان سيرة عماله وولاته، وتماديهم في الظلم خرج إليهم وقام خطيباً:

أما بعد، فإنَّ لكل شيء آفة، ولكل أمر عاهة. وآفةُ هذه الأمة، وعاهةُ هذه النعمة عيَّابون طعانون، يرونكم ما تحبون، ويُسرّون لكم ما تكرهون، مثلَ النّعام

المسهم

يتبعون أولَ نـاعق، أحبُّ مواردهم إليهم البعيد. والله لقد نقمتم عليّ ما أقررتم لابن الخطـاب مـثله. ولكنه وطئكم برجله، وخبطكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما احببتم وكرهتم [٥٥].

ثم اشتدت الفتنة وكثر الشغب واللغط، وخرج عثمان يوم الجمعة فكثر الشغب، وعـاد محاصراً إلى منـزله ثم ان علي بن ابي طالب قدم عليه، وقد اشتد حصاره فقال لـه: أخـرج وكلّـم الناس. فخرج عثمان، واستغفر الله وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول: مـن زلَّ فليتُـب، وأنـا أول من اتعظ، واذا نزلت، فليأتينّي أشرافكم فليردوني بـرأيهم، فـوالله لـو ردني إلى الحق عبدٌ لاتبعته، وما عن الله مذهب إلاّ إليه [٥٦]. فسرّ الـناس بهـذه الخطـبة، وهـدأوا. لكـن الأمور ما لبثت أن عادت مضطربة مرة أخرى وأُخذ الخليفة، وقتل وهو محاصر في داره.

ولم تنـته الفتـنة بعـد مقـتل الخلـيفة عثمان بل اتسعت جوانبها، وشملت معظم المسـلمين، وكـثرت الاحزاب والفرق هذه تناصر حكم الخليفة الرابع وأخرى اتخذت قمـيص عـثمان حجـة لمعارضة حكمه. فكانت الخطابة الوسيلة المهمة التي عبرت عن الآراء، والمشعل الذي أذكى الخصومات أيام حرب الجمل وحرب صفين.

٣- الرسائل:

أصـبح من البديهي لدى الباحثين القول باهتمام الإسلام بصورة عامة والرسول ﷺ بصورة خاصة بالكتابة، وأثر هذا الاهتمام في نشر الكتابة والتشجيع على تعليمها، والحادثة المشهورة التي اشترط فيها الرسول ﷺ على أسرى بدر اطلاق سراح كل رجل يعرف الكتابة والقراءة أن يعلم عشرة من صبيان المدينة دون فداء، هذه الحادثة تكفي للاشارة الى مدى اهتمام الرسول ﷺ بالكتابة ونشرها بين المسلمين.

وكان لحاجة الرسول ﷺ الى تدوين القرآن الكريم وحفظه من جهة، ونظره البعيد الى حاجـة دولـته اليها من جهة اخرى. كل هذا جعل الرسول ﷺ يهتم بالكتابة، لانها سـتكون الأسـاس الذي تعتمد عليه دولته في مراسلاته ومباحثاته مع القبائل العربية، والدول المجاورة التي بعث اليها وفوده يدعوهم الى الإسلام.

رفع المسبهم

لقد كان لنشوء الدولة الإسلامية الاثر الكبير في تطوير الكتابة واستخدامها على نطاق رسمي، والاستفادة منها في خدمة الدعوة الإسلامية بعد أن كانت محصورة في مجالات محددة وفي مناطق معينة في عصر ما قبل الإسلام. وقد ذهب بعض الباحثين الى ان الكتابة قد استخدمت قبل هجرة الرسولﷺ الى المدينة وقبل نشوء الدولة الإسلامية.

يقول الدكتور حسين محمد نصار (وأحب أن أقول أني لا أعني بذلك أن الرسائل والمعاهدات لم تظهر الا بعد تكون الدولة، بل ظهرت اثناء تكونها، وقبل تكونها أيضا، حتى انهم يروون لنا ان الرسولﷺ اتخذ شرحبيل بن حسنة كاتبا في مكة، بل قالوا ان الداريين أتوا للرسول ﷺ وهو بمكة وطلبوا منه ان يقطعهم أرضا بالشام ان فتحها الله عليه، فاقطعهم بيت عينون وحيرون والموطوم، وبيت ابراهيم، وكتب لهم بذلك كتابا في خط شرحبيل، ولكننا نشك شكاً قويا في صحة هذه الرواية، ولا نصدق إلا الاقطاع الثاني الذي تم في السنة التاسعة بعد الهجرة، وكتبه الإمام علي بن أبي طالب بأمر الرسول ﷺ واحتفظ به الداريون وقتا طويلا، اذ لم تكن الجماعة الإسلامية في مكة دولة من الدول لها كيان سياسي او نظام اداري، ولم يكن الرسول ﷺ قد بدأ يفكر في جهاد الامم المجاورة للعرب حتى يقطع أرضا بها)(٥٧). وحتى في حالة عدم التصديق بصحة الاقطاع الأول فان الرواية نفسها تفيدنا بذكر اسم شرحبيل كاتبا للرسولﷺ في مكة، ونجد صدق ذلك في مجموعة الوثائق السياسية التي نشرها الدكتور حميد الله، اذ نجد فيها كتابا بعثه الأنصار الى الرسولﷺ حين انصرف اهل العقبة الأولى ونشا الإسلام في دور الأنصار كتبوا للرسولﷺ: أن ابعث إلينا رجلا يفقهنا في الدين ويقرئنا القرآن(٥٨). كما ان هناك وثيقة أخرى كتبها الرسولﷺ قبل هجرته أيضا، وأرسلها إلى مصعب بن عمير لإقامة الجمعة في المدينة(٥٩). هاتان الإشارتان وان افادتا في معرفة بدء الرسولﷺ بالاستفادة من الكتابة فإنها لا تعني أيضا انها قد استخدمت على نطاق واسع، لأن الحاجة اليها كانت محدودة نظرًا لقلة الجماعة الإسلامية وقلة متطلباتها. ولكن العامل الأكبر في اظهار الكتابة وبثها في الارجاء هو بزوغ الدولة العربية الإسلامية. فمما لا يخفى على أحد ما تستلزمه

رفع المسابهم

الدول من علاقات، وروابط داخلية وخارجية لا يمكن التعبير عنها والاتفاق عليها الا بالمراسلات. وهكذا كان إنشاء نظام المراسلات الداخلية والخارجية (٦٠).

وحين هاجر الرسول ﷺ الى المدينة، وهاجر معه أصحابه، كان لابد ان ينظم الحياة الجديدة في المدينة، لتكون نواة دولة إسلامية كبيرة، وأراد ان يوطد النظام الذي يفرضه في المدينة، وان يلزم كافة الاطراف به، فكتب كتابا ضمنه تعاليمه فيما يخص العلاقة بين المهاجرين والانصار من جهة واليهود من جهة أخرى، وألزم في هذا الكتاب كل طرف بما له وما عليه من واجبات وحقوق، وهكذا اتخذت الكتابة طابعا جديدا حين اصبحت أداة لتسجيل النظام الذي يسود مجتمع الدولة الجديدة (٦١).

وحين هاجر الرسول ﷺ بدأت قريش بمناوراتها السياسية فكان لابد للرسول ﷺ ان يتتبع أخبارها، ويطلع على ما تعده من عدد لحرب المسلمين، فكان ان بدأ بإرسال السرايا التي تستطلع له أخبار قريش وتحركاتها وفي اخبار هذه السرايا انه ﷺ ارسل عبد الله بن جحش ونفراً من اصحابه، وبعث معه كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي الى ما أمره ولا يستكره احدا من أصحابه (٦٢).

وفي أخبار غزوة الخندق ان المسلمين قبل ان يخوضوا غمارها بلغهم كتاب من ابي سفيان الى النبي ﷺ يفاوضه فيه قبل ان تبدأ الحرب، ويعده بالقتال أن لم يستجب الى ما تريده قريش منه. وقد أجاب الرسول ﷺ بكتاب رد فيه على أبي سفيان. ثم كانت مكاتبة اخرى بين ابي سفيان والرسول ﷺ وقت غزوة الخندق، حين ملَّت قريش المقام، فكتب ابو سفيان يهدد الرسول ﷺ بيوم مثل يوم أحد، ويجيبه الرسول ﷺ بكتاب آخر يهدده بيوم تكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة (٦٣).

وفي السنة السادسة للهجرة كتب صلح الحديبية المشهور بين قريش والرسول ﷺ وقد اتفق فيه الفريقان على الصلح مدة عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، كما نظمت فيه شروط اخرى يلتزم بها كل من المسلمين من جهة وقريش ومن حالفهم من جهة اخرى (٦٤).

وبعد هذا الصلح اشتدت شوكة المسلمين، وقويت دعائم دعوتهم، مما بعث

القـوة والعـزيمة في نفوسهم ففر رجل منهم اسمه ابو بصير من مكة، والتحق برسول الله ﷺ، فكتبت قريش الى الرسولﷺ ليفي بأحد شروط الحديبية الذي يقضي بان يرد الرسول ﷺ من يقدم عليه من مستضعفي مكة الى اصحابه من قريش.

فـلما ورد الكـتاب إلى الرسـول ﷺ رد أبا بصير وارسله مع سفيري قريش حتى إذا كانوا بذي الحليفة قتل أبو بصير أحدهما ثم خرج حتى نزل العيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق قوافل قريش الذي يأخذونه إلى الشام. وبلغ المسلمين الذين كانوا قد حبسوا بمكة قول رسول الله ﷺ عن أبي بصير (ويل أمه مِحشُ حرب لـو كـان معـه رجـال) فخـرجوا إلى أبي بصير فاجتمع اليه ما يقارب السبعين رجلاً، فضيّقوا على قريش، وجعلوا يقتلون من ظفروا به، ويأخذون ما معه، ولا تمر بهم عير إلا اقـتطعوها حتى كتبت قريش الى رسول الله ﷺ تطلب منه ان يأويهم لتتخلص من أذاهـم، فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير بالمجيء إلى المدينة، فأتاه رسوله بكتابه وأبو بصير يجود بنفسه ولم يلبث أن مات وقدم باقي أصحابه إلى المدينة (٦٥).

ومـع أن نصوص هذه الكتب لم تصل إلينا، إلا أن هذه الروايات تدلنا عليها، وتشير إلى مـدى الاسـتفادة من الكتابة حين استعملت وسيلة للمفاوضات بين قريش والمسلمين. وكـان مـن الطبيعي أن يتيح صلح الحديبية فرصة سانحة للرسولﷺ لينشر دعوته في أرجاء بعـيدة عـن أجـواء قريش ومكة، وذلك انه أخذ يرسل الوفود إلى الملوك، والقبائل، وبعث معهـم بكتـب يدعوهم فيها الى الإسلام، فبعث دحية بن خليفة الكلبي الى ملك الروم (٦٦) وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك الفرس (٦٧).

وكانـت كتـبه ﷺ ووفوده قد توالتا على النجاشي من قبل، حين أرسل اليه كتابا يدعـوه فـيه إلى الإسـلام. وكذلك حين ارسل مع ابن عمه جعفر كتابا يوصيه بالاعتناء بحال اللاجئين الغرباء المسلمين في بلاده (٦٨).

وقـد بلغـت كتـبه ﷺ الى الملـوك مـن الكثرة درجة جعلتهﷺ يتخذ كتّاباً خاصين يكتـبون رسـائله الى الملوك، وقد سجل الجهشياري قائمة بأسماء كتاب الرسول (ﷺ) وواجباتهم، فعلي وعثمان لكتابة الوحي، فاذا غابا كتبه ابي بن كعب وزيد بن ثابت،

رفع المسـاهم

وخالد بن سعيد بن العاص ومعاوية لكتابة حوائجه. والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير للكتابة ما بين الناس وينوبان عن خالد ومعاوية اذا غابا. وعبد الله بن الارقم والعلاء بن عقبة يكتبان في القوم في قبائلهم ومياههم، وفي دور الانصار بين الرجال والنساء، وزيد بن ثابت للكتابة الى الملوك الى جانب كتابة الوحي وحنظلة بن الربيع خليفة كل كاتب من كتاب النبي اذا غاب عن عمله، وكان يضع عنده خاتمه، وعبد الله بن ابي سرح ومعيقب بن ابي فاطمة وكان يكتب في المغانم (٦٩).

أما في الداخل فقد استفاد الرسول (ﷺ) من الكتابة في خدمة دعوته، وذلك انه اخذ يسعى لتوطيد دولته الصغيرة ليرسيها على قواعد ثابتة وقوية، فيأمن أول ما يأمن شر اليهود الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين، ويحملون لهم الحقد والكراهية، فاستخدم الرسولﷺ الكتابة في هذا المجال ليوقفهم عند حدهم، فحين شكى اليهود الى الرسولﷺ قتل كعب بن الأشرف الذي نال المسلمين والرسول بهجائه اللاذع دعاهم الرسول ﷺ الى ان يكتب بينه وبينهم كتابا(٧٠). كما كان الرسول ﷺ يكتب اليهم كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام. وحين قتل رجل من المسلمين في احد احياء اليهود كتب اليهم الرسول ﷺ طالبا ديّته أو يؤذنهم بالحرب، فكتبوا اليه يحلفون بالله ما قتلوه، ولا يعلمون له قاتلا، فاداه الرسول من عنده(٧١). وهكذا استخدمت الكتابة وسيلة للمفاوضة بين المسلمين واليهود، كما استخدمت وسيلة للمفاوضات بين المشركين والمسلمين.

وهناك كتب الامان والصلح التي كتبها الرسول (ﷺ) لبعض اليهود أو النصارى، من ذلك كتابه لاهل نجران حين قدموا عليه، وسألوه الصلح، فكتب اليهم كتابا بأن لهم جوار الله وذمة محمد أبدا، مانصحوا وصلحوا، ثم ذكر في الكتاب حدود هذا الصلح وشروطه (٧٣) وكذلك كتب النبي ﷺ لبني عادياء من يهود تيماء كتابا بان لهم الذمة وعليهم الجزية (٧٤).

وكانت وفود القبائل العربية تقدم على الرسول ﷺ تعلن إسلامها، فكان يبعث مع هؤلاء الوفود برسائل يشرح في بعضها أركان الدين، ويسجل في بعضها الآخر انه كلّف أحد أعضاء الوفد بمهمة أخذ الزكاة من قبيلته أو مهمة تعليمهم أمور دينهم. أما

رفع المسهم

القبائل التي لم ترسل وفودها، فإنه بعد أن استتب له الأمر أرسل كتبه إليها، ودعاها الى الإسلام والهداية ودفع الزكاة [٧٥].

وقد يرسل الرسول ﷺ أحد رجاله عاملا على منطقة من المناطق، فيكتب له عهدا يبين له فيه واجبه [٧٦].

وفي أخبار أحداث الردة التي بدأت منذ زمن الرسولﷺ نجد للكتابة دوراً هاما شغلت فيه دور الوسيط بين الرسولﷺ وعماله وقادته من جهة، وقادة المرتدين من جهة اخرى [٧٧].

ثم كانت مكاتبة مسيلمة الكذاب مع الرسولﷺ حين طلب منه أن يقاسمه الحكم لأنه كما ادعى قد أشرك في النبوة [٧٨].

وهكذا أدت الكتابة دورها الهام في توطيد الدولة الإسلامية منذ نشأتها حتى استقرار الأمر، فكانت وسيلة من وسائل نشر الدعوة، وارساء قواعد الدين الجديد ويزاد الى هذا مجال اخر استفيد فيه من الكتابة، حين سجل الرسول بها الاقطاعات والعطاءات التي منحها بعض الاشخاص والقبائل[٧٩].

وبعد وفاة الرسول ﷺ وجدت للكتابة مجالات جديدة، وأحداث استوجبت المراسلة فنشطت في هذا العهد، واتسعت لأبواب وأغراض كثيرة، كما هو الحال في الخطابة. وكان من أول الأحداث التي نشَّطت الكتابة، وأوجبت استعمالها حروب الردة، وذلك انه لما توفي الرسول ﷺ ارتدت قبائل كثيرة من العرب، ووجد إيمانها الضعيف متنفسا في فقدان الرسولﷺ وموته، وقدمت الكتب إلى المدينة تنبئ بعصيان القبائل وخروجها على الدين. فعقد أبو بكر أحد عشر لواءاً، وأمر أمير كل جند باستنفار من مر به من المسلمين من أهل القوة. وقد عهد لكل من هؤلاء الأمراء عهدا ضمنه وصايا وتعاليم حربية يلتزم بها الامير حين يحارب المرتدين، وتكون هذه التعاليم فاصلا بين قتال المرتدين او مسالمتهم [٨٠]، كما كتب رسائل أخرى الى قبائل معينة. من ذلك كتابه الذي بعثه مع خالد بن الوليد الى بني أسد، ومن تبعهم من المرتدين، وكتب أخرى إلى المرتدين جميعاً، يأمرهم فيها بتقوى الله وان يهتدوا بهداه،

رفع المسهم

ويعتصموا بدينه، وأن لا يغرهم الشيطان بعد أن هداهم الله، وقد ختم كتابه بتهديده لهم بالقتال والتحريق وسبي النساء (٨١).

وكان الخليفة يتتبع أخبار الحروب ومن أسلم من المرتدين، أو بقي على عصيانه وردته، فكان يكتب إلى أمراء الجيش بتعاليم وأوامر عسكرية، ويضمنها تعاليم حربية ونصائح عامة (٨٢) وحين يصالح القائد القبيلة التي كانت مرتده، كان يكتب لهم امانا وعهدا يسجل فيه الصلح(٨٣). أما إذا ساء سلوك أحد القادة فان جنود جيشه من المسلمين يكتبون الى الخليفة بذلك، ويكتب الخليفة بدوره الى قائده يؤنبه ويحاسبه على فعلته(٨٤).

ثم كانت مكاتبات ابي بكر في حروب من ارتد من بني كندة مع الأشعث بن قيس ومن ارتد معه. وكتب الى امير جيشه زياد بن لبيد وكان الأخير يكتب إليه أنباء المعارك، ويطلب منه المزيد من الإمداد.(٨٥)

وانتهت حروب الردة وطويت معها صفحة دامية كَبَّدت المسلمين الكثير من الخسائر، وبدأت بعدها صفحة جديدة خط فيها المسلمون اتجاهات جديدة، لاتساع دولتهم وبناء صرحها الشامخ تلك هي حركة الفتوحات الإسلامية. فحين فرغ خالد بن الوليد من أمر اليمامة كتب إليه ابو بكر (أن سِر الى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند - وهي الابلة - وتألَّف أهل فارس، ومن كان في ملكهم من الامم). وكتب كتابا آخر الى عامة المسلمين الذين انضوا في الجيش لحرب المرتدين يحثهم فيه على الجهاد والتوجه لحرب الفرس ونشر كلمة الله، وإعلاء دينه، ويذكرهم بالثواب الذي أعده الله للمجاهدين المؤمنين، ثم كتب كتابا اخر الى المثنى بن حارثة يخبره بامر الجيوش الإسلامية المتوجهة إلى، العراق ويأمره ان يستقبل خالدا ومن معه وان يكون خالد هو الامير فان شخص فالمثنى على ما كان عليه من الإمارة.(٨٦)

وكان لابد أن تستنفر القوى كافة لتنضوي تحت لواء الجهاد والفتح، وقد استفيد من الكتابة لتكون وسيلة لتجميع القبائل، وإصدار الأوامر. فقد كتب أبو بكر إلى عياض بن غنم وهو بين النباج والحجاز يامره بالمسير إلى العراق، واللحاق بخالد كما يوصيه بان لا يكره أحدا على القتال(٨٧).

رفع المسهم

وكـان أبـو بكـر يضـمن كتبه إلى قادتـه وصـايا وتعالـيم حربـية، فيوصي بعدم استعمال ضـعيفي الإيمـان. وعـدم إجبار الناس وأخذهم بالقوة للانضمام تحت راية الفتوح، كما كان يوصيهم بعدم استعمال من ارتد من القبائل [٨٨].

ولما كانت أنباء الفتوح تتوالى على الخليفة، فانه يبعث بتعاليمه واوامره العسكرية الى قـادة جيوشـه، والى المسـلمين كافـة، وحـين اراد ابو بكر ان يولي خالد بن الوليد امارة جيش المسلمين في فتوح الشام اصدر أوامره بكتب بعثها الى كل من خالد، وهو في العراق يأمره بالسير إلى الشام والى أبى عبيدة في الشام [٨٩].

يضاف إلى الأوامر العسكرية التي كان الخليفة يصدرها بواسطة الكتب، استفادته مـن الكـتابة أيضـا بإرسـال نصائح وتعاليم حربية خاصة حين يكتب إليه احد القادة شـارحا وضـع المسـلمين، ومـا أتـاهم مـن أخـبار أعدائهم الروم او الفرس، فيدرس الخلـيفة مـا يعـرض علـيه، ثم يكتب الى القائد بخطة عسكرية يأمره باتباعها، وقد يجد القائد نفسه أمام مشكلة وأمر لم يكن يتوقعه، فيكتب الى الخليفة يطلب رأيه [٩٠].

وهكـذا نجـد أن الكـتابة كانـت عـاملا اساسيا يعتمد عليه القادة في فتوحهم، اذ يسـتعينون بالخلـيفة في خططهـم وتصـرفاتهم. ولـلمرء ان يتعجب غاية التعجب من اهـتمام العرب بالكتابة ومدى تطورها في العصر الإسلامي حتى استفيد منها في اكثر شـؤون الدولة اذا تذكرنا صعوبة المواصلات، والوسائل، التي تبلغ بها الرسائل، ومع ذلـك اكثروا منها وراسل القادة الخليفة في كل أمر من أمورهم. ونجد الخليفة عمر بن الخطـاب (ﷺ) يطلـب مـن قائده في إحدى رسائله ان يكتب اليه كل يوم [٩١]، ومثل ذلك ما ذكر من وصية الامام على (ﷺ) لاثنين من رجاله ولاّهما امارة جيشه، كتب إلـيهما وهمـا في طريقهما الى الحرب عدة وصايا، وختم رسالته بقوله وليكن كل يوم عـندي خـبركما ورسول من قبلكما،[٩٢] مما يدل على أن أخبار الحروب كانت تتوالى على الخليفة.

وكـان مـن خطـة المسـلمين ان يراسلوا اهل المدن قبل الدخول معهم في حرب، وحين يأتي الجواب بإقرارهم بالجزية يكتب لهم عهد بالامان[٩٣].

لقـد كـان اهـتمام المسـؤولين بأمور المسلمين كبيرا، وكان الوالي او الخليفة يعد

رفع المسـهم

نفسه مسؤولا تجاه ربه عن أمر المسلمين وراحتهم، فحذيفة بن اليمان مثلا يكتب إلى الخليفة وكان مع سعد بن ابي وقاص في العراق كتاباً يخبره فيه عن امر المسلمين والعرب وانهم قد تغيرت ألوانهم، فكتب عمر الى سعد يستفسر عن ذلك، فكتب اليه سعد ان العرب لا يوافقها الا ما وافق ابلها من البلدان، فابعث سلمان وحذيفة ليرتادا للمسلمين منزلا بريا بحريا، واشترط ألا يفصل بين المسلمين والخليفة ماء. فارتاد الرائدان الكوفة للمسلمين، وكتب سعد بذلك إلى الخليفة.

وتطور أسلوب الرسائل، وموضوعاتها بتطور الأحداث السياسية، فعالجت الرسائل القضايا التي أثيرة منذ أيام الفتنة زمن الخليفة عثمان، حتى خلافة الإمام علي حيث تبادل أصحاب الشأن الرسائل المعززة ببيان الفكرة والموقف السياسي مع اللجوء إلى أسلوب الإقناع حيناً، والتهديد حيناً آخر مصاحباً بالحجة والبرهان وقوة الإقناع، موشحة بالآيات الكريمة.

لقد تمت مراسلات بين الخليفة عثمان وأهل مصر، والأمصار الإسلامية، هم يدعونه إلى العمل بسنة الله، ويذكرونه الآخرة الباقية، وهو يدعوهم إلى لزوم طاعة الله بطاعة الخليفة الذي أجمعت الأمة على بيعته، وأنه ظلم بما نسب إليه من أعمال. ولم تجد هذه المراسلات شيئاً، وحوصر الخليفة المغلوب، واستنجد بولاته إلا أن النجدة لم تصل إلا بعد قتله[٩٤] وقبل أن يقتل الخليفة أرسل مع ابن عباس كتاباً يتلوه على الناس في موسم الحج كله آيات قرآنية تذكر الناس بوجود الطاعة، ويبرئ نفسه بما نسب إليه من أعمال [٩٥].

وبعد مقتل الخليفة عثمان أسهمت الرسائل في الأحداث التي تأججت أيام خلافة الإمام علي، وتجاوزت الرسائل الخليفة والولاة إلى وجوه القوم، فكانت مراسلات السيدة عائشة مع السيدة أم سلمة ومالك بن الأشتر، وزيد بن صوحان، وأجوبة هؤلاء برسائل الآراء بالحجة والإقناع [٩٦].

رفع المسابهم

نصوص وتحليل

إن تتبع نصوص الرسائل لمعرفة تطور الكتابة يفرض الاستفادة من أكثر من نص واحد لمتابعة هذا التطور ومعرفة سماته التي نستطيع إيجازها فيما يأتي :

١- الإيجاز المعبر عن الفكرة والموقف بألفاظ مباشرة قصد منها الإفهام والتبليغ، ولذلك وردت الالفاظ الإسلامية المصورة لمبادئ الدين والدعوة في رسائل الرسول(ﷺ) المبكرة، من ذلك ماكتبه عليه الصلاة والسلام الى مصعب بن عمير قبل الهجرة يأمره في الرسالة باقامة الجمعة في المدينة فيقول له :

(فإذا مال النهار عن شطره من يوم الجمعة فتقربوا لله بركعتين) (٩٧)

فالكتاب حدد مباشرة ما هو مطلوب، وقت إقامة الصلاة يوم الجمعة، ويشير الى هيأة المصلي، لأن الركوع في اللغة هو الانحناء، إلا أنه بعد ظهور الإسلام دل على حركة معينة معلومة يؤديها المسلم وهي انحناؤه خضوعاً لله في صلاته.

وتتكرر مثل هذه الألفاظ في رسائل الرسولﷺ الأخرى، وكتبه بعد الهجرة خاصة في كتابه الذي نظم فيه الحياة في يثرب (المدينة)، بين المهاجرين والأنصار من جهة والمسلمين وأهل الكتاب، فورد فيه لفظ المشرك، والمسلم، والمتقين والكافرين ويوم القيامة واليوم الآخر.

٢-ابتداء الرسائل والكتب بعبارة البسملة، وهذه سمة فنية وفكرية ميزت رسائل هذا العصر عن العصر الجاهلي. ونستطيع أن نتابع تطور هذه الفكرة من عهد الرسول ﷺ الذي ذكرناه قبل قليل والذي ورد فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم. انهم امة واحدة من دون الناس، المهاجرين من قريش على رباعتهم يتعاقلون بينهم) (٩٨).

ويلاحظ في هذا الكتاب ابتداؤه بعبارة البسملة، وهي افتتاحية لم تكن موجودة في مكاتبات العصر الجاهلي. ويروى القلقشندي قصة يذكر إنها كانت السبب في تعود

قريش على افتتاح رسائلها بهذه العبارة. ثم ينقل قولا عن إبراهيم بن محمد الشيباني قوله : ولم تزل الكتب تفتح باسمك اللهم حتى نزل قوله تعالى : ﴿**أنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ فاستفتح بها رسول الله ﷺ وصارت سنة بعده، ويروى عن محمد بن سعد رواية تبين كيفية تطور هذه العبارة بتدرج نزول الآيات القرآنية وذلك ان رسول ﷺ الله كان يكتب كما تكتب قريش (باسمك اللهم) حتى نزل عليه (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها) فكتب بسم الله، حتى نزل قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) فكتب بسم الله الرحمن حتى نزل (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) فكتب بسم الله الرحمن الرحيم (٩٩).

وقد كان لالتزام الرسول ﷺ بهذه العبارة الإسلامية أثره الكبير في التزام المسلمين بها من بعده حتى رووا عن سفيان الثوري انه كان يكره للرجل ان يكتب شيئا حتى يكتب بسم الله الرحمن الرحيم. وعن سعيد بن جبير انه كان يقول لا يصلح كتاب الا ان يكون أوله بسم الله الرحمن الرحيم (١٠٠) إلا انهم قد اصطلحوا على حذف هذه العبارة من اوائل التوقيعات والمراسيم الصغار، وكأنهم قد تأولوا ما نسب الى رسول الله ﷺ من قول هو (كل أمر ذي بال لايبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع)، يعني ناقص البركة، وما يكتب من التواقيع والمراسيم الصغار ليس من الأمور المهمة فتناسب ترك البسملة في أولها وإن وجد من يؤكد ضرورة افتتاحها بهذه العبارة ايضا (١٠١).

وعبارة البسملة هذه افتتح بها الرسول ﷺ أول كتاب له في المدينة المنورة، ووردت في كتبه ورسائله الأخرى، إلا كتاب صلح الحديبية الذي خلا من هذه العبارة وسنأتي على بيان سبب ذلك.

٣- ذكر حمد الله والثناء عليه بعد البسملة. وهذه أيضا سمة أسلوبية فكرية ارتبطت بفكرة التوحيد أيضا، ووجوب ذكر الله وحمده وشكره، وقد ورد التحميد في كتابه (ﷺ) إلى النجاشي ملك الحبشة سنة ست للهجرة : (**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم، فأنت فاني، أحمد إليك الله**

الـذي لا إلـه إلا هو الملك القدوس السلام المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله، وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة) [١٠٢].

كمـا ورد التحميد في رسائله ﷺ إلى المـنذر بـن سـاوى والى أسـقف إيلـة، وإلى صاحب الـبحرين، والى اهل هجر وإلى الحارث بن كلال، وفي عهوده إلى خزاعة وإلى بني أسد وإلى بني زاكان وعهده لأقارب سلمـان، وفـي رسالته إلى معـاذ بن جبل [١٠٣].

ويـبدو التحميد في هـذه الرسـائل متشابها من حيث العبارات التقليدية نفسها، وهـو تحمـيد قصير لا يتجاوز العبارتين أو الثلاث إلا عهده إلى أقارب سلمان، الذي جاء فيه:

(سـلام الله إلـيك، أن الله امـرني أن أقـول لا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك له، وأقولهـا وأمـر الناس بها، والخلقُ خلق الله والأمرُ كلُّه لله، خلقهم وأحياهم وأماتهم، ثم ينشرهم واليه المصير. وكل أمر يزولُ ويفنى، وكلُّ نفس ذائقة الموت، ولا مردَّ لأمر الله، ولا نقصـان لسـلطانه، ولانهايـة لعظمـته، ولا شريك له في ملكه. سبحانه مالك السموات والأرض، الذي يقلب الأمور كما يريد ويزيد الخلق على ما يشاء، سبحان الـذي لاتحيط بـه صـفة القـائلين، ولا يبلغ وهم المتفكرين الذي افتتح بالحمد كتابه، وجعل له ذكرا ورضي من عباده شكرا، حمداً لا يحصى عدده).

أما كتبه الأخرى فهي على كثرتها لم يرد التحميد فيها كما لم ترد البسملة في كثير مـنها. وقـد روى المحدِّثـون حديـثا عـن الرسـولﷺ، ليؤكدوا كون التحميد في أوائل الكتـب سـنة واجبـة مـن جهـة، وليسـوغوا خلو بعض الرسائل منها وخاصة رسائل الرسـولﷺ وبعـض المكاتبات والحديث هو (كل امر ذي بال لايبدأ فيه بحمد الله فهو اجـذم)[١٠٤] ويعلـل القلشقندي هذا بقوله : (أما سائر المكاتبات والولايات المفتتحة بغـير الحمـد، فإنمـا حذف منها الحمد استصغاراً، إذ كان الابتداء بالحمد إنما يكون في أمـر له بـال كما دل عليه الحديث المتقدم) [١٠٥] ثم يذكر سبب ابتداء الناس بالتحميد بقولـه (وإنمـا افتـتح الكـلام بـالحمد، لان الـنفوس تتشـوق بالثناء على الله تعإلى ، والافتـتاح ممـا تتشـوق الـنفوس إلـيه مطلـوب) [١٠٦] ويـبدو أن سبب ابتداء الكتاب بالحمدله ليس كما ذكره القلقشندي وانما لأنهم يتبعون في ذلك ما اتبعه الرسولﷺ.

رفع المسهم

أمـا في كتاب صلح الحديبية، فإننا لا نجد أي أثر للسمتين الفنيتين السابقتين اذ لم يفتـتح الكتاب بالبسملة ولا مُهّد له بحمد الله، لان رجال قريش كانوا حريصين على عـدم ذكر أي لفظ إسلامي، لأنه لو ذكر لكان دليلا على اعتراف قريش بما يدعو اليه الرسـول ﷺ. ومـمـا يذكـر هـنا أن الرسول ﷺ لما امر كاتبه علي بن ابي طالب ان يبدأ الكـتاب بقوله بسم الله الرحمن الرحيم قال سهيل بن عمرو - وهو الذي بعثته قريش لطلـب الصـلح – لا أعـرف هـذا، ولكـن بـاسمك الـلهم، كـمـا كـنـت تكتب، فقال المسلمون والله لانكتب الا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبيﷺ اكتب باسمك اللهم، فكتـبها ثـم قـال، هـذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: والله لـو كـنا نعـلم انـك رسول ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب من محمـد بـن عـبد الله. فقـالﷺ انـي لرسول الله، وان كذبتموني، ثم قال لعلي كرم الله وجهـه: امـح رسـول الله. فقـال: والله، لا أمحـوك ابدا، فقال أرنيه، فأراه اياه، فمحاه الرسولﷺ بيده وقال:

(اكتـب هـذا مـا صـالح علـيه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين) (١٠٧).

كان كتاب صلح الحديبية خاليا من الاثر القرآني والإسلامي لأن همّ الرسول (ﷺ) ونظره البعيد كان يرنو إلى مدة طويلة تمكنه من كسب القبائل العربية كما تسمح باقامة دولته دون ان تهددها قريش بالحرب والقتال، وهو ما حققه الصلح.

٤- كـثرة الاقتباس من القرآن الكريم وايراد الآيات المباركة المعبرة عن الموقف، المعززة للفكرة التي تقوم عليها الرسالة، وقد ورد هذا منذ وقت مبكر في الرسائل التي تبادلها الرسول ﷺ مع اليهود او النصارى. من ذلك كتابه إلى يهود خيبر يدعوهم فيه إلى الايمان به، اذ كان خبر مجيئه نبيا قد ذكر في التوراة. وفي هذه الرسالة نجد اكثر من آيـة قرآنـية، لأنـه ﷺ يـريد ان يكسب ود اليهود حين يذكر نبيهم من جهة، ويؤثر في نفوسهم فيؤمنوا به من جهة اخرى:

رفع المسـاهم

مباشـراً خاليا من البسملة والتحميد، لانهم لايؤمنون بها، مكتفيا بعبارة (سلام على من اتبع الهدى).

إن هـذا الـتطور الكبير الذي شهدته الحياة العربية الإسلامية قد واكبته الرسائل والكـتابة، فنشـطت نشـاطاً كـبيراً لا يمكـن ان يقارن بما كان في العصر الجاهلي. واذا كانـت الرسـائل تمثل جانباً مهما من جوانب الحياة السياسية والادارية، وان لغتها قد تكون أقرب إلى اللغة الرسمية منها إلى اللغة الادبية، فان تذكر حال اللغة العربية في هـذا العصـر يجعلـنا نقـول، ان كتب صدر الإسلام والمراسلات لابد ان تدرج ضمن الكـتابات الأدبـية، لانها صدرت عن شخصيات عرفت في عالم البلاغة والادب، وان اصـحابها يدرجون بشكل أو بآخر ضمن عصر الفصاحة والسلامة اللغوية، ولابد ان تكـون كـتاباتهم صـورة للمستوى الـثقافي والفكري الذي وصلت اليه الحياة الادبية بـالذات، ولذلـك تنوعـت أسـاليب الرسـائل فهي بين ايجاز معبر، واسهاب يسهم في عـرض فكرة أو مناقشتها، ولغتها إلى السهل الممتنع أقرب منها إلى الصنعة التي أُولع بهـا الكـتاب الرسميون فـيما بعـد، كمـا أنهـا تحولـت إلى لغـة أدبية تعمد كثيراً إلى الأسـاليب البيانـية خاصـة الرسـائل السياسية إذ عمد الكتاب إلى أسلوب الاستفهام والتعجـب، والتوبـيخ والوعـظ لـتؤثر في نفوس من أرسلت إليه. كما برزت في هذه الرسائل ظاهرة تضمن الرسائل بالأشعار أو الأمثال فضلاً عن الآيات الكريمة.

ولعـل أبـرز مظاهـر تطـور لغـة الرسـائل في هذا العصر هو كثرة تمثل أصحابها بالآيـات الكـريمة سـواء في الرسـائل الـتي بودلـت بـين الخليفة والقادة في الفتوحات الإسـلامية أو في الرسـائل المتبادلة في الأحداث السياسية. ويكاد الكتاب الذي أرسله الخلـيفة عمـر بـن الخطـاب إلى قـائد جـيش المسلمين أبي عبيدة أن يكون عبارة عن اقتباس لمعاني القرآن الكريم وآياته أدت المعنى الذي أراد الخليفة إبلاغه. كتب الخليفة إلى أبي عبيدة يجيبه عن كتابه الذي يبلغه خبر محاصرة الروم لجيش المسلمين في الشام: سـلام الله علـيكم. أمـا بعـد، فإنه لم تكن شدة إلا جعل الله بعدها فرجاً، ولن يغلب عسر يسرين، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] [١٠٩].

أما أبو عبيدة فقد كتب إليه: سلام عليك، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى قال: قال تعالى: ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ ﴾[١١٠]. وهكذا ينهي كتابه بذكر خمس آيات متتالية. وفي الكتاب الذي بعثه الخليفة عثمان مع ابن عباس ليقرأه على الناس نجد أكثر من خمس وعشرين آية ضمنها كتابه، معبراً عن موقفه، محاولاً إقناع الناس، وحثهم على الطاعة[١١١].

وقد استمد الإمام علي من معين القرآن الكريم معاني قرآنية دمج بها رسائله، فبدت سلسلة من الصور والإشارات القرآنية، تعزز الموقف السياسي والديني. بعث كتابا إلى معاوية يحذره شر الفتنة والفرقة ويذكره يوم القيامة بقوله: (وإن للناس جماعة يد الله عليها، وغضب الله على من خالفها، فنفسك نفسك قبل حلول رمسك، فإنك إلى الله راجع، وإلى حشره مهطع، وسيبهضك كربه، ويحل بك غمه، يوم لا يغني النادم ندمه ولا يقبل من المعتذر عذره، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون)[١١٢].

فقوله إنك إلى الله راجع اقتباس من الآية ٤٦ من سورة البقرة وقوله سيبهضك كربه ويحل بك غمه اقتباس من الآية ٢٢ من سورة الحج.

وقوله يوم لا يغني النادم ندمه.. إشارة إلى أكثر من سورة قرآنية النبأ الأية٤، المرسلات الآية٣٥-٣٦.

وهكذا وجدنا من يضع نسبة تقريبية لعدد الألفاظ والتعابير القرآنية والصورة والأخيلة القرآنية الواردة في رسائل الإمام علي فيقول (لقد أخذ من هذه الوجهة ألفاظا قرآنية وتعابير كثيرة جداً حتى أن الباحث ليستطيع أن يرد ثمانين في المائة من ألفاظ رسائل الإمام وتعابيرها إلى نصوص قرآنية استعملها استعمالات مجازية وحقيقية...)[١١٣]. وقد منحت هذه السمة الرسائل بهاءاً وجمالاً وقوة تأثير في النفس.

رفع المسابهم

هوامش الفصل الخامس

١- الأمالي للقالي ١/ ٩٢.
٢- راجع في هذا جمهرة خطب العرب، الجزء الأول صفحات كثيرة.
٣- في الادب الجاهلي ٣٧١.
٤- النثر الفني / زكي مبارك ٣٥.
٥- أنساب الاشراف ١/ ٢٣٠.
٦- الكامل لابن الاثير ٢/ ٢٤.
٧- سيرة النبي ١/ ٥٠٠، تاريخ الطبري ٢/ ٢٥٥.
٨- السيرة ١/ ٥٠١.
٩- أدب الدين والدنيا ٩٢.
١٠- تاريخ الطبري ٢/ ٢٦٦.
١١- إعجاز القرآن ٢/ ٢٦٦.
١٢- السيرة ١/ ٤١٢، تاريخ الطبري ٣/ ١٢٠، إعجاز القرآن ١٣٢. والآية من سورة.
١٣- نفسه، وانظر أثر القرآن في الادب العربي ١٤١.
١٤- البيان والتبيين ٢/ ٣٠. والآية من سورة يوسف ٩٢.
١٥- البيان والتبين ٢/ ٣١، عيون الأخبار ٢/ ٢٢١، الطبقات الكبرى ج١،ق٢/ ١٥٤ ، السيرة ٢/ ٦٠٤، تاريخ الطبري٣/ ١٦٨. وانظر أثر القرآن في الأدب العربي ١٤٢، أنظر الخطبة وتخريجها في كتابنا أثر القرآن في الادب العربي ١٤٢.
١٦- تاريخ الطبري ٢/ ١٩١، الكامل لابن الاثير ٢/ ١٣١.
١٧- النهاية في غريب الحديث ١/ ٤.
١٨- نفسه.
١٩- النثر الفني.
٢٠- تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، شوقي ضيف.

٢١- أنظر أثر القرآن في الأدب العربي ٢٥٤.
٢٢- ينظر على سبيل المثال ما نقل من أقوال في كتاب الادب في صحيح البخاري.
٢٣- ينظر مثلا كتاب أمثال الحديث للرامهرمزي ٣٦،٣٩. الفاخر ١٩٣، ٢٤، جمهرة الامثال ١/ ١٣، العقد الفريد ٣/ ٦٣.
٢٤- ينظر عوارف المعارف ١٤٨.
٢٥- أمثال الحديث الرامهرمزي ٤٧، الخطابة في موكب الدعوة ٢٠٤.
٢٦- أنظر اثر القرآن في الادب العربي ٢٥٤.
٢٧- راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٣٨.
٢٨- السيرة النبوية ٢/ ٦٠٤، البيان والتبيين ٢/ ٣١، تاريخ الطبري ٣/ ١٦٨، اعجاز القرآن ١٣٠.
٢٩- عيون الأخبار ٢/ ٢٢١.
٣٠- نفسه.
٣١- البيان والتبيين ٢/ ٦٠.
٣٢- نفسه ٢/ ٦٢.
٣٣- نفسه.
٣٤- نفسه ١/ ٣٧١.
٣٥- السيرة ١/ ٥٠٠، الطبري ٢/ ٥٥.
٣٦- الخطابة في موكب الدعوة، محمود محمد عمارة، بيروت، دار الخير ١٩٩٣.
٣٧- السيرة ق ٢/ ٦١٦، عيون الاخبار ٢/ ٢٣٤، الامامة والسياسة ١٦٩، تاريخ الطبري ٣/ ٢١١، العقد الفريد ٤/ ٥٩، اعجاز القرآن ١٣٧.
٣٨- عيون الأخبار ٢/ ٢٢٤، العقد الفريد ٤/ ٦٥.
٣٩- تاريخ الطبري ٥/ ١٤٩، أنساب الاشراف ٥/ ٢٤.
٤٠- البيان والتبيين ٢/ ٥١، وفي كتاب الامامة والسياسة نص من آخر الخطبة، وانظر تخريجها في كتاب نهج البلاغة، تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد ١٠٦.
٤١- تاريخ الطبري ٥/ ٦٣.
٤٢- البيان والتبيين ١/ ٣٥٣.

رفع المسهم

٤٣- نفسه ٢/ ٥١.

٤٤- تاريخ الطبري ٢/ ٢١٣، الكامل لابن الاثير ٢/ ١٣٨. أنظر أثر القرآن في الأدب العربي ٢١٥.

٤٥- أنظر تاريخ الطبري ٤/ ٢٩، البيان والتبيين ٢/ ٤٥ فما بعدها، اعجاز القرآن ١٣٧.

٤٦- عيون الأخبار ١/ ١٠٧، العقد الفريد ١/ ١٢٨.

٤٧- الاقتباس من القرآن الكريم ١/ ١٢٨ (طبعة دار الوفاء، مصر).

٤٨- صحيح مسلم، كتاب الجمعة ٤٧، مسند الإمام أحمد ١٤/ ١٣٥.

٤٩- عيون الأخبار ٢/ ٢٣١، وانظر الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٣٧.

٥٠- البيان والتبيين ٢/ ١١٨.

٥١- البيان والتبيين ٢/ ١٤٤، نهاية الارب ٧/ ٢٣٩.

٥٢- تاريخ الطبري ٤/ ١٠٧.

٥٣- نفسه ٥/ ١٩٢.

٥٤- نفسه.

٥٥- بلوغ الارب ٣/ ٢٤١، الكامل للمبرد ٣/ ١٤٩.

٥٦- البيان والتبيين ١/ ٧٧، أنساب الاشراف ٥/ ٦٠-٦١، صبح الاعشى ١/ ٢١٤.

٥٧- أنساب الاشراف ٥/ ٦٤، تاريخ الطبري ٥/ ١١١، شرح نهج البلاغة ١/ ٣٧٦.

٥٨- نشأة الكتابة الفنية ٣٠.

٥٩- الوثائق السياسية ١٠، وقد خرّج الاستاذ حميدالله الرسائل وذكر المصادر التي ذكرتها.

٦٠- نفسه.

٦١- نشأة الكتابة : ٣٢.

٦٢- مجموعة الوثائق السياسية ٢٠.

٦٣- السيرة ق ١/ ٦٠١، الوثائق السياسية ٢٢.

٦٤- الوثائق السياسية ٢٢.

٦٥- السيرة ق ٢/ ٣١٧، تاريخ الطبري ٣/ ٧٩، اعجاز القرآن ١٣٥.

رفع
المسلم

٦٦- الوثائق السياسية ٣٥ - ٣٦، وانظر الخبر في أنساب الاشراف ١/ ٢١١.
٦٧- الاموال ٢٥، تاريخ الطبري ٢/ ٨٧، صحيح مسلم ٥/ ١٦٠ - ١٦٦، سنن ابي داود ٢/ ٦٢٨.
٦٨- الوثائق السياسية ٤٢ فما بعدها.
٦٩- نفسه.
٧٠- الوزراء والكتاب ١٢، ١٣.
٧١- الوثائق السياسية ٣٧.
٧٢- نفسه ٣٨.
٧٣- نفسه ٣٩.
٧٤- فتوح البلدان ق ١/ ٦، الوثائق ١١٠، ١١٥، ١١٦.
٧٥- الوثائق السياسية ٣٩.
٧٦- السيرة ق ٢/ ٥٩٨، فتوح البلدان ١/ ٨٢، الوثائق ١٨١.
٧٧- السيرة ق٢/ ٥٩٤، فتوح البلدان ق١/ ٩٦.
٧٨- السيرة ٢، الوثائق ٢٥٥ فما بعدها.
٧٩- السيرة ق٢/ ٦٠١.
٨٠- انظر على سبيل المثال : الوثائق السياسية ٩٢، ٩٦، ١٨١، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٢٩، ٢٣٠،٢٤٤.
٨١- نفسه ٢٦٣، تاريخ الطبري حوادث سنة ١١هـ.
٨٢- الوثائق ٢٦٢، صبح الأعشى ٦/ ٣٨٤.
٨٣- نفسه، الاقتباس في القرآن الكريم ١٠١.
٨٤- تاريخ الطبري ٣/ ٢٥٣، عهد خالد لبني مجاعة.
٨٥- الوثائق ٢٧٢.
٨٦- نفسه.
٨٧- الوثائق ٢٨٧، تاريخ ابن عساكر ١/ ١٢٨، تاريخ فتوح الشام ٨.
٨٨- تاريخ الطبري ٢/ ٤، فتوح ق ٢/ ٢٩٥.
٨٩- فتوح الشام ١/ ٢٤.

رفع المسـاهم

٩٠- تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٥، الفخري في الآداب السلطانية ٥٤.
٩١- تاريخ الطبري ٤/ ٩٢، وانظر فتوح الشام ٢/ ٣٢.
٩٢- شرح نهج البلاغة ١/ ٢٨٥.
٩٣- تاريخ الطبري ٤/ ١٧،٣، فتوح البلدان ق ٢/ ٢٢٩، ٣٠٩،٣٠٣.
٩٤- أنساب الأشراف ٥/ ٤٦، ١١٥، ١١٦.
٩٥- تاريخ الطبري ٥/ ١٤٠، الاقتباس من القرآن الكريم، ١١٣ فما بعدها.
٩٦- الإمامة والسياسة ١/ ٤٧، شرح نهج البلاغة ١/ ٧٨،٨٠.
٩٧- الوثائق السياسية ١٠.
٩٨- نفسه ٢٠.
٩٩- التنبيه والإشراف ٢٥٩، صبح الأعشى ٦/ ٢١٩-٢٢٠.
١٠٠- نفسه.
١٠١- نفسه، وانظر قول سعيد المري في الاستفتاح بالبسملة، وأنها أول شيء كتب في المصحف، وأول ما كتب به سليمان بن داود.
١٠٢- صبح الأعشى ٦/ ٣٧٦.
١٠٣- نفسه.
١٠٤- نفسه ٦/ ٢٢٥.
١٠٥- نفسه.
١٠٦- نفسه.
١٠٧- السيرة ق٢/ ٣١٧، تاريخ الطبري ٣/ ٧٩، إعجاز القرآن ١٣٥.
١٠٨- الوثائق ١٨.
١٠٩- الخراج ١٤٠، الاقتباس ١٠٦.
١١٠- تاريخ الطبري ١٤٠، الاقتباس منن القرآن الكريم ١٤٠.
١١١- شرح نهج البلاغة ٣/ ٤١٠.
١١٢- رسائل الإمام علي أطروحة دكتوراه من جامعة بغداد ص٣٠١.

رفع المسلم

رفع
المساهم

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أبو سعيد السكري/ قصي الحسيني، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية التربية ، ابن رشد ١٩٨٩.
- أثر القرآن في الأدب العربي/ د. ابتسام مرهون الصفار، مطبعة اليرموك، بغداد ١٩٧٦.
- الإجابة على ما استدركته عائشة على الصحابة، الزركشي/ بدر الدين محمد بن عبد الله (٧٦٤هـ) تحقيق الأفغاني المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٣٩.
- الأخبار لاطوال/ الدينوري، أبو حنيفة، أحمد بن داود (ت٢٨٢هـ) تحقيق عبد المنعم عامر. القاهرة ١٩٦٠.
- أدب الدنيا والدين/ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد حبيب (المتوفى سنة ٤٥٠هـ) ضمن مجموع، القسطنطينية، مطبعة الجوائب ١٢٩٩.
- الأدب في عصر النبوة والراشدين/ صلاح الدين الهادي، الطبعة الثالثة ١٩٨٠.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (٤٦٣هـ) تحقيق محمد البيجاوي، مطبعة نهضة .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة/ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي ابن الجزري (ت٦٣٠هـ) تصحيح مطبعة وهي طهران المطبعة الإسلامية ١٢٨٠هـ، ودار الشعب ١٩٧٠.
- الإسلام والشعر/ د. يحيى الجبوري. مكتبة النهضة ، بغداد ١٩٦٤.
- الإصابة في تميز الصحابة/ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ). مصر، مطبعة السعادة ١٣٢٣هـ، وتحقيق عادل أحمد عبد الموجود. وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية ١٩٩٥.
- الأصنام/ ابن الكلبي، هشام (ت٢٠٤هـ) تحقيق أحمد ، زكي، القاهرة، المطبعة الأميرية ١٩١٤.
- إعجاز القرآن الباقلاني/ أبو بكر محمد بن الطيب القاضي (٤٠٣هـ) تحقيق سيد أحمد صقر. مصر ١٩٥٤.
- الأغاني، الأصبهاني/ أبو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ) القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية (وطبعة تحقيق الأبياري).

المسهم

- الاقتباس من القرآن الكريم/ الثعالبي، عبد الملك بن محمد (٤٢٩هـ) القسم الأول، بغداد مطبعة الحكومة ١٩٧٥، والقسمان الأول والثاني في مصر، دار الوفاء ١٩٩٠.
- الأمالي/ اليزيدي، أبو عبد الله محمد. بيروت، عالم الكتب ١٩١٤.
- الأمالي/ القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم ت(٣٥٦هـ) القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٦.
- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ) القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٥٧.
- الأموال، القاسم بن سلام (ت ٢٤٠هـ). تصحيح محمد صادق الفقي. القاهرة ١٣٥٣هـ.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي (ت٦٤٦هـ) تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية ١٩٥٠-١٩٧٣.
- الأنساب، السمعاني، أبو سعد عبد الكريم (ت٤٦٣هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ، ١٩٦٣.
- أنساب الإشراف/ البلاذري، أحمد بن يحيى (٢٧٦) تحقيق د. محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩.
- البخلاء، الجاحظ/ أبو عثمان، عمرو بن بحر (٢٥٥هـ) تحقيق طه الحاجري.
- البداية والنهاية/ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن كثير، مصر، مطبعة السعادة، ١٣٤٨.
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب/ الآلوسي، محمود شكري. تحقيق محمد بهجت الأثري الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي مصر ١٣٤٢هـ.
- البيان والتبيين/ الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي.
- تاج العروس من جواهر القاموس/ الزبيدي، محب الدين، أبو الفيض السيد مرتضى (١٢٠٥هـ)، المطبعة الخيرية، مصر ١٣٠٦هـ.
- تاريخ الأدب العربي/ بروكلمان، ترجمة النجار، دار المعارف، مصر.

- تـاريخ الأدب العـربي/ بلاشـير، ريجيس، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر بيروت، ١٩٨٢.
- تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي/ شوقي ضيف، دار المعرف، القاهرة.
- تطـور الأسـاليب النـثرية في الأدب العـربي/ أنـيس المقدسـي بـيروت، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، ١٩٦٨.
- تفسير الحسن البصري/ محمد عبد الرحمن(جمع وتوثيق، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٢.
- تفسير الطبري، (جامع البيان) الطبري/ محمد بن جرير، أبو جعفر المتوفى سنة (٣١٠هـ) القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٤.
- الجامع الصحيح أو سنن الترمذي/ الترمذي، ابو عيسى، محمد بن عيسى (٢٧٩ هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر. القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٧.
- جمهـرة أشعار العرب/ القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، المكتبة، التجارية الكبرى، مصر.
- جمهـرة أمـثال العـرب، العسـكري/ ابـو هلال الحسن بن عبدالله (كان حياً سنة ٣٩٥هـ) تحقيق محمد أبو الفضل/ وعبد المجيد قطامش. القاهرة المؤسسة العربية الحديثة، ١٩٦٤.
- جمهـرة خطـب العـرب في عصـور العربية الزاهرة/ أحمد زكي صفوت القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٧.
- جمهرة رسائل العرب/ أحمد زكي صفوت، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٣.
- حسان بن ثابت، محمد طاهر درويش.
- الحكمـة في الشـعر الأمـوي/ محمـد حسـن إبراهيم، بغداد كلية الآداب، رسالة ماجستير. دار المعارف، مصر.
- الحماسة الصغرى/ أبو تمام، دار المعارف، مصر.
- الحيوان، الجاحظ/ أبو عثمان، عمرو بن بحر (٢٥٥هـ).
- تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٨، ١٩٤٥.
- خزانة الأدب/ البغدادي، عبد القادر (١٠٩٣هـ). بولاق المطبعة الأميرية ، ١٣٩٩هـ.
- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنتناوي وآخرين، (مادة حسان).
- دراسات في الأدب الإسلامي والأموي، القط، عبد القادر، مكتبة الشباب مصر، ١٩٩٢.

- ديوان ابن مقبل. تحقيق عزة حسن، دمشق ١٩٦٢م.
- ديوان حسان بن ثابت تحقيق وليد عرفات، سلسلة مطبوعات جب، لندن ١٩٧١.
- ديوان الحطيئة/ تحقيق نعمان أمين طه، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٥٨.
- ديوان حميد بن ثور/ تحقيق عبد العزيز الميمني، القاهرة، ١٩٥١.
- ديوان العباس بن مرداس/ تحقيق يحيى الجبوري بغداد، ١٩٦٨.
- ديوان عبد الله بن رواحة/ تحقيق حسن باجودة، مصر.
- ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته/ وليد قصاب، عمان، دار الضياء ١٩٨٨.
- ديوان عمرو بن معد يكرب/ تحقيق هاشم الطعان، مطبعة الجمهورية ١٩٧٠.
- ديوان كعب بن زهير/ نسخة مصورة عن دار الكتب، الدار القومية ١٩٥٠م.
- ديوان كعب بن مالك/ تحقيق سامي مكي العاني، بغداد، مكتبة النهضة ١٩٦٦.
- ديوان لبيد/ تحقيق إحسان عباس، الكويت، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢.
- ديوان لبيد/ شرح الطوسي، تحقيق حنا نصر الحتي، دار الكتاب اللبناني ١٩٩٦.
- ذيل الأمالي القالي البغدادي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت٣٥٦هـ) القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٦.
- الروض الأنف/ السهيلي، أبو القاسم، عبد الرحمن بن أحمد (ت٥٨١هـ) مصر ١٩١٤.
- سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون/ ابن نباتة، جمال الدين محمد بن محمد (٧٦٨هـ)، المطبعة الأميرية، المصرية ١٢٧٨هـ.
- سنن ابن ماجة/ محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٢.
- سنن أبي داود/ أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي المتوفى (٢٧٥هـ)، تحقيق أحمد أسعد علي، مطبعة البابي الحلبي، مصر ١٩٥٢.
- سيرة النبي/ ابن هشام، أبو محمد، عبد الملك، ٢١٣، هـ أو ٢١٨هـ تحقيق مصطفى السقا، دار إحياء التراث، ١٩٣٦، وتحقيق محيي الدين عبد الحميد. القاهرة، المكتبة التجارية.
- الشاعر الإسلامي تحت سلطة الخلافة، د. داود سلوم.
- شرح ديوان الحماسة/ المرزوقي، أبو علي، أحمد بن محمد (٤٢١هـ) تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هراون، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥١.

- شرح ديوان حسان بن ثابت/ تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس١٩٨٠.
- شرح ديوان أمية بن ابن الصلت، سيف الدين الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٠.
- الطبقات الكبرى/ ابن سعد محمد، (٢٣٠هـ) تحقيق ادورد سخو، ليدن، مطبعة بريل ١٣٢١هـ.
- العقد الفريد/ ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدين، (٣٢٨هـ)، تحقيق أحمد أمين وجماعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ١٩٥٢.
- العمدة/ ابن رشيق، الحسن بن علي (٤٦٣هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي ١٩٣٤، والطبعة الثالثة، مطبعة السعادة، ١٩٦٣.
- عيون الأخبار/ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ). القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية.
- فتوح البلدان/ البلاذري أحمد بن يحيى (٢٧٩هـ). بيروت دار صادر.
- فتوح الشام/ الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (٢٠٧هـ). كلكتا ١٨٥٤.
- فهرس شواهد سيبويه/ أحمد راتب النفاخ الكويت، دار الإرشاد، دار الأمانة ١٩٧٠.
- فحولة الشعراء/ الأصمعي، عبد الملك تحقيق توري، دار الكتاب العربي، ١٩٧١.
- الفهرست/ ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت٣٨٧هـ) القاهرة، مطبعة الاستقامة.
- في الأدب الجاهلي/ طه حسين، القاهرة، دار المعارف.
- في الشعر الإسلامي والأموي/ عبد القادر القط مصر مكتبة الشباب، ١٩٩٠.
- قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير وأثرها في التراث العربي/ إبراهيم محمد، المكتب الإسلامي.
- الكامل في اللغة والأدب/ المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد (٢٨٥هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٧.
- الكشاف، الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (٥٣٨هـ) القاهرة، مطبعة البابي الحلبي ١٣٦٧-١٣٧١هـ.
- كتاب الردة/ الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ) تحقيق محمود عبد الله أبو الخير، دار الفرقان، عمان ١٩٩١.

رفع المسهم

- شرح ديوان الهذليين/ للسكري، الدار القومية، مصر ١٩٥٠، مصورة عام ١٩٦٥.
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات/ ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم ٣٢٨هـ، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف ١٩٦٣.
- شرح نهج البلاغة/ ابن أبي حديد.(ت٦٥٦هـ) تحقيق حسن تميم، دار بيروت، مكتبة الحياة ١٩٦٣، وطبعة القاهرة، مطبعة البابي الحلبي.
- شعر الحكمة في العصر الأموي، محمد حسين إبراهيم، رسالة ماجستير، بغداد، كلية الآداب، جامعة بغداد.
- شعر الدعوة، أيهم القيسي، بيروت.
- شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام/ النعمان، عبد المتعال القاضي، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥.
- شعر المخضرمين/ د. يحيى الجبوري، بغداد، مكتبة النهضة ١٩٦٤.
- شعر الصراع بين الإسلام وخصومه في عصر النبوة/ كمال جبري، دار المناهج، عمان ١٩٩٩.
- الشعر والشعراء/ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (٧٦هـ)، بيروت، دار الثقافة ١٩٦٤، تحقيق مفيد قميحة .
- صبح الأعشى، القلقشندي، ابو العباس أحمد، مصورة عن المطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.
- الصحابي الشاعر عبد الله بن رواحة/ محمد علي كابتي. دمشق دار القلم ١٩٩٩.
- الصحاح/ الجوهري، إسماعيل بن حماد، ٣٩٣هـ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر ١٩٥٦-١٩٥٧.
- صحيح البخاري/ البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل القاهرة، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده.
- صحيح مسلم/ أبو الحسين مسلم بن الحجاج (٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء المكتب العربية ١٩٥٥-١٩٥٦.
- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام، محمد الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني.
- لبيد بن ربيعة/ يحيى الجبوري، بغداد، مكتبة الأندلس.

رفع المسهم

- لسان العرب/ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن محرم (ت٧١١هـ) دار صادر بيروت.
- لسان الميزان/ ابن حجر، أحمد بن علي (٨٥٢هـ) حيدر آباد، ١٣١٩هـ.
- مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي/ ابتسام مرهون الصفار، بغداد، مطبعة الإرشاد ١٩٦٨.
- مجاز القرآن/ أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠هـ)، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مصر، مطبعة محمد أمين الخانجي، ١٩٥٥.
- مجموعة الوثائق السياسي للعهد النبوي والخلافة الراشدة/ جمع وتحقيق محمد الله، مصر، مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٥١.
- محاضرات في تاريخ النقد/ د. ابتسام مرهون الصفار، د. ناصر حلاوي، مطابع دار الحكمة، الموصل، وزارة التعليم العالي، ١٩٩٠.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ ابن عطية، عبد الحق، تحقيق عبدالله إبراهيم الأنصاري، وعبد العال السيد إبراهيم، الدوحة، ١٩٨٥.
- معجم الأدباء/ ياقوت الحموي، (ت٦٢٦هـ) تحقيق د.س. مرجليوث مطبعة هندية بالموسكي. مصر ١٩٢٣-١٩٢٥.
- معجم البلدان/ ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ). ليبزج ١٨٦٨.
- معجم الشعراء/ المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مصر.
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي/ فنسنك. ليبزج.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ محمد فؤاد عبد الباقي، مصر، مطبعة البابي الحلبي.
- المفضليات/ المفضل الضبي (ت١٦٨)، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، مصر دار المعارف، الطبعة الثالثة.
- مقالات في تاريخ النقد، د. داود سلوم، بغداد.
- المؤتلف والمختلف/ الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر (ت٣٧٠هـ)، تحقيق عبد الستار، أحمد فراج، القاهرة، دار إحياء المكتب العربية ١٩٦١.
- الموشح/ المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران، (ت٣٨٤) تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر ١٩٦٥.

- الموطأ/ مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.
- المنازل والديار، أسامة بن منقذ، نشر أنس بن خالدوف، موسكو ، دار النشر للآداب الشرقية ١٩٦١.
- النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، مصر، دار الكتب المصرية ١٩٣٤.
- نشأة الكتابة الفنية، د. حسين نصار، الطبعة الأولى مكتبة النهضة ١٩٥٤.
- نهج البلاغة توثيق وتحقيق/ صبري إبراهيم السيد، القاهرة.
- نهاية الأرب/ النويري، شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٧هـ).نسخة مصورة عن طبيعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

المقالات:

- أبو أحمد بن جحش، اجناره وأشعاره، محمد علي دقة، مجلة الدعوة الإسلامية، العدد الثامن ١٩٩١.
- القصيدة العربية بين الثورة والتجديد، ابتسام مرهون الصفار، مجلة المناهل (المغربية) العدد ١٧، ١٩٨٠، الرباط، وزارة الثقافة.
- مستويات التلقي، الوجه الآخر للحطيئة، ابتسام مرهون الصفار، مجلة الأستاذ العدد الأول.

المؤلفات والكتب المنشورة:

- التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة، جامعة بغداد، مطبعة النعمان ١٩٦٨.
- مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٦٩.
- التعازي للمدائني (تحقيق) بالاشتراك مع د. بدري محمد فهد، مطبعة النعمان ١٩٧٢.
- صور من الحضارة العربية الإسلامية بالاشتراك مع د. بدري محمد فهد، جامعة بغداد، مطبعة النعمان ١٩٧٣.
- أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري، بغداد، مطبعة اليرموك ١٩٧٦.
- تحفة الوزراء (تحقيق) بالاشتراك مع حبيب الراوي، وزارة الأوقاف ١٩٧٥.
- زياد الأعجم شاعر العربية في خراسان، بغدادن مطبعة اليرموك ١٩٧٨.

رفع المسهم

- الاقتباس من القرآن الكريم للثعالبي (تحقيق) ١٩٧٣، ج١، ١٩٩٠، والجزء الثاني بالمشاركة مع مجاهد مصطفى بهجت، دار الوفاء، القاهرة، ١٩٩٠.
- معجم الدراسات القرآنية، جامعة بغداد، مطابع جامعة الموصل ١٩٨٤.
- أبو العيناء الأديب البصري الظريف، وزارة التعليم العالي، مطبعة الموصل ١٩٧٨.
- محاضرات في تاريخ النقد العربي بالاشتراك مع د. ناصر حلاوي، وزارة التعليم العالي، مطابع الموصل ١٩٩٠.
- الأمالي في الأدب الإسلامي، دار الحكمة، بغداد ١٩٩٠.
- عمدة الكتاب للزجاجي (تحقيق) بريطانيا، إصدارات الحكمة، وليد أحمد حسين ١٩٩٩.
- ثقافة أبي تمام من خلال شعره، وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٥.
- الجوهر الفرد في مفاخرة النرجس والورد للمارديني (تحقيق)، قيد الطبع (الكتاب التكريمي للأستاذ هلال ناجي.
- الجامع للأطاريح والرسائل الجامعية في العراق، دار الحكمة، بريطانيا، ٢٠٠٢..
- المقامة الحصيبية للقاضي أحمد بن الزبير تحقيق بالمشاركة مع د. بدري محمد فهد، منشورات الحكمة، بريطانيا ٢٠٠١.
- عمدة الكتاب، الزجاجي (تحقيق). دار الحكمة بريطانية، ٢٠٠١ .
- آفاق الأدب في العصر الأموي، دار المناهج، ٢٠٠٥.
- الطيرة والفأل في الموروث الأدبي والفكر الإسلامي، عمان، دار المناهج، عمان ٢٠٠٣.

البحوث المنشورة:

- شاعر بكى الجاهلية في الإسلام، مجلة الأجيال ١٩٦٨.
- المفسرون والشعر، مجلة كلية الآداب ١٩٦٨.
- الألوان ودلالاتها على الذوق العربي، مجلة اللغات ١٩٦٩.
- الإحساس بالزمن في الشعر العربي، مجلة الأقلام ١٩٦٩.
- نسيم السحر (تحقيق)، مجلة المورد، العدد الثامن.
- التراث العربي بين انصاره ورافضيه، مجلة المورد ١٩٧٤.
- الوجه الآخر للحطيئة، مجلة الأستاذ ١٩٧٨.

رفع المسيهم

- حول تحفة الوزراء. مجلة المورد ١٩٧٤.
- حول مشروع اللغة العربية الأساسية، اللسان العربي، مكتبة التنسيق والتعريب ١٩٧٦.
- المستدرك على ابي تمام في المراجع العربية والأجنبية، مجلة المورد ١٩٧٢.
- ملاحظات حول سيرة الثعالبي، مجلة المناهل، الرباط ١٩٨٠.
- الألفاظ العربية بين المعنى اللفظي والدلالة الفكرية، مجلة اللسان العربي، المغرب ١٩٧٩.
- منهج البحث الأدبي عند القاضي عياض من خلال كتابه بغية الرائد لما تضمنه حديث ام زرع من فوائد. مجلة المناهل، المغرب، العدد١٩، ١٩٨٠.
- المرأة العربية والثبات على العقيدة والمبدأ، المجلة العربية، الرياض ١٩٨٠.
- المؤثرات العامة في شعر الشريف الرضي، وزارة الإعلام، آفاق عربية ١٩٨٥.
- ملامح المرأة العربية في قصص الكاتبات المغربيات، مجلة المرأة العربية ١٩٨٥.
- التذكير والتأنيث للسجستاني (تحقيق)، مجلة البلاغ، العدد الثامن، ١٩٧٢.
- المستخرج من تاريخ أبي حيان، مجلة المناهل، المغرب، ١٩٨٢.
- الملامح الوطنية والقومية في شعر الحاج مرهون الصفار. وقائع الندوة السنوية الثالثة (ندوة بغداد للتراث الشعبي). وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٧.
- الشعر الأموي في معايير النقاد القدامى. وقائع الندوة السنوية الثالثة، نقد الشعر، الموصل، ١٩٩٠.
- دعوة الجاحظ إلى إشاعة تعليم العربية، وقائع ندوة جامعة الكوفة (العروبة والإسلام من منظور معاصر ١٩٩١).
- التوجه الديني ومساهمته في تنشئة الأجيال. وقائع ندوة العائلة العربية في مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين ١٩٩٤.
- رسوم الخطوبة والزواج في أدبنا العربي، المؤتمر العلمي الأول، كلية التربية للبنات ١٩٩٥، ونشر في مجلة كلية التربية للبنات ١٩٩٩.
- الدرس القرآني عند أبي بكر الأنباري، وقائع المؤتمر العلمي الأول، جامعة الأنبار ١٩٩٥.
- القصيدة العربية بين الثورة والتجديد، مجلة المناهل، المغرب العدد ١٧/ ١٩٨٠.

رفع المسهم

- الطيرة والفأل في موروثنا الأدبي، مجلة المناهل(القسم الأول) العدد ١٩/ ١٩٨٠.
- الطيرة والفأل في موروثنا الأدبي، مجلة المناهل(القسم الثاني) العدد ٢١/ ١٩٨١.
- الطيرة والفأل في موروثنا الأدبي، مجلة المناهل المغرب (القسم الثالث) ١٩٨٢.
- الطيرة والفأل في موروثنا الأدبي، مجلة المناهل، المغرب (القسم الرابع)، ١٩٨٣.
- الذوق الأدبي وفهم النص. وقائع ندوة النص. الجامعة المستنصرية ١٩٩٢.
- ظرفاء بغداد في القرن الثالث الهجري وقائع ندوة بغداد الأولى، كلية التربية للبنات ١٩٩٢.
- مجالس بغداد ومناظراتها في القرن الرابع الهجري. وقائع ندوة بغداد الثانية. كلية التربية للبنات ١٩٩٣.
- جهود الخطيب البغدادي في الرواية الأدبية. وقائع ندوة بغداد الثالثة. كلية التربية للبنات ١٩٩٤.
- بغداد وشعراؤها في كتاب خريدة القصر. وقائع ندوة بغداد الرابعة. كلية التربية للبنات ١٩٩٥.
- تجربة واحدة وشاعران، وقائع ندوة النص. كلية التربية للبنات ١٩٩٥.
- مستويات التلقي في الأدب العربي القديم، مجلة الأديب المعاصر ١٩٩٩، مجلة جذور، جدة، ج٢، مج ١٩٩٩.
- رواية الشعر الأموي، الفرزدق انموذجاً، الكتاب التكريمي (قطوف دانية مهداة إلى ناصر الدين الأسد) ١٩٩٨.
- أحمد بن وهب، في بحوث المجمع الملكي لبحوث الحضارة، الأردن.
- نحو مصداقية الشعر، مقبول للنشر مجلة اليرموك الأردن، ١٩٩٩.
- بين الشيخ محمود محمد شاكر والدكتور علي جواد الطاهر، المجلة الثقافية الجامعة الأردنية، ٢٠٠١.
- المقري التلمساني والتواصل بين المغرب والمشرق-وقائع ندوة الجزائر، جامعة آل البيت ٢٠٠١، مجلة البيان جامعة آل البيت م٣، ع٤، ١٤٢٢/ ٢٠٠٢.
- الاتجاهات النقدية الحديثة في الدراسات العليا، وقائع ندوة الجامعة الأردنيةن ٢٠٠١.

- الشيخ حمد الجاسر رائدا للتحقيق-وقائع ندوة استذكار الشيخ حمد الجاسر، جامعة آل البيت ٢٠٠١، مجلة البيان م٤، ١٤٢٢، ٣/ ٢٠٠٢.
- حصاد القرن العشرين من تحقيق التراث، مجلة العرب، ج١٠، ٩ حزيرانن تموز ٢٠٠١، ج١٢، ١١، أيلول، تشرين ٢٠٠١.
- تعريف التعليم إشكالية قومية أم تربوية، مجلة افكار العدد ١٦٧/ ٢٠٠٢.
- تحقيق النصوص عند الدكتور محمود إبراهيم-مجلة أفكار ١٧١/ ٢٠٠٣.
- أثر ناصر الدين الأسد في الدراسات الأدبية، مجلة أفكار، العدد [illegible]
- حلقات البحث العلمي. عند حسين عطوان مجلة أفكار، العدد ١٧٤/ ٢٠٠٣.
- قراءة في كتاب نادر "الفلاكة والمفلكون" مجلة افكار ٢٠٠٤ العدد ١٨٣.